

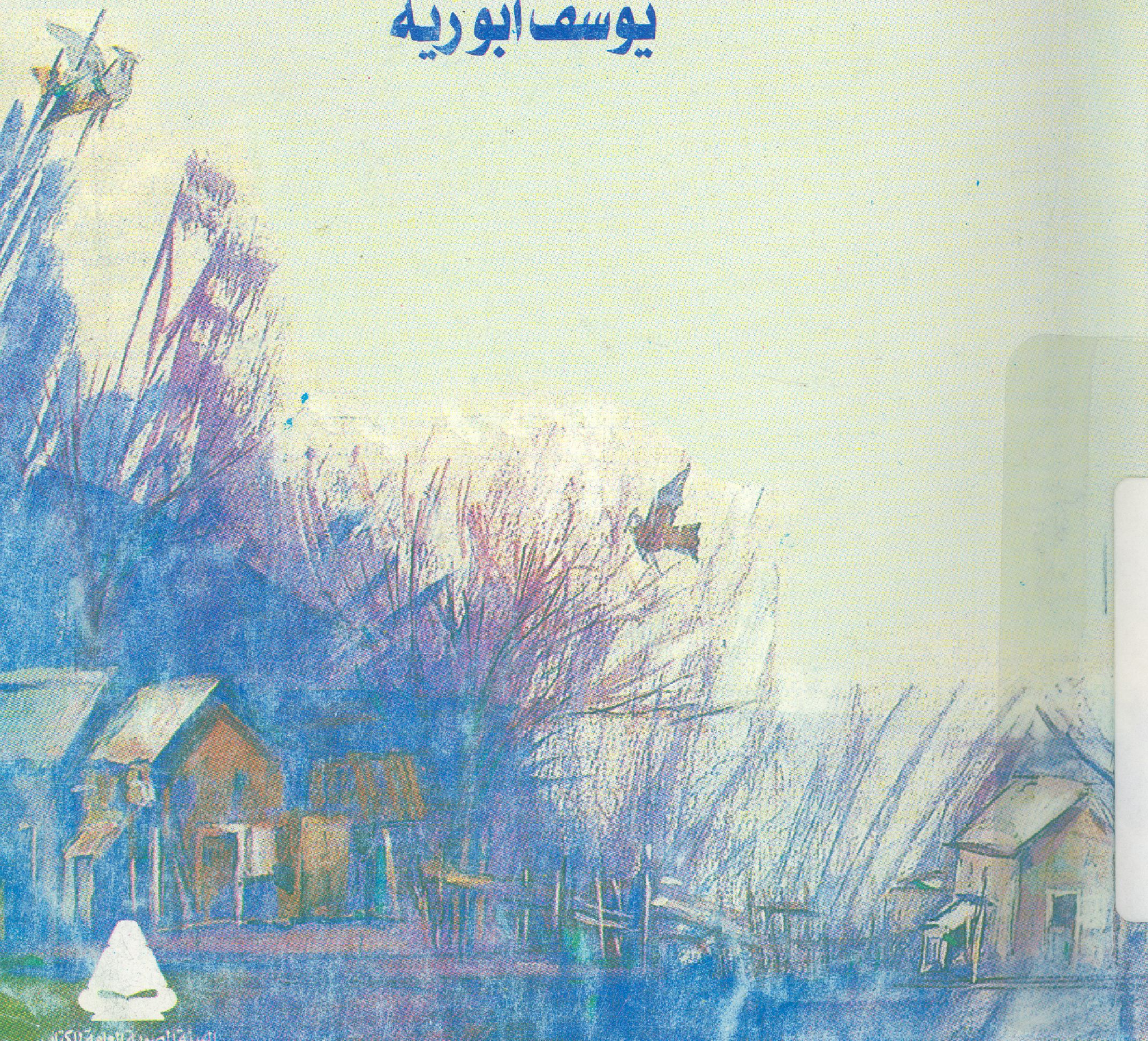
مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

مكتبة
الأسرة
1999

عطش الصبار

يوسف أبورية



عطش الصبار

عطش الصبار

يوسف أبو رية



مهرجان القراءة للجميع ٩٩
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة الأعمال الإبداعية)

عطش الصبار

يوسف أبورية

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

القسم الاول

الآن واروها التراب ، وكان آخر ما سمعته من كلام الدنيا ما قاله لها الشيخ الذي خرج من الفوهة ، واقمى - جامعا قفطانة - أمام العين ، يلقتها بما قد يعينها على الدنيا المجهولة المقبلة عليهما بتوجس ، قال لها الشيخ ، وأنصت المشيعون لما قال بقلوب واجفة : يا أمة الله قولى لا اله الا الله ، ان جاءك الحنان المنان فأجيبه بأحسن لسان ، ان سالك عن دينك فقولى دينى الاسلام ، وان سالك عن نبيك فقولى محمد عليه الصلاة والسلام .. يا أمة الله اعلمى ان الموت حق ، والصراط والميزان حق .

وقامت النسوة ليجددن بكاءهن ، ووقف الرجال المحيطون بالمصطبة حين وقف الشيخ ينفض ذيل قفطانة المفتوح منهيا كلامه بـ « لا اله الا الله » حبل النجاة من الجب الدامس الى بهرة النور الحى .

وهى فى ظلمتها حاولت القيام مع القائمين غير أن الأرض التى ارتفعت والسقف الذى هبط منعاهما ، فاستسلمت لنومتها بين الكفن المحلول .

وتشعبت الطرق بالمشيعين .

بنت الحاج الكبيرة سارت مع أخواتها ، لما استقبلت الضوء المشع على أسفلت الطريق قالت للأخوات : المسكينة ، حضرت غسلها كأخت لها ، وكان وجهها ورب العزة كالقمر المضيء بين يدي المفصلة .. ولكن ماذا أقول ؟ حين رفضنا عنها الثوب لم نعثر الا على واحد فقط هناك ، حتى الآخر .. حتى الآخر كان ضامرا وكأنه لمجوز أهلكها الدهر .

وسألتها أختها : عن أى آخر تتحدثين ؟

قالت : الثدى الأيسر الذى وجدنا مكانه فارغا .

وضربت الأخوات صدورهن : آه .. لم تكن نعلم أن ابنة خالتنا ثدى وحيد وطالبها بكتمان السر حتى لا تلتقطه الأذن الغريبة .

في ضحى هذا اليوم ، وصلت زبيدة أم ابراهيم بصحبة زوجها ، طرقت باليد الحديد التي تمسك نصف الليمونة ، فارتج للطبرقة الباب الخشبي القديم ، تضربه الشمس من الصبح حتى آخر النهار ، ذلك أن ساحة الطاحونة المواجهة لا تسمح للظل أن يمتد على جدران الدار .

فتحت سعدية شراعة الباب ، ونظرت بنصف وجهها ، الذي تكدست على سحنته القبيحة غيوم سوداء ، تنذر بمطمر وعواصف ، وتجاهلت زبيدة هذه النظرة ، ولوت عنقها ، لتشمخ بأنفها ، وتقول : أفتحي .

وتفادت النظر الى زوجها المشغول بمصافحة الحاج على الجالس على كرسى مرقع أمام ميزان الحب ، والذي ظهر جانب من وجهه بين الجلابيب السود للنسوة المنتظرات . ظهرت سعدية وراء ضلفة الباب تلملم جلابيها الأحمر القصير ، كان الماء يقطر من عند الكوع ، فجففته بخرقة معلقة على سلك الفسيل الممتد عبر الصالة الطويلة ، وتقدمت زبيدة في دار أبيها ، بجرأة متحدية ، وفتحت باب الحجرة الأولى ، وادخلت زوجها الذي حيا سعدية باتكسار غير معهود ، ودخل الحجرة مطأطء الرأس ، بعد أن ترك الحقائق في المدخل .

جلس على الكنية المواجهة للباب ، يجفف عرقه ، ويروح على وجهه بمنديل أبيض ، وجلست زبيدة الى جواره ، تحت قالب الجير الملون ، المعلق على الحائط ، ويبدى ولدا وبنثا يهرعان فوق حشائش خضراء ، في مكان مجهول ، صامت ، لا يملأ فراغه غير شجرة ، تطل منها رأس وحش ، غير محدد الملامح ، فلا تدري ان كان هذا الوحش ، ذئبا ، أم ضبعا ، أم لبؤة ؟

البيت :

كان هذا البيت الصغير جزءا من الدار الكبيرة للعائلة ، وهذا الحائط الذي لم يفلح الجير في اخفائه اقيم ليحجز الباب الموصل

لبقية الدار ، التى قسم ثلثاها المتبقيان بين اثنين من الأعمام ، بعد رحيل العم الكبير ، بزواجه وأبنائه منهما الى الحى الآخر ، بجوار سكة الحديد ، بعد أن اختلف مع أخويه ، فترك لهما نصيبه فى الدار ، وأن لم يترك نصيبه فى الطاحونة الشرك .

وللبيت ثلاثة أبواب لثلاث حجرات مفتوحة على صالة . بعرض متر ، يسدها حائط الجيران ، وفى نهايته حوش لا سقف له ، أقيم فى ركن منه فرن كبير للخبز ، وكانون ، وحجرت منه مساحة صغيرة ، انشئ عليها مطبخ يتدلى على بابه سلك للمبة كهربائية سوداء براز الدباب الذى يتكدس فوقه بعد كل مغرب .

وفى هذه المساحة يمرح البط والدجاج ، وفى جوانبها حفرت الأرانب مخابئها ، وسحبت الى حوافها أعواد الحشائش الخضراء التى تلقى اليها كل صباح .

ذات يوم بعيد ، عاد العم الأكبر محمد من قرية نائية قضى فيها أسبوعا كاملا بين أقارب يحملون لقب العائلة ، اكتشفهم العم صدفة ، وعزموا عليه بالزيارة ، وهناك أشاروا عليه بشراء الثلاثين فدانا التى يعرضها أحد كبار ملاك الناحية ، وصحبوه الى هذه الأرض ، وحددوا له المساحة ، فخضع العم للأغراء ، وأمل نفسه أن يكون أخوه ابراهيم - الذى يقضى دوره فى إدارة الطاحونة - قد وفر مبلغا معقولا من الأيراد ، على أن يجمع باقى المبلغ ، من ثمن حلى نسوة العائلة ، فيشتري هذه المساحة الكبيرة له ولأخويه جميعا .

ولما عاد الى البلد ، ذهب الى أخيه الجالس فى حجرة الميزان ، وبعد الترحيب ، وحمد الله على السلامة ، وبعض الحكايات عن هؤلاء الأقارب الجدد ، والحديث عن الخير العميم الذى يتمرغون فيه ، والكرم الذى يفوق الحد ، دخل فى الموضوع مباشرة ، فصاح ابراهيم فى وجهه : أرض .. أرض ايه ؟

ونفض حجر جلبابه من غبار الدقيق العالق به ، وأراد أن يقوم ، وتمكن محمد من ذراع أخيه الصغير الذى عهده متعجرفا ، لا يقيم لكلامه وزنا : اسمع بس .. أنا اشرف عليها . آخذ المراتين والأولاد ، وأبنى لى بيتا هناك على رأس الأرض ، ورزقتها لكل . وقال الأخ ، وهو يعطى له ظهره : معك فلوس تشتري الأرض .

فرد عليه محمد وهو يقوم ليلاحقه : ايراد الطاحونة . فاستدار اليه ، وهو ننفض كفا بكف ، ويمط الشفة السفلى ،

وكان على محمد أن يفهم أن أخاه يعترف بأنه لم يوفر شيئا من
الإيراد ، والدعه الآخر برده الجاف : تريدني أن أطعم هذا الجيش
(وأشار الى دار العائلة) على رأسهم زوجتان لك ، كل واحدة
منهما نجر نصف دسنة من العيال ، وأوفر من الإيراد .
وبصق على الأرض قائلا : صحيح اللي اختشوا ماتوا .
وأمسك محمد بخناقه . وكال له صفة قوية ، وحجز بينهما
الربائن ، وقدم الأب المعجوز ، بعصاه ، خارجا من باب الدار
الكبيرة ، ندخل بينهما بهيكله الناشف ، لاثما محمد وموبخا إياه ،
صائحا بفعه الأهم : اخزى على دمك . ورفع محمد أشياءه
من دار العائلة ، ورفع أولاده على الحمير ، وسحب بقرة عجوز ،
هى نصيبه من ماشية العائلة ، ورحل الى الأرض الفضاء التى
اشتراها فى الحى المجاور للسكة الحديد ، عقب خمس سنوات
قضاها فى إدارة الطاحونة ، وترك مسكنه ، وهو هذا الجزء من
الدار ، الذى دخلت زبيدة إحدى حجراته ، حيث أسند زوجها
ظهره على الأثر الباقي للحائط الذى دق عليه قالب الجير ، حيث
يجرى على سطحه الصغيران خوفا من الوحش الرابض بين أغصان
الشجرة الوحيدة .

البت الوحيدة :

سحبت زبيدة أم إبراهيم الحقيبة الصغيرة ، وبدأت تخرج
من بطنها علب الدواء ، وتصفها على أرضية النافذة ، ومكث زوجها
فاردا ذراعيه على مساند الكنب ، بعد أن طوى المنديل ، وركنه
على فخذه ، وظل مثبتا نظره عبر باب الحجرة ، لا ينطق بحرف ،
وهى بعد الانتهاء من تصفيف العلب ، فكت الإشارب المعقود على
شعرها ، ونفخت هواء حارا ، وتعلقت نظراتها بصورتها حين كانت
شابة تدرس فى مدرسة المعلمات بالمديرية ، ورات وجها أبيض بلون
اللبن الصابغ ، ينسدل عليه شعر قصير مموج ، يظهر تحت أطرافه
قرط صغير به فسان لامعان ، وشفتاها المدهونتان بأحمر شفاف
قائم ، كانتا مضمومتين لتبديا فما محندقا عليه مسحة وقار ،
مرسومة بحساب دقيق ، والعينان كانتا حالمتين تنظران الى لاشيء ،
ويمتد كتفاها الى خارج الإطار ، يجمعهما ثوب خفيف تزركشه
قطع من الدانتلا البيضاء ، تحيط الصدر القوى ، الذى يبرز

خلف نقوش الدانتلا ، نفس الثوب الذي ارتدته ، يوم دخلت على كمال أول مرة ، حين قدم مع أمه وأخيه الأكبر ، يطلبان يدها من أبيها ، وكانت قد رأت كمال مرات عديدة ، على رصيف محطة « الزقازيق » ، وانتقتها عيناه من بين رفيقاتها ، وخفق له قلبها ، وظل يلاحقها ، وهو في مشواره اليومي الى مدرسته ، وبطريقة ما ، تواعدا على اللقاء ، وعرفت انه يعمل معلما باحدى مدارس المديرية ، وهو في سبيله الى الانتقال الى مدرسة سموحة بالاسكندرية ، وطالبتة بالتقدم الى أبيها ، وأعطته بيانات كافية عن حالها ، وعرفته أن لأبيها نصيبا في طاحونة ، وفدانين من الأرض الزراعية ، ودارين واحدة منهما مؤجرة ، وحملت باليوم الذي تنتقل فيه لتعيش في المدينة الواسعة ، وتصبح زوجة لافندي حقيقي ، ينتشلها من عنف أخيها الوحيد ، ولتظل أمها مشبوبة بها ، متعلقة بحبها ، يدفعها الشوق لزيارتها في مدينتها البعيدة . وانتقلت مع زوجها الى الاسكندرية ، وفي الإجازة الكبيرة ، تعود برفقته ، فتجد أمها - كما اعتادت كل عام - دهنت جدران الدار بالجير ، وغسلت بياضات الكنب ، وأخرجت من دولا بهما الملاءات المخزونة .

كانت الأم تعيش عيدها الحقيقي حين ترى ابنتها تطرق عليها بابها المهجور ، خاصة بعد انتقال زوجها « ابراهيم » فجأة الى رحمة ربه الواسعة ، وغادرها ابنها الوحيد الى القاهرة ، بعد أن قضى معها ثلاث سنوات ، باع فيها نصيبه من الأرض الملك ، ونصيبه من الدار ، وعدة قراريط من ميراثه في الطاحونة ، ولم يقترب من أرض الاصلاح الزراعي ، وعاش في العاصمة مع زوجة عزباء ، اختارها له صاحب التاكسي الذي يعمل عليه .

كانت حين تعود زبيدة أم ابراهيم تجلس على سريرها النظيف تحت مصباح الحجر بالضبط ، فتشع على نوره نورا جديدا ، ويأتي العم محمد وزوجته وأولاده ، من حيه البعيد ، ويأتي جدها لأمها - قبل رحيله - وخالتها وخالها من نفس الحى ، ويأتي العم على المقيم في الجزء المتبقى من دار العائلة ، وتزدحم الحجرة بالزائرين والزائرات ، وتحرك أمها من حجرة الى حجرة ، تنقل صواني الشاي والقرفة الى الرجال المحيطين بزوجها ، القاعد ببيجامته البيضاء النظيفة بحجرة الكنب التي يفوح منها رائحة

الجبر الجديد ، وتعاونها النسوة والفتيات الصغيرات القاعدات حول الضيفة العزيزة .

وتبدأ تحكى بكبرياء عن الاسكندرية ، وهوائها الجميسل ، وبحرها الصاخب الذى لا يكف عن الهدير ، وذلك بلكنة معوجة ، تحاول فيها ان تثبت خشونة لهجة أهلها بالقياس بلهجة أهل المدن ، والفتيات الصغيرات حولها مبهورات ، لا يبعدن عنها نظراتهن النهمة .

واستمرت هذه الحفاوة ، بعد أن سافرت بصحبة زوجها الى ليبيا ، حيث قضيا أربع سنوات ، مدة الاعارة التى حددتها وزارة التربية والتعليم ، ومكنتهم هذه السفرة ، من تجديد غفش زواجهما تجديدا كاملا ، غير أنهما لم يبدلا الشقة التى يسكنانها بالدور الأرضى بحى سموحة وعادت بعض فتيات العائلة من زيارة الاسكندرية - ذات صيف - ليحكين عن الثلاثرة الضخمة ذات البابين والتليفزيون الملون الكبير بحجم السينما ، والفيديو الذى يسمع للمرء بمشاهدة الأفلام على مزاجه .. والستائر المنسدلة على كل نافذة وباب و .. و .. وماتت أمها فى السنة الأخيرة من الاعارة ، ولم تحضر وفاتها ، واكتفت حين عادت بزيارة مقبرتها ، وانتظرت بنات الخالة اللاتى صحبنها الى الجبانة الدموع الحسرة التى ستدرفها الابنة الوحيدة ، ولكنهن عدن خائبات الرجاء ، ورددن فيما بينهن : لقد عهدناها متحجرة الدمع ، جامدة القلب . ونفضن أيديهن منها ، وصارت زيارتهن لها - حين تعود - عزيزة ، ونادرة ، وعاد أخوها يسرى بزوجه ، بعد أن دفن ابنه الوحيد بقرافة العاصمة ليعمرا الدار المهجورة .

ونادت زبيدة أم ابراهيم على سعدية المشغولة بعمل دارها لتحضر كوب ماء لتبتلع بعض الحبوب من علب الدواء ، وردت سعدية من الخارج بصوت مرتج ، أتى من قم مدفوس فى الصدر ، غطت عليه أصوات المواعين التى سقطت بصخب على بلاط الصالة .

المرأة الغريبة :

بعد أن فتحت لهما الباب ، سارت سعدية الى الحجرة الأخيرة ، تستر فتحة الصدر ، على ثديين معلقين كجدرى بطاطا ضخمين

وفارغين ، لم يقرب حلمتيهما فم رضيع ، فهي لم تنجب من زوجها
الاول الذى قضت معه عامين كاملين فى « ميت غمر » وهو ابن
خالتها ، يعمل بورشة صيانة ، لم يكن يقربها ابدا ، حتى لا تتكرر
هزائمه ، وكان لا يكف عن ضربها ، كلما حاول جماعها ، وينزل عنها
مداريا خجله فوق الوسادة ، ويواصل العويل ، حتى يتردد أذان
الفجر من جامع الحى ، وهى تظل على صمتها ، تتحسس
خربشاتة ، وتتوجع من ألم عظامها ، وطلقت منه ، وعادت الى
اهلها فى روض الفرج وسقط عليهم ذات ليلة ، رجلها الحالى ، كان
قادما من بلدته ، يطلب العمل على واحدة من سيارات أبيها ،
وقال : انه ابن ناس مبسوطين ، وانه غير راض عن اهلك ، لانه أراد
أن يدير الأرض والطاحونة بعد وفاة أبيه ، ووقفت له أمه بالمرصاد .
وادعت أنه لن يفلح فى ذلك ، والأفضل له أن يعود الى وظيفته بالطاقة
الذرية فى انشاص ولكنه أصر على إدارة أعمال أبيه ، وجمعت له
أمه رجال العائلة الكبار ، جده وأعمامه وأخواله ، وقالوا له لا تضيع
فرصتك الأخيرة ، يكفى أنك طردت من الجيش ، وأوضح أنه كان
قد تطوع بالقوات المسلحة فى بداية الثورة ، وترقى فى الجيش حتى
صار رقبيا ، وتهجم - ذات يوم - على أحد الضباط لأنه سببه
بشتائم مقذعة ، ذكر فيها أمه بالفعل البطل .

ورضى أهلها به ، وتركوا له التاكسى يعمل عليه ، وأسسكنوه
حجرة واسعة فى شقة بالدور الثالث بعابدين ، مع أسرة نوبية طيبة ،
يعمل رجلها موظفا بالتأمينات ، وامراته ست بيت ، كانت تقضى
نهارها مع سعدية بالشقة ، وفى كثير من الأيام تشتري لها الخضار
من السوق .

وأحبا أطفالهما ، فكان يرى حين يعود كل مساء ، يجلب
لهم الشيكولاته والبسكويت ، ويؤمل نفسه بالولد ، الذى يشبه
حبه الأبوى الكامن بصدرة ، وجاء الولد ، أبيض ، نعيون زرقاء ،
وبجسد ممتلئ ، فكان يشبه غمته زبيدة فى لون بشرتها ، وفى زرقه
عينيها ، وملا عليهما الحجرة بشقاوته ، وبأصواته الطفلية العذبة ،
وأفتكره الله ، وقبره ، بأحد مدافن القاهرة ، عديمة القلب ، وطوت
فى قلبها ، هذه الصفحة الأليمة ، وعاشت معه على أمل أن ينجبا
ولدا آخر عوضا عن هذا الذى أرادته الله الى جواره ، ولكن الآخر
لم ينجى أبدا ، وقطع عليهما الأطباء كل أمل ، فقالوا : لا يصلح
دمك لدمه .

وأكدوا : ان عنقود الرحم ضعيف لا يحمل جنينا .
وقضيا اعوامهما ، يكونان الأجنة ، التي لا تطيق أكثر من
شهرين في جوفها ، وتندفق دما أحمر ثقيلا ، وحين عاد الى «الجزيرة»
بلدة زوجها ، ملا شقوق جدران الدار ، بأجنة كثيرة ، كان أكبرها
قد كون العظم واللحم ، وظهرت له خلقة صغيرة بحجم صيرة
السماك . وارتدت سعدية خلعة قديمة على جلبابها الأحمر
الذي يبدى أكتافها وصدرها لعين الرجل الغريب ، وأعدت ترتيب
الملاء التي رفعت عن السرير ، وطوت اللحاف الذي ظل مبعثرا
منذ ان قام زوجها في الفجر الى عربته ال « بيجو » في مشوار
خصوصي الى الاسماعيلية .

وارتعش قلبها ارتعاشة لطيفة لذكرى الأمس ، حيث قام اليها
زوجها بعد أن دخن طقم الحشيش ، في نسيم الليل ، وسقط
الساحة بآخر الدار ، وعلقت جلبابه المرمى على الكرسي الخشيب
في الشماعة المدقوقة بظهر الباب .

وعادت لتكمل غسيل المواعين ، أراحت ردفها الكبيرين على
كرسي الحمام ، وانكفات على سواد الحلة تدعكه بالسلك ، ورغاوى
الصابون .

وكانت « سعدية » قد جاءت بعد وفاة حماتها ، لتعمر مع زوجها
الدار ، وهو لم يكن يريد العودة الى بلده أبدا ، وكان يقول : انهم
جميعا لصوص ومتعجرفون ، يعاملوننى وكأننى « عيل صنفير »
لا يعرف مصلحته ، واضطرونى الى بيع نصيبى من الأرض والدار ،
وكنت أريد أن يكون لى سيارة ملك أتحرك بها بحرية ، ولكنهم
جميعا وقفوا فى طريقى ، وأمى « المجرمة » التى لا تستحق الرحمة ،
أول من اضطرنى لترك البلد ، كانت تخلق الأسباب لتعنيفى ،
واضطرنى الى مد يدي عليها ، واكسر لها الأبواب والشبابيك ،
فتطلق الصوات ، ليأتى الأعمام ، ويحاصرونى ، واضطر العم
على لضربى بشومة كانت فى يده ، وحين عادت . مرة أخرى
لل كلام حول وظيفتى ، والخوف من خسرانها ، قلت لها : لا تعيدى
على هذا الكلام .. أريد العيش معك هنا ، وتكون لى زوجة تخدمك ،
وأراعى أرضنا ومصالحنا . وقالت : لا أريدك الى جانبى . وأجبرتني
لأن أقول لها : عينك على أحد الرجال ، وتريدى الزواج منه ،
ليملا فراش أبى ، وهذا لن يكون ، وبصقت فى وجهى ، وصرخت :

انت لا ابنى ولا اعرفك ، ملعونة البطن اللى شالتك . واطلقت
الصراخ ، فجريت الى المطبخ ، ورفعت السكين ، وجاء الطرق على
الباب ، قويا متدافعا ، وفتحت النافذة ، وأبرزت السكين من بين
قضبانها الى رجال العائلة الذين تراحموا على الباب ، وقلت لهم
مهددا : ساذبع من يقترب من الدار ، ولكنهم نجحوا في كسر الباب ،
واندفعوا متكالبين على من الخلف ، وأمسكوا بى ، وقالوا لن يكون
لك عيش فى هذا البلد .

وأجبرت على الرحيل ..

ولهذا فقد تقاعس زوجها ، حين بلغه خبر وفاة أمه ، أنهى يوم
عمله ، كالمعتاد ، وارتدى البدلة التى دخل بها على سعادىة
وأمرها بأن ترتدى جلبابها الحريري الأسود ، وطرحتها «الجورجيت»
وركن التاكسى فى «الجراج» ، وقال للحارس : يومان وأعود ، سأل
الحارس : خير ؟ قال : خير ان شاء الله .
ولم يرد اخباره بوفاة أمه .

وحضر بعد انقضاء الماتم ، وتمنت سعادىة ان تكون وحدها
سيدة البيت وقالت لنفسها : الحياة هنا رخيصة ، وآمنة ، يبيع
زوجى نصيبه من ميراث أمه ، ويبتاع له عربة يتحرك بها بين المراكز
والمدن ، وأعيد أنا ترتيب هذا البيت بعد أن نضيف اليه متاعنا
المحدود الذى يملأ فراغ حجرة وحيدة بشقة عابدين . واقتنع
الزوج فى النهاية ، وبانتظار اجراءات الميراث ، عمل لدى أصحاب
السيارات بالبلد . مرة على تاكسى اقاليم ، ومرة على نقل كبير ،
يخرج به مع الفجر ، ويعود اليها آخر النهار ، حتى عادت أخته
من سفرتها ، قامت بالواجب تجاهها ، ولم تجعلها تشمر بفقدان
أمها ، ولكنها ظلت على عجزفتها ، تعالى ياسعدىة ، روحى ياسعدىة
وهى تطيع ، وتقول لنفسها : يابت يومين ، وتمشى .

وعادت بعدها بعام ، مريضة ، فلزمت الفراش ، تكح ، وتبصق
دما ، وسعدىة تقوم على خدمتها ، نظافة الفرش ، والطبخ ،
والفسيل ، وكانت تتماذى فى عجزفتها ، فتجبرها على غسل
بصاقها ، وتشكو الى زوجها ليلا ، ويطمئنها : الحال لن يدوم ..
غدا يشفيها الله ، وترحل الى الاسكندرية ، لتكنون بجوار
زوجها .

ولم تسترح هى لبقائها بعيدة عن زوجها ، فكتبت اليه رسالة ،

ادعت فيها أنها شفيت تماما ، وأنها تستطيع العودة لخدمته ،
في شقتها التي لم تفرح بأثاثها الجديد ، وجاء ليحمل حقائبها ،
ويعودا الى شقتها ، وتفرح سعدية باستعادة بيت زوجها ، الذي
هو في الحقيقة ، نصيب اخته عن أمها وأبيها .

وعقل سعدية يقول لها ، أو هكذا يقول لها زوجها : سيؤول
البيت بكامله لنا ، فأختي لا تحتاجه ، فقط تحتاج مكانا تنزل عليه
هي وزوجها في الاجازات ، علينا أن نتحمل خدمتها .

وسعدية لم تمنع في ذلك أبدا ، ولكنها لن تجبر على غسل
بصافها ، ودمها ، فهي تخشى انتقال العدوى الى صدرها ، وكل
إنسان فيه ما يكفي .

وسقط غطاء الحلة من يدها ، لما سمعت النداء القادم من حجرة
الكنب ، كان صوت عمتها يطلب كوب الماء ، مازالت على حالها ،
مريضة ، تزدرد الحبات الموصوفة بالروشتة ، ولأن زوجها لن يقوم
على خدمتها وحده في المدينة ، أعادها لتخدمها سعدية بينما يظل
هو وحيدا يصرمخ في الشقة ، ويمشي على حل شعره ، هذا النجس ،
الذي لم يكف عن ملاحقة سعدية سواء في هذه الأيام التي اختلى
بها ، حين أرادت زيارتهما في الصيف ، نزلت عمتها الى السوق
تبتاع بعض الأشياء ، وتركها معه ، فدخل عليها المطبخ ، ودون
مقدمات ، احتضنها من الخلف ، وضمها الى صدره ، شهقت
سعدية : يوه .. يادى العيبة .

وهنا ، حين جاء بالعمة المريضة ، كان يتركها في فراشها ،
ويخلق الأسباب ليلحق سعدية في المطبخ أو في الحوش ،
مدعيا أنه يريد مساعدتها في الطبخ ، ويقول انه ماهر في صنع
الاطباق لأنه قضى فترة عزوبية طويلة ، أثناء دراسته ، وتفاجأ
بأنفاسه على جانب رقبتها ، وبلمس جسده على عرى ذراعها ،
وتقول لنفسها : هذا الناقص ماذا يظن بي .

وتزجره ، وهو لا يزجر أبدا ، ومن يراه هذا « السساهي »
بين الناس ، لا يظن فيه العيبة ، ولم يلفظ لسانها كلمة عما يحاوله
معه ، لا لزوجها ، ولا لعمتها .
وكتمت سره في صدرها .

جفت سعدية بدها في جانبي الجلباب ، ودخلت حجرة النوم ،

لتسحب كوبا من « النملية » وملاقه بماء الحنفية المدقوقة في حائط الحمام ، ودخلت بها حجرة الكنب ، فواجهتها نظرة كمال المستجدية ، وحين أرادت أن تدير ظهرها للخروج ، سمعت صوته ، الضائع يناديه من الخلف ، فأعادت النظر إليه بترفع ، وقد شحنت وجهها بالرد عما تتوقع سماعه ، وسلك زوره من البلغم ، وقال بخجل وتردد : سعدية أرجوك أن تثبتى أنك بنت ناس بصحيح .

وردت متنمرة ، وبجراة لم يعدها فيها ، مما حدا بالعمة أن ترفع الكوب عن فمها وتعلقه بيدها لتتابع اللهجة الغريبة التي تتحدث بها زوجة الأخ ، قالت سعدية : أنا بنت ناس بصحيح .. أمال أنا بنت كلب !

واستوعب كمال الإجابة العنيفة ، واستطرد : حاشا لله .. أنا أقصد بحق أثقلنا عليك ، ولكن ماذا أفعل ؟ عمتك مريضة ، ولاستطيع خدمة نفسها ، وأنا لا أستطيع القيام بهذا الدور ، فهناك أتركها وحدها ، وأذهب الى المدرسة ، والواجب أن تكون هنا بين أهلها ، وأنت الآن أقرب الناس إليها .

فقاطعته سعدية ودمع القهر يحوم في عينيها : هات لها خدامة .. لن أستمري في جمع بصاقها ، فضلا عن أوامرها وشخطها الذي لا ينتهى ، ونطلع في الآخر ، لا شكر ولا الحمد لله وتدخلت العمة في الحوار محتدمة غاضبة : أما أنت قليلة الأدب بصحيح .

وسمعت من سعدية مالم تتوقع سماعه أبدا : ماحد قليل الأدب الا أنت .. فأكرة نفسك ايه ؟

وقام كمال ليهدىء الموقف ، ووقف بينهما ، وطبطب على كتف سعدية بحنان : معلش .. دى أختك برضك .

ونفضت سعدية يدها بعنف ، وخرجت من الباب ، تشتم ، وتسب ، والتقطت أذن زبيدة كلمات مهشمة ، مثل « بنت كلب » ، « أبوك » ، « أمك » . وأشارت الى زوجها لتشهده ، وتصنع الرجل أنه لم يسمع شيئا ، واقترب منها ليسكن غضبتها : حتملى عقلك بعقلها ، دى برضك جاهلة .

وانتفض جسد زبيدة تحت يديه ، وراحت تنشج ببكاء ، لم يسمعها فيه الدمع : عمرى ماحد شتم أبى أو أمى .

فقال لها وهو يدور بالمنديل على خديها : لها زوج نرد عليه .

وجلس لفترة طويلة يضرب أثلاثا في أرباع ، بينما يحاول الا
يسمع صراخ سعدية بالخارج و « خربطتها » في المواعين ، وبكاءها
العارم ، ويتابع صمت زوجته ، وتوعدها للمرأة التي خرجت عن
الطاعة ، وحين اطمأن لسكون الاثنتين ، انتهز الفرصة ، وتكلم
مع زوجته ، بعد أن نظر الى الساعة ، ليشعرها بأن وقت رحيله
قد أوفى ، وارتاح لجمالها الفاصلة : قم أنت لمشوارك وأنا
أتصرف .

وسألها ان كانت تريد شيئا ، واكد لها أنه سيكتب لها - كل
يوم - رسالة ، ليطمئن على صحتها ، وأخرج محفظته ليعرض
عليها فلوسا ، فقالت بحسم : معنى كفاية .
ووقف مدة غير قصيرة ، يمرر أصابعه على وجهها الشاحب ،
ويزيح خصلات شعرها العرقانة ، الى وراء أذنها ، بينما كانت قد
هدأت تماما ، واستسلمت لمداعبات أصابعه الجافة ، ثم سحبت
راحة يده فجأة ، وراحت تقبلها ، قبلات حارة متقطعة ، انتهت
بأن دفست وجهها بين طياتها ، وأحس ببلل الدمع الساخن بين
راحتيه فسحبها بهدوء : بعدين .. بعدين .

فقالت وهي تجفف دموعها ، وتكمل أرجاع خصلات الشعر
الى الوراء : رح أنت ماتخافش وكانت شرايين العين قد احتقنت ،
كما أزال تورد الخدين بعض الشحوب ، ولمعت أطراف الأنف الذي
نكتته دفعة واحدة في منديلها الصغير .

وقبل أن يفتح الباب الكبير ، نظر الى سعدية التي تجاهلت
خروجه ، ومالت بوجهها تدعك قعر الحلة المسود ، وقال لها :
سلام عليك يا سعدية توصي بعمتك ، وخليك أصيلة ولم تجب
عليه ، واكتفت بأن رفعت ذراعها ، لتمسح تحت أنفها .

وواجهه ضوء الشمس المشع من جدار الدار ، وأحس بسخونة
الهواء ، واتضح لآذنيه تكتكات الطاحونة القوية التي كانت تأتيه
من نافذة الحجرة بعيدة واهنة ، توجه الى الحاج على الجالس
فوق فروة الخروف ، وهو حين رآه ، سحب يده السائد بها
على ذراع الميزان ، ومدّها الى الأستاذ ، ورحب به بحرارة ،
وسأله : خير .. لسه بعافية ؟ وأجابه كمال بمسكنة : والله يا حاج
ما في فايده ، في المرة السابقة فكرت أنها شفيت تماما ، ولكن الوضع
استمر على ما هو عليه ، ويمكن تدهور أكثر .. والدكاترة نصحوا

بالراحة ، قلت اجيبها لامرأة أخيها ترعاها .
فقال الحاج وهو يعود الى فروته : وماله .. لازم من الرعاية .
ومال عليه كمال بوجهه حتى رأى صورته في زجاج نظارته
السميكة : والنبي يا حاج توصى عليها سعدية .
وشمر الحاج اكمام جلبابه ، وقال : توكل أنت على الله ، ان لم
تخدمها سعدية نخدمها بعيننا .

وأخرج كمال المنديل من جيبه ، وتهيأ للبكاء الذى يجيش
بصدره ، وخرج البكاء متقطعا مشروخا من حنجرة انفتحت على
آخرها ، وفوجئ الحاج بهذا البكاء ، فقام مرة أخرى ، ليربت على
كتف الاستاذ : عيب يا رجل .. توكل انت على الله . وسلم
كمال على عم زوجته باحترام كبير ، وكان مائلا بشدة نحوه ، حتى
ظن الحاج أنه يريد تقبيل يده . فسحبها الى الورااء فى نشة قوية ،
جعلت كوعه يصدم بحائط الحجرة الصغيرة .

الميزان :

وقفت المرأة بجلبابها الأسود المتسخ امام الميزان ، ترفع على
رأسها قفة كبيرة بداخلها مقطف يمتلىء بالقمح الى حافته ، جففت
عرقها السائل على صدغيها ، وطلبت من الحاج أن يحط عندها ،
فهرع اليها شحته الذى قدم من حجرة العدة ، وراء حائط
حجرة الميزان ، مد يده الى أعلى ليمسك أذن القفة ، فسقط سروال
عفريته الملطخة بالشحم الأسود ، وبانت بطنه المشعرة .

ارتاحت القفة فوق الميزان ، وارتاحت المرأة المرهقة من حملها ،
والتفتت الى الحاج الذى بدأ يزحزح رمانة الحديد وسط عمود
الميزان ، ليضبطها على المؤشر ، فانسحبت حتى آخر العمود ،
فاخذ سنجة بحجم نصف الكيلو ، ووضعها فى الكفة ، وبدأ يزحزح
حتى انضبط مؤشر العمود على العلامة المثبتة فى جسم الميزان ،
وصار العمود خفيفا كالريشة ، ينزل الى أسفل ، ويطلع الى أعلى
كأنما تحركه نسمة الهواء ، وقال لها شاخطا : شيلى .

وبدأت المرأة تفك صرة أخرجتها من صدرها ، وتخرج فلوسها
قديمة ملفوفة باهمال ، وسألته : كم يا حاج ؟
وكان هو قد انشغل بتسجيل الحساب بالدفتري المنثور عليه .

غبار الدقيق ، وذرات تراب الشارع ، ولم يرد على المرأة حتى كتب لها « نمرتها » على ورقة مربعة صغيرة ، ومد للمرأة يده : هات .
وخبطت المرأة يده بدلع : أجيب كام ؟

وانحنى شحته على القفة يرفعها على راس المرأة صائحا فيها : ارفعى الأول .. وبعدين حاسبى .

دخل رجل ساحبا حمارا عليه جوال الحب ، والحمار وقف أمام الميزان بالضبط ، ينفخ ببوزه فى الأرض ، فيثير الغبار .
وسمع الحاج الزعيق يتردد خلف زجاج الشراعة ، وتعرف على صوت زبيدة الواضح ترد على سرسمات سعيدة المنطلقة من مكان بعيد ، فى عمق الدار .

وقام « شحته » من تحت الجوال الذى رفعه الى الداخل ، وعاد لينظر الى الحاج ، ويلفت نظره الى الشجار الذى وقع فى دار أخيه .

وتجاهل الحاج نظراته ، وتكلف النظر الى خيال ماسورة العادم التى تطلق دخانها الكثيف فوق حائط الجيران المقابل .

وأشار الى « أبوعلوية » الطحان القاعد على كروتبه عريضة فى الظلمة الخفيفة أمام القادوس ، وقال له : خف الحجر شوية .
ثم نفص الغبار عن جلبابه ، وقال متمتما فى نفسه : ابن الخاسرة لا يرحم .

وترك شحته صالبا عوده على حائط حجرة الميزان ، واتكفا نحو العدة ، وترك الزعيق يتصاعد خلف زجاج الشراعة .

دخل بين البراميل الممتلئة بالجاز والسولار ، ورفع ذيل جلبابه لما استقبل الأرض الراشحة بالزيت ، وتفادى أن يتلوث من باب العدة المكدسة على خشبه طبقات قديمة من الشحم ، وامتسلات أذناه بصوت الوابور ، داخل الحجرة ، حتى تلاشت كل الأصوات الأخرى ، كانت الطارة الكبيرة تهدر بسرعة ، لا نهاية لها ، يلف حول عمودها السير الكبير الذى يغذى الطاحونة ، والسير الصغير الذى يمتد الى حجرة « فراكة الأرز » القى نظرة على طلمبة الزيت ، وملس بطرف أصبعه على الخزنة وتأمل البئر السوداء العميقة الممتلئة بالسولار ، ووقف طويلا أمام طلمبة الماء القابعة فوق مصطبتها كامراة حبلى تدلق قياها على فترات متقطعة .

ثم عاد خارجا ينظر الى اطراف سرواله الظاهر تحت الجلباب .

صعد الى ظلمة المصطبة ، المرفوعة بجانب دار اخيه « محمد »
وأسند ظهره الى الحائط مدليا ذراعه على الركبة ، مستغرقا في
تأملاته ، على الطريقة المحببة اليه ، فكلما خفت حركة الطاحونة ،
انسحب الى هذا الركن ، داخلا الى عوالمه الخاصة ، في رحلات
طويلة ، قد يقطعها صياح شحته ينادى عليه ، ليزن الحب
لزبون وصل للتو . مكث الحاج جالسا في الظلة حتى رأى ابنة اخيه
خارجة من الدار ، تتدلى حقيبة السفر من يدها ، وباليدي الأخرى
تمسح بلل وجهها ، وبعض شعرات رأسها تسقط تحت الاشارب
المعقود باهمال ، كانت تتخبط في مشيتها ، لا تدري الى أى وجهة
تسير ، ولما لمحت عمها في ظلة المصطبة انعطفت اليه .

المصطبة القديمة :

في زمن بعيد ، وعلى هذه المصطبة العجوز ، اجتمع الاخوة الثلاثة
محمد و ابراهيم وعلى ، وكان ابراهيم قد اشترى
هذه الدار ، التى يحوطها « حرم » الطاحونة من كل جانب ، ولا منفذ
لها غير الشارع العمومى ، المفتوح عليه الباب الكبير ، ونافدتان
لحجرتين أماميتين ، وأراد ابراهيم ان يفتح النوافذ لباقي
الحجرات ، ليطلق الهواء والنور ، فى الدار المظلمة ، فقمعد بين
اخويه ، وعرض عليهما اقتراحه ، فرد عليه محمد بخشونة :
تفتح على ملك مين ؟

ورد ابراهيم عليه : أنا شريك فى « حرم » الطاحونة ؟
وأجابه محمد : لما تصبح الطاحونة ملكا خالصا لك ، افتح
شبابيك كما تريد .

وانحاز على الى جانب اخيه ، وقال : يفتح وناخذ عليه
ورقة .

ورد محمد بطريقة تنهى الحوار : لا ورقة ولا يحزنون .
وأرادت عين ابراهيم البكاء ، غير أنه حبسه ، وضفط
على نفسه ، ليكبت جيشانها الفوار ، ولكنه لم يتمالك نفسه
لما سمع أخاه الأكبر يقول بتهكم : ينهب الطاحونة ليشتري الدور ،
والحجة فتح شباك ، ليدق مسمار جحا .
وانتفض ابراهيم نازلا عن المصطبة ليمسك بتلابيب اخيه ،

واشتبك الاثنان في عراق غير متوقع ، وقدمت النسوة صاحبات
الحب ، من داخل الطاحونة ، وأطلقن الصوات ، الذي أوقف كل
قدم سائرة في الشارع ، واستدعى الرجال من الدكاكين القريبة ،
واستدعى الزوجات من دورهن ، فاشتبكن في عراق ، تقاذفن فيه
أقبح الشتائم ، وفجأة لاح يسرى الابن الوحيد لآبيه إبراهيم
فوق السطح يسب عمه الكبير ، بعد أن تغلب على آبيه ، وأسقطه
على الأرض ، وبرك فوقه يكيل له اللكمات ، وسقطت رأس الفأس
الصغيرة من السطح ، لتشجع رأس العم الكبير ، فيسقط متهاويا
على الأرض ، غارقا في نافورة الدم التي تدفقت من رأسه العارى .

دار الحاج على هي الملاصقة لدار أبيها ، ينتصب بابها على ارتفاع عتبة ، يتلقى الشمس من فراغ حوش البهائم المقابل له ، فيتشقق دهانه البنى العريق ، وتتلوى قضبان شراسته في لهيب ، استشعرته وهي تدفع ثقله الراكز ، بينما تتبع عمها ، لتشملها طراوة الدار الخامدة ، وواجهها التراب الناعم على كل شيء ، فوق مفرش السفرة السميك ، وعلى الكراسي الخشبية الموزعة في كل ناحية ، وعلى سطح الثلاجة البيضاء التي تش في الركن ، وراء الباب ، وفوق السجادة المصنوعة من قطع القماش ، والمفروشة على الكنبه بعرض الصلاة ، وارتاح الحاج فوقها ، فصر خشبها تحته ، وقال لابنة أخيه : تفضلى .

وأشار الى كرسي أعطى ظهره للسفرة المنثور عليها بقايا خبز ، وأطباق تبقى في قعرها بعض الفول وطعميتان .

الحاج يعيش وحيدا ، بعد رحيل زوجته منذ عامين ، وبعد أن فارقه ولده الوحيد ، وراح يلف البلاد الأجنبية ، واستقر مع عياله في إحدى بلاد النفط ، يجمع المال الذي اشترى به عشرين فدانا في الأراضي المستصلحة ، ومساحة واسعة لأرض قضاء ، تقسم على ميدان المحطة مباشرة ، وتقوم على خدمة الحاج ابنته الوحيدة ، تطبخ له طعام الغداء ، وترسله في « عمود » مع واحد من أبنائها الى حجرة الميزان ، وتزوره - في فترات متباعدة - لتنكفئ بسمنتها على بلاط البيت فتمسحه ، وتنفض التراب عن الفرش ، وتغير له اللآات . وبياضات السرير ، وتجمع هذومه المتسخة ، لتفصلها - هناك - في بيتها مع هذوم الزوج والأبناء ، وفي الليل بعد أن يقضى الحاج سهرته ، على المقهى الواقع على شارع المحطة ، يمر على شقة ابنته ليصحب ابنها الكبير ، حيث يبيت مع جده ، على سرير صغير اشتراه الجد خصيصا له .

عادت « زبيدة » بنظرها من عمق الدار الظلم لتسمع عمها وهو سألها مداعبا : اعمل لك شابا ؟

أجابته بـ « شكرا » مقتضبة وحاسمة ، ثم استدركت : اذا كنت عاوز تعمل لك ؟ فانتهاز الفرصة ليقوم ، ويترك لها البيت ، وقال : أروح شغلى .. البيت بيتك ، الأكل فى الثلاثجة ، والشاى والسكر فى المطبخ .

وجدت نفسها وحيدة ، بين الأشياء الصامتة ، وتنامى الى سمعها صوت صنبور المطبخ ، وهو يقطر ماءه فى الحوض ، وامتلا رأسها بنواح الطاحونة ، وتعمق صمت الأشياء حولها ، حتى كادت تجس بحملقتها المتطفلة ، فنهضت الى حقيبتها ، وجرتها الى الحجرة المفتوحة ، وانصب بداخلها النور المصفى من شيش الحجرة المفلق ، واشراقة بياض فرش الكنب والسرير ، وأغراها ذلك بالتمدد على السرير المرتب ، ففتحت غلق الحقيبة لتخرج جلباب البيت ، ونضت البلوزة عن جسدها المرهق ، وسحبت « الجيب » الى أسفل ، وتركته ينزل لوحده ، وهبط تدريجيا محتضنا وركيها وساقيها ، واستشعرت ملمسه الخفيف فى انسحابه الى الأرض ، حتى تكور تماما حول قدميها ، فانخلعت منه ، ووقفت قليلا بقميصها الداخلى ، وأحسنت بالخنجل ، من عرى الصدر ، والأكتاف والسيقان ، فدفعت الباب الموارب ، وأحكمت المسمار النائم على الضلفة ، وقعدت على حافة السرير ، تدقق النظر فى بشرتها المصفرة ، وضغطت بأصابعها على لحم الذراعين ، وشدت ارتخاءه ، كما ضغطت على لحم الوركين ، وتسالت راحة يدها الى فتحة الصدر ، واقشعر بدنهما لما لامست مكان الشدى المتور ، وضربت بيدها على الحفرة الفائرة ، وأخرجتها على عجل ، واستمر الملمس الخشن الشائه على أطراف الأصابع التى تجمدت أمام عينيها ، وانسال الدمع غزيرا على خديها ، وتساقطت عنه حبات كبيرة دافئة على لحم الصدر ، وتفرقت بين أضلاعها التى تعد بالواحدة .

ومر خيال فى ضوء الشارع . امتد من خصاص الشيش ، وانفرش على جدران الحجرة ، فقامت فزعة تلم لحمها فى الحلاب المطوى ، وحففت دمعها بسرعة قلقة ، حين سمعت الخيال يكلم خيالا آخر ، وقف الى حوارها ، ولم يتزحزا من تحت النافذة ، وشعرت بأن وحدتها قد انقضت ، وأن سرها قد انفضع ، فدخلت تحت غطاء السرير ، سائدة ظهرها على المخدة ، ففاجأتها صورة زوجة

عمها الميتة ، معلقة أمامها بالضبط بوجهها الضخم المتلوى بالتجاعيد
التي توزعت في شعابها بسمة جامدة ، كان الوجه ملتفا في طرحة
سوداء خفيفة ، يبدو من تحتها منديل الرأس الشفاف فوق الجبهة
العريضة ، وكأنما الصورة لوجه أطل فجأة من طاقة مرتفعة بالحجرة ،
وضايقها أن المراة في الصورة تنظر بثبات ، وتحملق كأنما تريد أن
تقرأ خفاءها ، فأدارت وجهها جهة الحائط في محاولة لاحتضان
أطياف النوم البعيدة .

الاختفاء :

أنتم أين تختفون ؟ أنتم يامن تكتفون بالوجود الجامد بين اطارات
الصور ؟ تطلون علينا من بعيد بنظرة واحدة لا تتغير ، وملمح واحد
ثابت ، أين وجودكم الحى ؟ فى أى جحر جائر تركتم راثحكم الطيبة ،
وفى أية حفرة انطفا نوركم الحانى ؟

أنت ياهذه المراة المعلقة فى الصورة ، تنظرين الى كخصم ،
أنا أخافك الآن ، بينما دمي لايزال يحتضن لهفتك الى حيث كنت
تعلمين بقدمى ، مازالت يدي الحية ، تنبض فى امتدادها حول
خصرى ، وكانت يوما تلم كتلتك النابضة بالشوق ، وهذا صدرى
لم يزل يرفع جرم ثديك الضخمين لما كنا نتلاحم فى اعتصارة
الحضن ، أى يد ظالمة سلبتك هذا ؟ وتركتك صورة تطلق الرعب
والخوف ، وكنت يوما أنيس الوحشة ؟ وأنت ياأبى لقد انسحبت
مبكرا ، وتركتنى أستقبل العيد فى شقتى ، وراء باب صامت ،
لا تطرقه يدك الحنانة ، كنت بهجتى لما تقدم الى حاملا فاكهة العيد ،
وتقضى معى يومين ، لا تكف عن الكلام ، ولا اكف عن ارتشاف الدفء
من قلبك المحب ، أين توارت صورتك ؟ وأين خفت صوتك ؟ أنت
وأمى التى غافلتنى ، وهاجرت اليك ، غادر هذا الرحيل المفاجئ ،
أصبحت أعود الى الدار ، فلا أجد من يضمنى الى صدره ، وصرت
جذرا مقلوعا ، القى به على جانب الطريق ، وأصبح وجودكم حولى ،
هامسا ، وطيفيا ، ومخيفا .

وها أنا ذاباأبى أتمدد وحيدة فى نفس البقعة التى شهدت ميلادى ،
فى نفس الحجرة التى كنت تجتمع فيها مساء كل خميس ، مع
الأعمام ، تدخنون الحشيش ، وتسمعون « أم كلثوم » ويسبح

حدثكم مع الدخان ، خارج الحجرة ، فاسمع صوتك المميز ، وأنا بعد طفلة تقبع بين نسوة العائلة ، اتسلى بحكايات الرعب ، وأمر على بابكم المفتوح نصف فتحة ، فأراك في سحاب الدخان ، قاعدا على الأرض ، ترص الجوزة لأخويك ، العم محمد ممدا بطوله على الكنية المواجهة للباب ، راكزا بكوعه على مساندها ، مصفيا لنمذياح القريب ، والعم على الى جوارك ينظف الحجارة ، ويراعى النار ، وانظر اليكم بطرف عيني ، ولا أجرؤ على الدخول ، لانه لا ينبغي لبنت صغيرة الدخول في طقوس الرجال الكبار ، وكان عالمك هذا غامضا ومبهما وبعيدا ، هذه الحجرة المباحة نهارا ، هي الآن داخل غلالة الدخان نائية ، لا يمكن الكشف عن أسرارها ، أبناء الأعمام فقط قادرون على رفع طرف هذه الغلالة ، والدخول الى عالمكم السرى بحذر ، ويجلسون على حواف الكنية منتبهين للصيحة المفاجئة من العم محمد : قم نام نامت عليك حيلة . ويهرع الينا الأولاد في حجرتنا ، يلهثون من الخوف ، فتسحبهم الأمهات على أفخاذهن ، ويهددن أجسامهم الصغيرة اللدنة ، وبطمئن قلوبهم المرتعبة : حد قال لكم تروحوا هناك .

وكنت يا أبى أسمع نداءك : يا زبيدة .
فأجري اليك ، وأفتعل الانصات لأرى أكثر : هات قلة مية .
وأعود بها اليك ، وأدخل مترددة ، عيني معلقة على العم محمد خشية أن يصرخ فى وجهى ، فتسقط القلة على الأرض ، فتتهشم شقاقتها ، ولكنك تشجعنى : ادخلى .
وتمد يدك لتأخذها منى ، وقبل أن تضعها على فمك لتروى عطشك ، تربت بحنان على كتفى : روحى أنت .
وتبص لأخيك الممدد على الكنية خوف أن يتهمك باللين والدلع .

فأين عيونكم هذه لترى وحدتى ، لم يبق لى غير هذا العم الوحيد ، وهاهو ذا قد ادخلنى حجرته ، وتركنى وراء الابواب والنوافذ المغلقة ، وماذا يمكن أن يفعل ؟ هو وحيد مثلى ، لا أعرف كيف يترك نفسه لوحشة الليل ، وكيف لا يرتعب من صورة الزوجة المعلقة . تركه ابنه الوحيد ، وغادر ليجمع المال مثلى ، فها أنا ذى عدت بنصيبى ، ولم يجدنى فى دفع مرضى ، ولم ينفع فى أرجاع لحظة دافئة من لحظات حبكم ، هذا الولد الذى عبأ رأسه بالأحلام ، يتخلى عنها الآن ، كم من مرة ملأ رأسه بكلامه ؟ منذ أن كانوا نتركونا

جميعا في حجرة واحدة ، مطمئنين الى براءتنا ، منذ ان تجسرات
يد هذا الولد ، فانسحبت الى جنبى ، وهبطت لترفع ثوبى من
أسفل ، كم كنت مغيظة ، ومستسلمة ؟ اقاوم فى الظاهر ، وأريد
بكل كيانى ، حتى تعودنا التلصص فى ساعات القيلولة ، أو فى ساعات
الليل المتأخر ، مطمئنين ان أحدا لن يكشف سرنا ، نفرد على ممدود
الزريبة ، أو فى قاعة التبغ بآخر الدار ، ونختلق الحجج للذهاب
الى الفيط ، فننام بين عيدان الذرة ، وبين شجيرات البامية
الشائكة .

وأدمنته ، وأدمننى ، واقتربنا أكثر ، وكنت أقعد الساعات
الطوال وراء ظهره أرقب يده ، وهى تنقل الشجر والسماء والطير
على الورق الأبيض ، فتعلق به قلبى ، وأحببت الانصات لكلامه
عن رحلته الى المدينة ، وعن المعارض التى سيقف لها أبناء المدينة
على قدم وساق ، وعن صورته التى تظهر فى الصحف والمجلات
واقاسمه الحلم ، ويفادر الى المدينة ، ويدخل كلياتها ، ويكتفى بالرد
على رسائله الملهبة بعبارات فارغة ، لا حياة فيها ، وانشغل عني ،
وانشغلت عنه بـ « كمال » الذى التقيته على رصيف المحطة : أيام
مدرسة المعلمات .

والان أنا بين هذه الجدران المصمتة ، خمدت كل الأصوات ،
وتلاشت منها الحياة ، فهل الخمد صوتى مع من خمد ؟
هاأنا ذى أحس بأيديكم المتلاشية ، تجر - فى خفاء - ساقى اليكم ،
أحسها ، وأنا اقاوم ، أنا الان اقاوم ، لا أريد ان اكون فى دنياكم هذه
الموحشة ، أنا لا أعرفها بعد ، ولكن كيف اقاوم ؟ وأنا أشمر
بالمرض الخبيث يأكل جسمى ، هاقد التهم الثدى الخاوى ، هذا
الثدى الذى حلم بدفق الحياة الى صبى لم يأت أبدا ، ولأنه فقد
وظيفته ، يبس ، خلع جذره من تربة الصدر ، ومات ، جافا ،
وفارغا .

ولم يكتف بذلك ، دفع خبائثه الى الدم ، فهو الان يسرى ،
وأحسه قادما من الصدر الى الرئتين ، الى باقى الأعضاء الواهنة .
أنا الان أرحل اليكم ، وأتعلق ببقية من الحياة ، انتم الان
تجرجروننى نحوكم وأنا أتشبث بحطبة تسبح على سطح بحر هادر ،
أمهلونى قليلا ، لأعب الحياة ، فأنا مازلت شابة انتم عثتم الكفاية ،
وخلفتم الدرية ، أنا وحيدة ، لا أمتلك غير أعضاء جسمى ، وبعض
الدم الذى يحمل مرضه كبقع من زنت ، فى محيط الماء .

نسمة المصرية :

هذه هي المصرية ، والنسمة الرقيقة بدأت تنشط في النافذة البحرية ، وانسحب لهيب الشمس عن حائط الجيران ، أمام الظل الممتد ، وماسورة العادم تغطي خيالها ، وبدأت تدفع دخانها بعيدا ، حتى لامس سور الدور الثاني للدار المقابلة ، وزبيدة أم محمد فرغت من حمامها اليومي ، وجمعت شعرها الى الوراء ، ونشرت خلعها على درابزين السلم ، وارتدت جلبابها الفساقم الذي تتناثر عليه زهور صغيرة ، لا تتضح الا للعين القريبة ، دخلت الحجرة الصغيرة التي لفظ فيها ابوها أنفاسه منذ عامين ، وامتد عاريا على مفصلة ، ملأت نصف هذه الحجرة بالضبط .

وكالعادة طوت وسادة سرير أبيها المرتفع ، وجلست فوقها ، تبرد كوب الشاي بالنعناع ، وترقب الشارع من حولها ، لا ترى منه غير أجساد آدمية تسمى في غباره ، وهياكل ضخمة لماشية سحبها أصحابها في رحلة العودة اليومية من الحقول ، ولحت عمامة عمها الحاج على الجالس على المصطبة تحت النافذة يحادث رجلا - لا يبين - في شئون خاصة ، لم تحفل بمتابعتها ، بل أصغت لبكاء ابنة أخيها في الحجرة الواسعة القريبة من حجرة « العدة » ، وضاع صراخ البنت في دوشة الطاحونة ، وأرادت أن تقوم لترفعها عن فراشها ، وتجلسها أمامها على أرض النافذة . كما اعتادت كل عصر ، غير أنها سمعت زوجة أخيها تسكت البنت التي أقلمت قيلولتها وزبيدة رغم أنها على خصام مع أم البنت وأبيها الا انها تستطيع في أحيان كثيرة اقتحام غرفتها ، وترفع البنت عن فراشها لتضمها الى صدرها ، مداعبة ، مدللة ، وتتأمل هذا الوجه الصغير المملوء ، الذي انطبعت على ملامحه الكثير من ملامح المرحومة جدتها التي توفيت بعد ولادتها بعشرين يوما ، ف « زبيدة » الآن تعيش مستقلة عن أخيها ، بعد أن كثر الشجار بينهما ، عقب رحيل الوالدين .

وكان أبوها - في سنة الحرب الأخيرة - قد زوجها احداقاربه، من قرية بعيدة ، لا تنتمى لمركزهم ، والعريس كان أحد أبناء هؤلاء الرجال الذين نزل عليهم يوما منذ أربعين عاما ، واغروه بشراء الثلاثين فدانا التي لم يطاوعه أحد من اخوته في ضمها الى باقى املاكهم ، وتجددت العلاقة بزيارة خاطفة قام بها الحاج محمد ذات يوم للعزاء في أحد رجال هذه القرية ، ورأى العريس ، فأعجبته رجولته الريفية الصميمة ، وأعجبه انه مدرس وأحد أعضاء البعثة التعليمية في ليبيا ، وأعجبه هذا البيت الريفى الجميل الذى انشأه وسط حديقة نبتت فيها أشجار المانجو والجوافة ، وكثير من الخضار كالبنمية والملوخية والخبيزة .. وحدث نفسه : لماذا لا نخطط زيتنا فى دقيقنا ، ونجدد العلاقة مع الأبناء حيث لم تفلح الآباء .

وجاء حديثه لنفسه فى الوقت المناسب ، اذ كان هذا المدرس يبحث عن بنت الحلال ، وبات «الحاج» ليلة العزاء فى بيت المدرس ، وشاهد نعم الله الكثيرة التى جلبها من ليبيا ، كلها فى ربطها ، لم تفتح عنها لقائفها بعد ، وقضيا الليلة يتحدثان معا ، فى كل شئ ، حتى تطرق الكلام الى الزواج ، وسأل «الحاج» قريبه المدرس : ما آخر زواحك حتى هذا الوقت ، وانت فى غير حاجة لشئ ، بيتك جميل ، ومكتمل من محاميه ؟

وقال المدرس : والله يا «حاج» أنا أبحث عن بنت الحلال المناسبة .

وتهلل «الحاج» ومال عليه هامسا : عروستك عندي، ولا تحمل الهم .

وسعد المدرس بهذا العرض ، وقبل فى الحال ، دون أن يرى عروس المستقبل ، فهذه - فى آيه - زواجة معقولة ، ومناسبة لروحه وأخلاقه ، بنت قريبة ، أبوها واحد من أعيان بلدتهم ، واكيد جميلة ، فهى ترعرعت فى نعمة أبيها ، تستطيع أن تنجب له الولد الذى يتميز عن أبناء قريته الفقيرة ، بانتمائيه لأم هى من سكان المدن ، بالقياس الى قريته طبعاً ، وكان زواج ، وكان سفر ، وكان ولد نقل عن أبيه سمرة ، ونقل عن أمه سمسة تقاطيعها الدقيقة . وكان طلاق ...

ذلك أن الزواج تم غصبا ، ف «زبيدة» فزعت حين رأت عريسها ، أفندى صحيح ، ولكنه فلاح ، بهيكله وبنائه ، وسلوكه

وخشونته ، ولم يكن أبدا كفارس أحلامها الذي قضت عمرها تشكله في تلافيف عقلها .

ثم انها كانت تريد العريس الذي ينتشلها من حدود بلدتها الضيقة الى رحابة عالم المدينة ، لكن أباهما يربطها برجل ، كتفها بأحباله الفليضة ، وقبرها في قرية بأئسة معزولة عن الدنيا ، تنام بعد الغروب ، وتقضى ليلها الطويل بين نقيق ضفادعها ، ولدغ بعوضها القاسى القلب .

وتربى ولدها في كنف أبيها وأُمها حتى شب ، وبلغ السن القانونية ، فعاد الى أبيه ، في بداية نفس العام الذي افتتح بموت أبيها ، وختم بموت أمها التي قضت طيلة سنوات طلاقها ، قلقا عليها ، تتمنى لها راحة القلب مع ابن الحلال ، وفي نفس الوقت تطوى رغبتها في الدوام معها .

وعاشت زبيدة مع والديها حياة مضطربة ، فيها عنف ، وفيها لين ، فيها قسوة وفيها رحمة ، مرة تتمرّد ، وتهج منها ، هاربة عند واحدة من أخواتها ، ومرة طائعة ، تدق في عمل الدار ، من الصباح الباكر ، فتلبس خلعتها ، لتكنس ، وتمسح ، وتطبخ ، حتى جاءت زوجة أخيها ، فانخلط الزيت على النار ، واشتعلت الحرائق الصغيرة والكبيرة ، وانحازت الأم - بالحق والباطل - الى جانب ابنتها وانحاز الابن - بالحق والباطل - مع زوجته ، والأب في كهولته ، يعرف نار ابنته الحامية ، ويكتم في صدره سر عنفها ، ويطيب خاطرها مرة ، ويطيب خاطر زوجة ابنه مرة ، فهو في حاجة الى الخدمة ، بعد أن تقاعدت امرأته ، وتكاهلت ، فلم تعد قادرة على القيام بأداء واجباته ، وبعد رحيله ، تعارمت النار ، وصارت الحياة الواحدة حياتين ، الأم والابنة في جانب ، والولد وزوجته في جانب ، حتى خدعت الأم زبيدة وانسحبت منها فجأة ، عقب وفاة أبيها بمدة قصيرة ، وجددت المسكنة حزنها ، وتكدست الجبال السوداء على قلبها ، وانقصف ظهرها برحيل الأم .

فقد كانت تظن أن الزوج الثانى سيأتى على عزوة أبيها ، ولكنه رحل قبل أن يأتى هذا الزوج المأمول ، فأملت أن يأتى بشطارة أمها فغدرت بها ، وتركها بدون مناسبة ، وكان من الصعب أن توطد العلاقة مع الأخ وزوجته ، بعد أن وصلا معا الى طريق مسدودة ، ومظلمة ، امتلات بكراهية ، دعمها العراك الذى وصل

الى التشابك بالأيدي ، واساله الدماء . وكسر « الفازات » في
الوجوه ، والتهديد بالذبح ، والحرق ، والخنق .
وهاهي ذى تعيش من فوائد نفقتها التي حفظتها في البنك ، وبنصيبها
في ميراث أبيها من الطاحونة ، ويدخل لها الحطب في مواسم الحطب ،
والبصل حين يزرع البصل ، والأرز في مواسم حصاده ، والذرة
في مواسم تجميعه ، وهي الآن مستورة ، فاقدة لأمل الانتشال
من هذه الدار الشرك ، الى دار خالصة لها ، هي دار زوجها
المنتظر .

وسمعت طرقا على الباب الخلفى المفتوح على عدة الطاحونة ،
فمالت بجذعها لترى الداخل عليها ، ففوجئت بابنة عمها زبيدة
أم ابراهيم تضع فوق جلبابها بلوزة بأكمام ، وتسدل على شعرها
طرحة بيضاء ، وتتدلى من يدها حقيبة سفر ، مفتوحة السوسته ،
طفحت محتوياتها الى الخارج .

شد يسرى أو ابراهيم الدوبارة المربوطة في حديد الشراعة ، فانفتح الباب ، ووجد سعدية تخرج من الحجرة الأخيرة ، كانت ترتدى جلبابا أبيض خفيفا ، تخنق اكمامه ذراعا ممتلئة باللحم الذى خفت دكنته عند حد الكم المكشكش ، وكانت قد عقدت الاشارب الفاقع الحمراء على شعر سرحته وراء أذنيها ، مما يدل على أنها أنهت عمل دارها للتو ، وأخذت حماما باردا ، لم يزل ماؤه يرشح على قماش الظهر ، وعلى ذيل الجلباب القصير .

ركن قرطاس الفاكة على جانب من كنية حجرة النوم ، وخلع الجلباب المتسخ ، ووقف وسط الحجرة بصداره وسرواله الذى أبدى ساقين نحيلتين مشعرتين ، تقفان على شبشب جلدى سميك ومرتفع عن الأرض ، نزل عنه ، فانخفضت قامته ، وانحنى تحت السرير يبحث عن « الزنوبة » وانتبه على دخلة سعدية تلقيها اليه فوق البلاط العارى بالقرب من عتبة الباب ، ومدت اليه يدها بالفوطة ، دون أن تنبس بكلمة ، وان كانت قد ركنت فى جانب من بوزها « قمصة » يعرف هو أنها ستفيض بها حين يقعد لتناول العشاء ، ودوما تكون من إحدى الجارات أو من إحدى القربيات ، وسيؤكد لها حين تبدأ الشكوى ، ما أكده مائة مرة : قلت لك اغلق عليك بابك .. ولا تكلمى أحدا .

ويسرى منذ أن أتى بـ سعدية الى بلدته ، وهو يكرر عليها هذه الجملة ، فهو يعرف أن قريباته سيعاملنها كامرأة بلهاء ، وسيستخدمنها فى مشاويرهن الخاصة ، فى جلب الخضار من السوق ، وفى توصيل بعض الطلبات الى القربيات اللاتى يقطن الاحياء البعيدة ، وفى رفع قفف الحب الى السطح ، وفى غيرها من الأمور ، ولكن سعدية دائما تهمل أوامره ، وما من مرة يعود من عمله الا وشدها من ذراعيها ، من دار عمه محمد حيث تفرش مع زبيدة الحصر ، فى الحوش وراء الدار ، أو ينادى عليها من عند الجيران حيث تشاهد فيلم العصر ، وكانت تهرع حين تسمع

طرقته المعروفة على سقطة الباب ، فتجري اليه ، وتمد يدها
بالمفتاح بحذر ، وياويلها حين يطرق السقطة ، وتكون في مشوار
بعيد ، لم تقدر مجيئه في هذه الساعة بالذات ، يشدها من شعرها ،
ويدخلها الدار ، ليهرس عظمها بيده ، ورجله ، وبكل شيء يقابله
عند الضرب ، ويقعد ينهج من مجهود العلة ، حتى تهدأ أنفاسه ،
وتكف سعدية عن البكاء ، ويقول لها : قومي جهزي لنا لقمة
لقمة .

وتزمر في دلع ، وتجدد بكاء طفلياً ممطوطاً لتشعره انه يستفرد
بها في الغربة ويسهتر بشخصيتها ، وانه قد بالغ في ضربها ، لأنها
لم تكن في دار غريبة ، فعلاقاتها لا تتجاوز قريباته ، ثم ماذا تفعل
هي ؟ هل ستظل حبسة هذه الجدران طول النهار ، الا يزن عقله ،
هو الذي يجري بالسيارة في كل البلاد ، يريد لها الا تفارق حوائط
داره ، ويسرى يقدر ذلك ، ولكن لا يدرى ما الذي يدفعه
لأن يأمرها بهذا ، هل هي الغيرة ؟ معاذ الله . ربما الرغبة في حياة
خاصة مستقلة ، لا يطلع فيها أقاربه على شئونه ، فهم يجرون هذه
البائسة في الكلام ليعرفوا كل شيء عنهما ، ويعاملونها كخادمة ، وهو
يريد صون كرامتها من سطوتهم .

عاد يسرى من الحمام ، يجفف وجهه بالفوطة ، فوجد
الصينية عليها الأطباق المثلثة بالطبخ ، وسعدية قابضة الى
جوار طبق العيش ، تنكش عن اللقم الصحيحة ، وقعد كما هو
بسريره وصداره وسيقانه العارية ، وقبل أن يمد يده باللحمة ،
سمع سعدية تنسج ، أنها لم تقدر على الإمساك بنفسها ، وحط
اللحمة في فمه : مالك يابت ؟ .

- ولا حاجة ..

- بتعطى بدون داعى ؟

ولكنها حكّت له كل ماوقع في نهارها ، عودة أخته وزوجها من
الاسكندرية وكيف رحل ، بعد أن تركهما وحيدتين ، وكيف أنها
لم تحتمل اخفاء مشاعرها ، وأن أخته المتسلطة هي التي بدأت
وقالت لها أن أباه وأمه بشريان كآبها وأمه تماماً ، وهددتها بأنها
إذا سبقهما ، سترد عليها بمثلها .

- اوعى يابنت الكلب تكونى شتمنى

واجابته سعدية وهى تمسح مخاطها فى خرقة كانت تغطى الخبز .
- شتمت .

وبررت ذلك بأن اخنه كانت قبيحة جدا ، واتهمتها بأنها مجرد خدامة كانت تعلق صحون نسوة القاهرة ، جلبها أخوها اشفاقا عليها ، وأنه الخائب لم يجد غيرها ، وأنها عديمة الخلفة ، تأكل عيالها ، وأنها بلا أهل ومقطوعة من شجرة ، وعليها أن تلم نفسها ، وتشكر ربها على النعمة التى أنزلها عليها ، بهذا الزوج الطيب الذى أتت على صحته وماله ، دون جدوى ، لا ولد يصون أسسمه ، ولا مال يحفظه لمستقبل حياته ، وأنه سيظل خائبا هكذا طالما هذه المرأة معه .

وسمع يسرى كل هذا ، وهو يلوك اللقم ، تحت « الضبة » المتعته فى فمه ، وسألها : وأين هى الآن ؟ .
قالت سعدية بامتنكار ، وبشعور أنها لم تفلح فى التأثير عليه : لا أعرف .

الليل حول الطاحونة :

هبط الليل ، وتكدس ظلامه هناك فى الأحواش القديمة وراء الطاحونة ، وكان خفيفا هنا أمام أبوابها ، مزقته مصابيح صغيرة تتدلى من أعفدة الشوارع ، كما مزقه نور لمبة الجاز الذى ينبعث أصفر شاحبا من حجرة الطحين .

فقد أغلق باب « فراكة » الرز ، ورفع الميزان ، وطاولته ، وفروة الخروف التى يقعد عليها الحاج على الى داخل حجرة الطحين ، وركنت كل هذه الأشياء تحت جسد الغريال الضخم ، الذى يلقي بشبحه العظيم على الأرضية التى انطبعت عليها أقدام الزبائن والعمال وسط غبار الدقيق الأبيض .

رد يسرى باب الدار ، وعدل ياقة جلبابه الافرنجى النظيف ، وسمع دقات شواكيش الحديد على صخرة الحجر ، تتردد من حجرة الطحين المفتوحة الباب ، فاتجه اليها ، واسند يده على بابها الكبير ذى الخشب المحبب الذى دهن ذات يوم بدهان كثيف جاف رقدت بين شقوقه ذرات الدقيق ، وظل ساكنا فى وقفته ، يتأمل

هيكل « ابوعلوية » الناحل الذى انكفا فوق حجر الطاحونة الدائرى الكبير ، بعد ان انفتح قادوسها الأسود ، وركن بعيدا فى الظلمة العربية من حجرة « العدة » ، ويتأمل شحته الذى مد يده بالشاكوش أسفل ساقه المثنية ، ليدق على المجرى الرفيع فى الحجر الآخر المرفوع بعيدا بالقرب من القادوس ، وكانت لمبات الجاز الشحيحة الضوء ، ترسل اليهما النور الأصفر فى دائرة صغيرة محدودة ، كافية للتعرف على الخطوط الصخرية التى يعاد حفرها بعد أن اكلمها طحين اليوم .

وانتبه اليه شحته حين اراد أن يسوى الخيشة التى تحجز عن مؤخرته حرارة الحجر .
- خلى عنه .

وردا فى نفس واحد : ولا خلا . .
وفرك « ابوعلوية » عينه الفائرة فى الجمجمة النامشة ، وسألها يسرى عن عمه « الحاج » وقال له شحته انه لا يدرى ان كان قد خرج الى المقهى أم لم يزل فى داره بانتظار صلاة العشاء ، وعادا الى عملهما فى انهماك وجدية ، فيصدران ايقاعا منضبطا تألفه اذن جيران الحي ، يكون لهم أحد أصوات الليل الأليفة .

وقف يسرى يتأملهما لبعض الوقت ، حتى رأى ارتعاشة اجفانهما فى محاولة للخروج من انشغال العمل والتأكد من وجوده ، وأنه لم يفارق الباب بعد ، ولأنه رأى الا جدوى من وقوفه هكذا ، وأن عليه مهمة أخرى غير النظر الى هذين الرجلين اللذين نشأ بينهما منذ كان صبيا ، ومنذ كان « ابوعلوية » بعنفوان صحته يرفعه من تحت ابطه ليجلسه بالقرب منه ، ليعلمه الصنعة ، فى أجازة المدرسة ، كما كان شحته يصحبه الى حجرة « العدة » ليشير الى الآلات ، ويعلمه اسماءها ، وعمل كل واحدة منها ، حتى تعلق قلبه بالميكانيكا فى هذا الجهاز البدائى .

وعاد بظهره ، لينحرف الى دار عمه .

كان الباب مفتوحا نصف فتحة ، يخرج من بين ضلعتيه صوت المدياع يرتل قرآن الثامنة ، وشعر - قليلا - بالكآبة تصعد من مكان خفى بجسمه ، وتمد يدها الناعمة لتأخذ بخناقه ، وأحساس بماتم حزين أتى اليه من الداخل ، وتجدد فى نفسه الشعور

بالراحلين ، وأحسن بأنفاسهم تحوم حوله خارجة من فتحة الباب ، فطرق على زجاج الشراعة ، ولما لم يرد عليه أحد ، وسع من الفتحة ، ليرى « الحاج » بجلبابه وعمامته قاعدا على الكنية ، وعاقدا ذراعيه على صدره ، يصفى الى الترتيل في سبحة تأملية ، أخذت روحه من هذه الدنيا الى عالم آخر يشعر فيه بالونس بين الأحباب ، وأحس انه يقتحم عليه خلوته ، فتنحج بصوت هادىء ، وقال : مساء الخير بابا « الحاج » . فالتفت اليه « الحاج » وبرق زجاج نظارته في النور القادم من فتحة الباب ، وظل هكذا لفترة ناظرا اليه دون ان يتضح له شكل الواقف على الباب ، فقال له « يسرى » : أنا يسرى .

وأجابه « الحاج » ب : أيوه ، شاخطة وقاطعة ، كأنما يريد أن يقول له « وما تريد منى في هذه الساعة أيها الشقى ؟ » وسأله يسرى عن أخته ، ورد عليه « الحاج » مستنكرا وبرما : لا أعرف .. تركتها في الدار ، ورجعت بعد المغرب فلم أجدها .

وبلع يسرى غصته ، ووقف لا يعرف كيف ينسحب من موقفه هذا ، وكان « الحاج » قد نسيه تماما ، وعاد لسنجحاته مع الترتيل الذى أخذ بقلبه ، من هذا المذياع الأبيض الضائع وسط كراكيب كثيرة ، فوق ترابيزة السفارة .

ولمح يسرى مرة أخرى ، طرفا من رأس « أبوعليسوة » من شباك حجرة الطحين ورفع جسمه مستطيل النور الملقى في الشارع ، وحطه عنه حين مرق من حوش الحمير باتجاه حجرة « العدة » حيث رأى الرأسين المظللين من نافذة عمه محمد فاقترب من النافذة ، فوجد زبيدة أم محمد فوق الوسادة المطوية على سرير أبيها العالى ، وزبيدة أخته في مواجهتها فوق مسند وضع على كرسي خشب .

واسند كوعيه على أرضية النافذة ، وقال باسم : ازيك يا زبيدة .

فأشاحت أخته بوجهها الى الجهة البعيدة ، ولم ترد عليه . وقالت زبيدة أم محمد : لف من باب « العدة » .

فتح يسرى الباب ففزعت الحمائم والعصافير الساقطة على الأرض امام أبواب الطاحونة المغلقة تلقط الحب المتناثر ، بين طبقات التراب ، والشمس المختفية وراء البيت المرتفع في مواجهة الطاحونة ، رمت قطعة منها على اطراف السطح ، جعلت عينه تخفق تحت أجفانها .

شفط الهواء من منخريه بقوة ، وبصق بلغما أبيض على جدار الطاحونة . وانتفض صدره في سعلة متقطعة ، شعر معها بأن سلوكا رفيعة كالشعرة تتمزق في رئتيه ، وارتاح صدره بعد ذلك ، فقد تخلص من « معسل » الأمس . ذلك أنه بعد أن عاد بأخته البارحة الى داره ، أقسم بإيمان مغلظة أن سعدية لن تبیت فيهِـسـا الليلة ، ولن يكون له عيش معها بعد اليوم ، وكان يقصد أرضاء أخته ، لا أكثر ، لأنها لم تكف عن البكاء ، حين جلس معها في بيت عمه ، وحزن من أجلها حين رآها ترجو بنت عمها لتعيش معها ، تقاسمها اللقمة ، فهي أقرب الناس إليها ، وأقدرهم على خدمتها ، وزبيدة أم محمد ترفض بـجـرأة وعناد ، وترد عليها « انا قادرة أخلص بنفسى لما أخدم حد تانى » .

وتحمس يسرى ليقول : ان لم تخدمك سعدية أخدمك انا بعينى .. اترك شغلى وأراعيك .. أؤجر لك خدمة خصوصى . وأنبرت أخته لتطلب اليه التخلص من سعدية ، فلا جدوى من حياته معها وهى أخته الوحيدة الحريصة على اثمار شجرة أبيها ، فلا تعدم ، وأكدت له أنها ستزوجه من حر مالها ، ست ستها .

وقال لها يسرى : كما تعلمين العين بصيرة واليسر قصيرة ، وانا بودى أن أتزوج عشرة أنجب منهن عيالا يملئون علينا الدار . وعاد من دار عمه ، ليحرجر سعدية من شعرها ، ويلقى بها الى الخارج ، صارخا في وجهها : امشى يا بنت الجزمة ، لم يعد لك عيش معنا طالما تسبى أهلى .

ولم تفارق سعيدة باب الدار ، ظلت تصرخ باكية حتى
لقى اليها جلبابها الحريري الأسمر ، وطرحتها السمراء ، من بين
ضلفتى الباب الذى أحكم غلقه بالترباس من الداخل ، ودخل الى
الساحة بآخر الدار ، حيث أشعل نارا صغيرة على الأرض ، وأعاد
تغيير ماء الجوزة ، وصف الحجارة التى غمسها بالمعسل ، ودعمها
بقطع الحشيش ، وقعد على الكرسي الخشب ، يشد من الفسابة ،
ويكح ، وأذنه على الحجرة التى ترقد فيها أخته ، حتى اذا نادته
فى طلب شيء ، هرع اليها ملبيا رغبتها ، ثم يعود الى دخانه ، حتى
جاءته الفكرة ، لم لا يذهب الى خالته ، ويدعوها للمجىء ، لتعيش
مع أخته ، حتى يفرجها الله ، ويحقق أمرا كان مقضيا .

وجه خلف الطرحة السوداء :

كلاب الشوارع تجمعت فى حجرة الميزان ، تدور قلقة بأجساد
مشدودة ، وذبول مرفوعة حول كلبة نامت بوضع مشر فوق قاعدة
الأسمنت التى تفرش عليها الفروة ، والذكور من حولها يقتربون من
مؤخرتها بتوتر ، ويتشممون رائحة شبقها ، وكل منهم قد أمل
نفسه بأنه صاحب الخطوة ، انتبه اليهم يسرى فحسد فهم بنصف
قالب ، صارخا فيهم : اصطبحنا .

وتفرقوا جميعا فى ذلة وخوف ، واختفوا فى تفرعات الشوارع ،
وتراقصت نسمة الصبح الرقيقة على صدغه الأيسر ، وانحرف
الى شارع « الرمش » ورأى « أبو زكى » يملأ أقفاص الجريد المربوطة
على جانبي الدراجة بالدجاج ، وأمه بقميص نومها قد توارى نصفها
داخل الباب ، أطلت بشعرها المفكوك ووجهها نصف النائم لتمديدتها
بالدجاج الذى يكاكى بذعر كأنه لا يريد مفارقة الدار خوفا من مصير
مجهول ، جمعت المرأة فتحة صدرها بحياء ، وردت على تحية
يسرى الذى مر عليهما دون أن يرفع وجهه عن الأرض .
واصل طريقه ...

عند منتصف الشارع صبح على « عبد الله » الذى يجاهد
مع حصانه ليدخله بين عريش العربى ، والحصان يترنح غير فاهم ،
أو كأنما لم يستكمل نومه بعد ، و « عبد الله » يشخط فيه متضايقا
« ويسب له الدين » ، والحصان غاضب من هذه البداية التى

لا تشر بخير : أقف هنا خلى نهارك يعدى .. صباح الورد ياعم
يسرى .

واصل طريقه ..

أين قضت سعدية ليلتها ؟

إنها تستحق ما فعلته بها ، كان لابد أن تظل مهذبة ، وتمسك
لسانها حتى لا تعتاد التهجم على أهلنا ، هي تشتم أختي اليوم ،
فلا يستبعد أن تقوح في وجهي فيما بعد ، وتقول « أبوك »
و « أمك » .

أكيد نامت عند « أبوضيا » ، صعب عليها السفر ليلا ، ثم انى
طردها ، وليس معها نقود ، لا يمكن ، أنا أعرف أن بنت الكلب هذه
توفر المال من ورائي ، فهي تتصرف في بيض الدجاج ، وتدعى أنها
اقترضت من فلانة ، لأنها اشترت كذا ، وتضرب الفلوس في جيبها ،
وتتصرف في الحب ، تباع منه للجيران ، كبستها يوما تباع الحطب ،
وادعت أنها مجرد عيدان قليلة ، والجيران لبعضها ، وكم من مرة
أمسكها متلبسة بتفتيش جيوب الصدارى .

هي « خربية » ولا تصلح لعيشة ، يكفي هذا معها ، هي تستحق
الطرد ، يكفي هذا .. يكفي .

وخرج من الشارع الضيق ليستقبل الشارع المؤدى الى سكة
الحديد ، ورأى صاحب معمل العسلية قد ربط كتلتها اللدنة في
مسمار الحائط ، وبدا يمسح شريطها الذهبي الدبق ، ويعيد تكويره
في الكتلة ، ثم يشده الى آخره ، فيبرق ذهبها السائل في الشمس ،
والأخرس وقف وراء الرجل ، يرش الماء أمام باب غرخته المفتوحة
على « الجراج » وأشار اليه الآخرس ، وهز له يسرى رأسه
علامة التحية ، وأفهمه الآخرس بإشارات من يده القوية المتوترة ،
أن الصبي الذى يعمل معه على العربة بالداخل يقوم بتشظيفها ،
وهز له يسرى رأسه علامة الفهم ، ودخل الى ساحة « الجراج »
الواسعة ، ووجد الولد شمر جلبابه ، وراح يدلق ماء الدلو على
ظهر العربة ، ويمرر عليه الفوطة الصفراء ، والماء ساح تحت
العجلات ، وصنع بركة صغيرة .

— خلص على ما أوصل مشوار .. خف ايدك شوية .

ودخل في زمرة المبكرين الى أعمالهم ، حنود ، وطلبة ،
وموظفين ، يهرعون في قافلة جهة بوابة المحطة التى بدأت الانحناء

الى الأرض تلبية لدقات جرس « البلوك » ، لتستقبل قطار السادسة والنصف الذى بدأ من بعيد مشيراً للغباء ، دافعا أصواته المجلجلة بين البيوت النائمة ، والركاب المنتظرون ، بدأوا يتقلقلون فى أماكنهم ، ويعدلون مواضعهم ليضبطوا أنظارهم على أبواب القطار .

ولمح يسرى امرأة وراء درابزين المحطة ، فوق الرصيف ، ملفعة بطرحة سوداء ، وتنظر إليه من تحت نسيجها الخفيف ، واستدارت فجأة جهة « البلوك » فاضطرب قلبه ، ولم ينظر جهتها ثانية .

هل هى سعدية ؟

ولو .. لن أطاوع قلبى ، وأذهب إليها ، على أن اكون رجلا فى كلمتى .

وانحنى بجسمه تحت عمود البوابة ، ومرق من أسفلها ليمر فوق القضبان المفروسة بين القوالب السوداء ، وامتأأت أذنه بأصوات الوابورات تحت آنية الزيت المغلى ، وامتأأ أنفه برائحة الطعمية ، ودخل فى زحام الشارع الكبير ، حيث التلميذات تجمعن فى ركن أسفل سور المحطة بانتظار أتوبيس المديرية ، والفواعلية انتشروا على كراسى مقهى الحاج « محبى » يشدون أنفاس الجوزة بشوق شديد ، ويفكون الأوراق عن سندوتشات الطعمية السخنة وبائع الجرائد رقد تحت أقدامهم يفك ربط الصحف ، ليرد لهفة الناس الذين وقفوا حوله مادين أيديهم بالقروش .

هل كان نداؤها هذا الذى تردد فى أذنه عند مروره فوق القضبان ، أم تهيأ له ؟ سمع اسمه يردده صوت أنثوى بعيد ، تجاهله فى حينه ، وان كان جسده قد انتفض له ، أكيد تهيئات .

لو سعدية كانت قد جرت إليه ، واقتربت منه .

وحتى يقطع الشك باليقين نظرمرة واحدة، الى الوراء ، كانت

النظرة خاطفة وسريعة ، لمحت شبح امرأة ترتدى السواد ، وتغطى وجهها كله بالطرحة ، وتركن ظهرها فى ضوء الشمس بالقرب من كشك بائع الفاكهة ، وداس على قلبه ، ودخل الشارع ليستقبل دار جده .

دار الجد :

كم تغير هذا الشارع العريق ، داسته اقدامه اللينة في صباه البعيد ، لما كانت أمه تتركه النهار كله مع الخالة الشابة ، فتطعمه ، وتسقيه ، وتحممه ، وتتبادلن النسوة ملاعبات مداعبات اكراما للجد ، شيخ الخفراء المهيب ، الذي يحمي لهن دورهن تحت ستر الليل ، وهما هو يتدحرج في حفرة في سن الرجولة المنقضية ، كم تغير ؟ لقد سقطت أسنانه جميعا ، وركب مكانها عدة صناعية ، تعاون في قضم اللقمة الصعبة ، ونشف هيكله ، وجف منه اللحم ، وصار يتلخلخ فوق نعل عال ، لا يقيه السقوط في دحرجة الشارع المنحدر الى أسفل ، وكان من خمسين عاما يحبو على ترابه ، فوق طبقة انظمرت تحت حوائط الدور القديمة ، لقد زالت هذه الدور ، وانقصفت جذوع الشجر الذي يقوم على مجرى ماء كان يهبط في منتصف الشارع .

كم تغير ؟ كم تغير ؟

سافر الناس ، وجلبوا المال ، ليهدموا ظلمات الدور الواطئة ، ويقيموا غيرها بالطوب الحجر الذي يتشرب لهيب الصيف ، ولا يحمي من برد الشتاء وعاند يسرى وأبى أن يركب مركبهم ، وقال « السن لم يعد فيه الكفاية للشحطة في بلاد الناس » . وهذا مصيره ، دار قديمة بثلاث حجرات ، لا يملك منها غير نصيبه من أمه ، وبعض القراريط من أرض الاصلاح المؤجرة من الدولة ، سافر الناس ، وعادوا ، وكأنما تركوا قلوبهم هناك ، وصاروا أشباحا ، فقدت روحها ، ودقثها .

وبقيت أنت يادار الجد ، كما أنت بدفئك ، وحنائك .

مازلت تضمين هذه الخالة الطيبة التي فقدت كل شيء ، ولم تفقد قلبها .

وهذا الخال الذي ترس رجله في الأرض بعناد ، ورفض أن يلعب اللعبة .

هاهو يظهر بين ضلفتي الباب ، ومازال محنيا على الفأس بجداره ، يقلقل سباخ الزريبة ليخصب به الأرض ، وكأنه لم ينم الليل ، من راه يظن أنه في عمل منذ عشاء البارحة .

— صباح الخير ياخال .

— أهلا .. صباح النور .

وعلى قدر ترحيبه الشديد بالزيارة المفاجئة بقدر انزعاجه ان يكون وراءها خبر السوء وأراد ان يطمئن على عجل ، فوقف مدليا الفأس الى جنبه في تراخ : خير !

وابتسم يسرى هاشسا في وجه خاله : خير ان شاء الله .
وركن على الحائط بجوار حوض الحنفية ، وراح يتأمل هذا الوسع . تنتشر فيه فوضى كثيرة ، عشة الفرن ، الزريبة بحوائطها المتبقية من الدار القديمة ، وحجرة أخرى قديمة ، غطست في الأرض التي ارتفعت فتساوت بنهاية الشباك وبأطراف الباب ، الخشبي الذي طقت الواحه كأنما داست عليها قدم وارد جبار ، والماعز ربطت في آخر بروز من حديد الشباك المطمور ، وصناديق الحب ، وسلك منشور عليه خرق بالية ، هي اثواب أولاد وبنات الخال ، وجلباب لخالته ، كان لأخيها زوجة العم الكبير محمد ومنحته آياه بناتها حبا في الخالة ، ودواما لذكرى الأم المحبة لها .

ومرتفع عن الأرض تنتصب عليه حجرتان مبنيتان بالطوب الأحمر ، دون دهاكة ، يركن يسرى على أحد حوائطها ، يتابع الخال الذي عاود الضرب بالفأس على طبقة السباح التي شاع منها بخار دافئ .

أقعد لنشرب كرسى دخان .

— خالتي فين ؟

وأشار الخال الى أعلى ، نحو الحجرة الأولى ، فارتقى اليها يسرى وقبل أن يدخل الى الخالة لمح زوجة خاله أمام الوابور عليه براد شاي أسودت جوانبه ، وعلى جانب من فخذها انحنت ابنتها الصغيرة بمريلة المدرسة ، وسلمت شعرها للأم التي راحت تمرر فيه مشط الخشب ، والبنت تتألم ، والمشط يشتبك بتجميدات الشعر الأكرت ، والبنت تصرخ من الألم ، والأم تضربها بقبضة يدها على ظهرها ، لتسكتها ، وتلومها لقلّة اعتنائها بشعرها .

— صباح الخير يا أمّرات خالي .

— صباح النور .

ودخل الى خالته التي تملأ بسمنتها ربع المساحة ما بين الكنبتين والسرير ، ترتدى جلبابها المتسخ الذي بدا بلون الأرض الموزع عليها نعال أولاد الخال الراقدين بكسل فوق الكنب ، يتبرمون من

اسيقاظهم المبكر ، ويرغبون لو يستكملون نومهم بين الالحفة القديمة
المبعثرة باهمال ، في كل مكان .

ردت الخالة على تحيته ، واستمرت في عملها ، تقطع الخبز
اللدن نصفين ، وتهب عليه بكرتونة ، فوق جذوات الكوالح على قصعة
واسعة .

ولم يسر في الركن صورة لجدّه ، ضاع اطارها المذهب ،
وحجمها الكبير بين قوالب الطوب المسودة ، كان الجد يقف بالقرب
من جدار بانّت عليه خربشات أولاد صفار ، وقف كواحد من أبناء
هذا الزمان البعيد بشاربه الابنوسى الابيض ، ولبدته المحبوكة ،
والبارودة بانّت أطرافها خلف جلبابه الأسود السايغ الى اطراف
قدميه ، فلم يبد منه غير طرف صغير من البلغة .
- أخيراً كبرت صورة لجدى .

تأملّت الخالة الصورة ملياً ، ونسيت عملها ، وكأنما تراها لأول
مرة ، وكأنما شعرت بفخر مفاجيء لأهمية انجازها الكبير ، لأنها
هى التى احتفظت بأصل الصورة منذ وفاة أبيها ، تحت مرتبة
السريّر ، مع الكثير من الأوراق الفامضة ، وكان قلبها يهفو لوضع
الصورة فى اطار ، وتعلقها على الحائط ، لتعيش فى ونس الأب
العظيم ، ولكنها اكتفت بحفظها تحت المرتبة ، والعودة اليها كلما
ضاق بها الحال ، أو كلما اختنقت بالبكاء ، حينما تحاصرّها الايام
الصعبة التى اسلمتها الى خدمة زوج أخ لا ترحم ، والحياسة
فى كنف أخ طيب ، قليل الحيلة ، لا يقدر أن يهس زوجته الشرسة
عنها ، فيأتى عليها ، ويسبها ، ويبرطم بكلام غير مفهوم عن أكل
العيال ، والعلة الكبيرة الكابسة على أنفاسه .

تنسحب الى حجرتها ، وتفلق عليها الأبواب ، وفى غبشة
أنوار الشباك المقفل ، تتأمل صورة الأب ، وتبدأ تشكو له أحوالها ،
وتذهب بعقلها الى أيامه الزاهرة ، حتى جاءت لزيارتها ابنة عمها
التي تزوجت تاجر الأسماك بالزقازيق ، وكان بصحبته ابنها الذى
عاد من العراق ، بعد أن فتح الله عليه ، وملاً عدداً من شرائط
« الكاسيت » بفنائه الذى يحى به الأفراح فى أنحاء المديرية ، وحكى
لها الولد الذى أطلق شعره فغطى أذنيه وقفاه ، وتدلت على شعيرات
صدره سلسلة ، كانت تظن الخالة - الى وقت قليل - أنها من
خصيصة زينة النساء ، حكى لها أنه الآن بعد أن انتشرت شرائطه ،

وصار مغنيا مشهورا في مدينته ، استطاع ان يفرغ الدور الارضى من بيتهم والذي كان يشغله مع زوجته قبل تطلقها ، ويفتح في احدى غرفه « كوافير » للسيدات ، وفي حجرة اخرى « استديو » للتصوير ، وهو يريد ان يلتقط الصور لافراد العائلة جميعا .

وسأل هو من نفسه : كيف لا تعلق على حوائط بيت الجد صورة له ؟ وفي الحال سحبت الخالة الصورة من بين أوراقها ، ونظر اليها الولد حزينا ، وكأن الجد قد رحل البارحة ، وقبل وجه الصورة ، وقال متنهدا : سبع والله .. سبع .

وعد الخالة بانه سيعود بها بعد يومين مكبرة ثلاثة أضعاف ، وسيضعها في اطار كبير مذهب يليق بمكانة الرجل ، فكانت هذه الصورة .

وعلق يسرى على حكاية الخالة : والله كـتـر الف خير . ودخل الخال يفرك يده ، ليسقط فتافيت سباح صغيرة وممطوطة كقطع العلق من راحتيه ، وأعاد الترحيب بابن اخته : يامرحبا .

وفرش الشوال بجوار الباب ، ودفعت اليه الخالة القصعة بعد أن طوت الأرغفة في خرقة قديمة ، ودفست في بعضها قطعتين من الجبن وطبقا من مخلل الكرنب واللفت في منديل محلاوى . وقالت له : غداك .

وهز لها الخال رأسه ، وأخذ يحرك جذوات النار الخامدة ، ونفخ عليها من فمه ، فراحت تططق ، وتصحو حتى اتقدت تماما ، وخرجت منها نار صغيرة بيضاء ، وسحب الجوزة من بين الكنبتين ، وبدأ يرص ، ودخلت زوجته بأكواب الشاي ، ورحلت البنت الى مدرستها بصحبة اخويها ، والخالة راحت تنقنق على مهل لقيمات صغيرة مغمسة بالجبن ودقة السمسم ، ودارت الجوزة بين الخال وابن اخته .

وتكلم يسرى وأستمع اليه الخال بين غلالة الدخان التي شملتهما ، وقص يسرى ما حدث البارحة ، عند قدوم اخته مع زوجها ، وشجار سعيدة معها ، وطردها لها ، ونيتته في تطلقها ، لأنها لم تعد تصلح له ، وقال الخال : حرام .. لك ولية . وعلقت الخالة : من حقه ان يكون له ولد .

وأكد يسرى على كلام الخالة مشيراً الى أنه لم يعيش بها
هذه المدة متعلقاً بسواد عيونها : ولكن ياخالة كما ترين اليد
قصيرة .. و ..

وقالت الخالة : أختك تساعدك .

ونظر « يسرى » يده بعيداً ، وهو مستسلم للكحة الشديدة
التي دفعت البلغم الى حلقه ، فتلقاه في منديل ، سحبه من فتحة
الجلباب ، وقال : المساعد ربنا .. ألهم عاوز تكونى مع زبيدة
اليومين دول .. حتى يفرجها ربنا .

وقطبت الخالة حاجبيها ، وعاركت اللقمة بين أسنانها المهشمة ،
بعد أن طقت حصوة ملح فجأة ، فصرخت : آى ..

وشدت القلة الكبيرة الى فمها ، وبدأ يسرى يتسرع
للبقية بانتظار رد الخالة التي ردت القلة الى مكانها ، ومسحت
حول فمها بظاهر كفها ، وقالت : أنا قادرة أتحرك من مكانى .
وأجابها يسرى مداعباً : أجيب العربية وأخذك من
هنا .

وقال الخال وهو يدلق الحجر المحروق فى القصعة : الدار
لا تستغنى عن خالتك أبداً .. لكن طالما زبيدة لوحدها ..
لا مانع .

ونفض يسرى طوله مرة واحدة ، وقال : أستاذن أنا لالحق
شغلى بدرى .

واستدار مرة أخرى بعد أن عبر عتبة الحجرة : خلاص ياخالة
أعتمد عليك .

وأشارت له بيدها ، وهى تنفض صدرها من قطع الجبن
التي تناثرت عليه : اعتمد على الله .

وقام الخال بعد أن أعاد كل شيء الى مكانه ليسحب البهائم الى
الفيط ، ورأى زوجته وهى ترفع قفة الخضار لتذهب بها الى سوق
البلد ، فاقترب منها ، وعاونها فى تمكينها من الحمولة الثقيلة ،
وقال لها : انتظرك .. تخلصى السوق وتفوتى على .

ولم تجب عليه ، تسلقت مرتفع الدار ، وارتعشت القفة فوق
راسها ، ولكنها استطاعت أن تمسك بخشبة المحراث المكون على
جنب ، وأخرجت من الدار .

والخالة انتهت من فطورها ، وشربت نصف كوب الشاي البارد

المتبقى في البراد ، وأراحت ظهرها الى الكنبه ، وسرحت في النور المتدفق الذي يملأ الساحة الفارغة أمامها ، وسقط في روحها صمت الدار ، حتى لم تعد تسمع شيئاً غير طنين النباب الذي استيقظ على سخونة الشمس ، وتراكم بسواده على حصر الجبن المعلق على عرق عشة الفرن ، والذي بدأ يقطر الشرش في بقع صغيرة أسفله .

ذكرى الجد :

هاقد هدأت الدار كالعادة ، وهي تجلس وحدها بين أثائها الفقير ، تفكر فيما ستقوم به من عمل ، لقد ترهل جسمها ، وانتشر الروماتيزم في مفاصلها ، فلم تعد قادرة الا على العمل الذي في متناول اليد ، كاشعال الوابور ، وتحميم الخبز ، وكنس المربع بين الكنبات والسرير ، هدأت الدار التي لم تك تهدأ ابداً ، في تلك الأيام الخوالي ، يوم كانت تزدهر بصاحبها ، وبرفاقه الذين يأتون لزيارته ، من كل القرى القريبة ، يوم كان شيخاً لخبراء البلد على سن ورمح ، ابن الأصلاء الذي قدر على الانعزال من بيت العائلة الكبيرة ، في ظل أبيه وأخوته الكثيرين ، والخروج من عزوة الأب القوى الشامخ ، أصل البلد ، وجذرها الأول .

هبط الأب من التل المرتفع الذي يشكل النواة الأولى للبلد . وعبر سكة الحديد ليسكن هذه الدار القديمة ، وسط برارى ينتشر فيها الغاب ، وتتوزع بين سياجه برك داكنة الماء ، ولم يسبقه الى هذه البقعة غير قبيلة من الفجر حطت رحالها على هذه الأرض البوار ، لأنها لا تقدر على السكن بين أهل البلد ، واكتفت بأن تقيم الخيام على الأرض القفر ، ليسرح رجالها - كل صباح - بصناديق الحديد ، ليصنعوا المفاتيح للأبواب ، وتسرح نسوتها بالدقوف والحمير عليها « الخرج » ليجمعوا الخبز من دور البلد . وينتشرن - حين تقام الموالد - بين حلقات الرجال ليرقصن بخلاخيلهن وحليهن الكثير المتدلى من ثياب مزخرفة بخيوط ملونة دقيقة .

جاء الأب الى هذه الأرض ، قبل مجيء صهره الحاج محمد بمدة طويلة ، واكتفى الأب بمساحة هذه الدار ، بينما امتدت دار صهره على مساحة كبيرة ، اشتملت على حوشين كبيرين ، ودار

طويلة ممتدة بينهما ، تنفتح على ردهاتها الواسعة سبع حجرات كبيرة ، وزعها على اولاده الكبار قبل وفاته ، وانتقل بأولاده من الزوجة الجديدة الى الدار المجاورة للطاحونة .

وجاءت الحكومة وردمت البرك ، وحصدت عيدان القصب ، واقامت السور الحديد ، والاكشاك الخشبية التى أنتشر عليها الباعة من كل البلاد ، يبيعون اهل البلد القماش والحلى ، والسبك ، والفاكهة ، والبهارات ، والفخار .

وهبط الى السوق رجال العزب ونسوتها ، واختلطوا برجال ونسوة البلد ، فأنشئت الدور حول أسوار السوق ، وظهر الجامع بمئذنة عالية ، تنادى الناس للصلوات الخمس ووضحت تقسيمات الشوارع الطولية والعرضية ، حتى كان العصر الذى عرف فيه الرجال طريق البواخر والطائرات ، وغادروا ليجمعوا المال الذى مكنهم من هدم دورهم القديمة ليقموا غيرها بالحجر الأحمر والاسمنت ، ولم يعرف الأخ الصغير محمد طريق الموانئ مثلهم ، فاستمر يراعى الأرض التى بخلت برزقها ، واكتفى ببناء هاتين الحجرتين اللتين تقعد الخالة بين جدران أحدايهما ، ولم يقدر على اكمال باقى المساحة .

وكانت الدار تمتلئ بالخبراء الذين يعملون مع الأب ، ويمدون أياديهم للعمل فى الدار ، وتحاول الأم منعهم عن ذلك ، والأب يزجرها ، ويقول لها : اتركهم ، وأريحى نفسك قليلا ، ويقوم واحد فيدخل الزريبة ليحلب الجاموسة ، وآخر يخلع اللبدة والجبخانة ليرفع مقاطف التراب من الشارع ليترب تحت الماشية ، وآخر يصعد الى السطح ليحلب الحطب للطبخ ، وكانت تجمعهم مائدة واحدة ، يتحلقون حولها نهمين ، يرفعون الطعام بأصابعهم المتسخة ، ولا يكفون عن الكلام حتى ينتهوا ، فيمسحون شواربهم من آثار الطعام ، كذلك كان رجال المناسر ، يهبطون الى الدار ، من كل ناحية ، محملين بالهدايا الثمينة للأب الذى يعاملهم كرجال حقيقيين ، لا كاللصوص ، كما يرى المأمور والمعاون ، وكانت الأم تحتفى بمجيئهم ، وتعد حجرة الضيوف للنوم ، فتفرشها بأغطية الصوف ، وتمد عليها المرتبة الكبيرة المفروشة فوق الحصر ، وتلمع زجاج المصباح الذى يضاء حتى ساعة متأخرة من الليل ، كانت

أصواتهم القوية تتردد من خلف الباب الذى ينفذ من بين مفاصله الدخان وبصيص النور .

وتقعد هى بين الاخوة تتسمع لحكاياتهم القريبة ، عن مفامراتهم فى القرى حيث ينهبون الماشية والزرع ، وصوامع الحب ، ولم تكن تخشاهم أبدا ، فكثيرا ما كانت ترى نفسها بين ذراعى شيوخهم القوي ، ويرفعها الى أعلى ويهبطها الى أسفل ، وتصرخ ، وهو يضحك من صراخها ، ويقول اجمدى يابنت ، ولا تكونى خربة ، أنت بنت سيد الرجال .

وكانت الأخت بهية التى تزوجت من الحاج محمد تقرب من الرجال ، وتعبث بشواربهم ، وتفك شيلان عمائمهم دون خوف ، أما الأخت الكبيرة فاطمة التى تزوجت من ابراهيم فكانت لا تقرب منهم أبدا ، كانت تنزوى بالحجرة بأخر الدار ، وتقضى نهارها وليلها لا تقرب منهم ، ولا تساعد فى الطبخ لهم ، او فى تقديم موائدهم ، وتلوم أباهما على زيارتهم المتكررة ، وتقول : مهما يكن فهم لصوص ، ومن الخطر أن تدخلهم دارنا .

ولا يصفى الأب لكلامها ، وظل الرجال يزورونه كلما هبطوا الى البلد .

وتربست الحكومة للأب ، واهتمته بالعمل مع المناسر ، يترك لهم البلد لينهبوا دور الأغنياء ، وفصل من مشيخة الخفر ، وانتفضت البلد لذلك ، وقام رجالها بأشغال الحرائق على مدى أيام طويلة ، ليجبروا الأمور على إعادة الأب الى عمل ، وراح الأمور يجمع جدعان البلد فى الحبس ، وقبض على الأب معهم ، حتى دبر له التهمة التى وضعت الحديد فى يديه ، ليأخذه القطار الأسود الى بعيد ، وعرفوا أنه نفى الى « الطور » وخلعت الأم نعلها ، وارتدت السواد ، ورفعت تراب الفرن الى رأسها ، وأطفأت كل نار فى البيت ، وأمتنعت عن الطعام ، وصارت هزيلة صفراء ، لا تكف عن النحيب حتى عاد بعد عام ليعيشا معا شهورا قليلة ، والمرض الذى كان قد ضرب مخالفه فى صدرها ، سلمها للموت ، فاغتصبها من بينهم ، بعد عام « الكوليرا » بعام .

والأخت بهية مكثت معهم لا تفارق الدار ، تعاون فى غسل همة الأب وخلع أخوها سيد ومحمد أما هى فقد رفضت كل من تقدم إليها ، ووهبت نفسها لحياة الأب والأخوين .

وجاء الفرج بعد حين طلب الأب للعمل مع الباشا اليهودى « شديد » وعمل خفياً على أرضه الواسعة ، وصارت الوسية كأنها ملك له ، يمسك مفاتيحها ويملك حجراتها وحظائرها ونوارجها ومحاريثها وماشيتها ، وكانت كثيراً ما تنتقل مع أبيها وأخويها في مواسم الحصاد للإقامة الدائمة هناك لتتابع جمع المحاصيل ، ولتحرس الجرن الذى تنتشر فيه عرم القمح الكبيرة ، وكانت تقعد في حجرة الوسية وحدها بين المرتبة المنشورة على الأرض وأجولة القمح تطبخ للرجال ، ثم تسهر على الجرن حتى الفجر ، تراقب الرجال في ضوء الفانوس المعلق على جذع الشجرة ، يديرون ماكينة الدراوة ، ويرفعون مقاطف التبن من أمامها ويملئون الاجولة بحبات القمح النظيف التى تسقط من مؤخرتها ، كانت هذه الأيام كأنها عيد .. حتى قبض على الاخ الكبير سيد بتهمة العمل مع احد المناسر الذين قاموا بثقب حائط زريبة أحد الأعيان ، وسحب أبقاره منها ، وأطلق النار على عسكري الدولة لما أراد منعهم ، وحكم عليه بخمس سنوات ، ونسج الحزن مرة أخرى خيوطه على الدار ، وارتدت السواد ، وقلعت نعالها ، وحلت شعرها ، ولم تقترب من موقد ، وترددت على مصر بصحبة أبيها وبهية لزيارة الاخ السجين ، وكانت الاخت الكبيرة ترفض زيارته ، وتقول: اذلنا .. ومرغ وجوهنا في التراب ، وهكذا حكم على لتعيرنى السلفة ، فأنا اخت الحرامى . وخرج ليفرحوا به ، والأب كان قد وفر له مهر العرس ، وأقاموا العرس عرسين ، ودخل كل من سبيد ومحمد على عروسه ، واحد في الحجرة الاولى المطلة على الشارع ، والآخر في المقعد فوق السطح ، وهى وأبوها في الحجرة المواجهة لحجرة سيد .

وعادت أيام العائلة ، تجمعها طبلية واحدة ، حتى دخل الشيطان ، وفرق الأخوين ، وباع الباشا أرضه - بعد الحرب - ليفر الى الخارج ، وسحبت مفاتيح « الوسية » من يد الأب ، فلم يتبق له غير نصيبه من أرض الاصلاح الزراعى وفدانين بالايجار .

وطلب سيد العزلة ، فحصل على نصيبه من أرض الاصلاح ، وبقي محمد في معاش أبيه حتى انتقل الأب الى رحمة ربه

الواسعة ، وطالب سيد بنصيبه من الدار ، فحصل عليه نقدا ،
وكتبت هي نصيبها لـ « محمد » لتضمن العيش معه ، بين زوجته
وأولاده ، وسافر سيد مع المسافرين ، وابتاع الأرض التي أقام
عليها دارا جديدة . وهاهي تقضى شيخوختها بين أولاد الأخ الأصغر ،
تأكل لقمتها ، وتشرب شربتها حتى يتذكرها ربها الذي نسيها
كثيرا .

زوجى العزيز :

مشتاقة اليك جدا ، ومشتاقة الى شقتنا التى أوحشتنا كثيرا ،
والى كل جيراننا الاعزاء ، « أم توتو » و « عايدة » و « توحة »
فبلغهم جميعا سلامى ، أنا آسفة يا حبيبى لتقصيرى فى خدمتك ،
وتركك وحدك فى الشقة تقوم بكل العمل ، فماذا تفعل ؟ هل تتعب
كثيرا فى اعداد لقمته ، وفى غسل ملابسك ، واعداد سريرك . أرجو
أن تتحمل قليلا ، فأنا لا أكف عن الدعاء الى الله ليشفينى ، وأعود
اليك لنعيد أيامنا البهيجة التى لا تنسى أبدا ، فأنا أحافظ على تناول
دوائى ، وأذهب بشكل دورى الى الطبيب ، بصحبة أخى « يسرى »
وخالتى ، فهى تقيم معى الان ، وتحاول المسكينة أداء كل خدماتى ،
فهى كما تعرف طاعنة فى السن ، وهى تحاول على أقصى ماتستطيع ،
و « يسرى » لا يجعلنى احتاج لشيء ، وهو يدفع الكثير من أجلى ،
فلا تنسى أن ترسل الحوالة على أول الشهر القادم ، كما اتفقنا ،
حتى لا أشعر أننى عبء ثقيل على أخى ، الذى ضحى بطرد زوجته
حين عرف أنها اهانتنا .

أتمنى لك السعادة ، وأدعو الله أن يأخذ بيدى ، فى القريب
العاجل ، فيجتمع شملنا .
وقبلاتى الحارة

زوجتك المخلصة

زبيدة

الجزيرة البيضاء ١٦ مايو

زوجتى العزيزة

يعلم الله مدى الشوق الذى يشتعل بصدري لك .
أنا هنا أعانى الوحدة ، ولكنى أحاول التغلب عليها ففى الصباح
أذهب الى المدرسة للمراقبة فى امتحانات آخر العام ، وأعود لاسخن
الطعام الذى أكون قد طبخته ليلا ، واتناول لقمة سريعة ، وأقضى
ساعتين فى فراشى ، قد أنام وقد لا أنام ، بعدها آخذ حماما ،

وارتدى ملابسى . وانزل حيث اسلى نفسى بجلسة الاصدقاء ، وهم يسألون عنك ، وانا اقول لهم ، انها « تغير جو » فى بلدها ، وبين أهلها ، واقضى بقية الليل أمام التليفزيون ، حتى نهاية الارسال . وانا اريد ان اقول لك ، لاهتمى بى كثيرا ، واهتمى بنفسك ، فهى الاولى بالعناية ، لاتنقطعى عن الدواء ، ولا تنقطعى عن زيارة الطبيب ، فعملية « البزل » ضرورية لاستخراج الماء الراشح فى الرئتين ، وانت ادرى بذلك . الحوالة ستصلك حالا ، وهى بمبلغ ٢٥ جنيها ، ربما يكون المبلغ قليلا ، وارجو الا تحزننى لذلك ، فساحاول ان ارفعه فى وقت لاحق .

اهتمى بنفسك ، وسلامى الى جميع الاهل ، والى الخالة ، والى الاخ « يسرى » سلامى الخصوصى .

زوجك

كمال

الاسكندرية فى ٢٨ مايو

زيارة طويلة :

استيقظت زبيدة مبكرا ، فوجدت فراش الخالة شاغرا ، فعرفت انها قامت فى الفجر ، وسحبت جلبابها الاسود وشاشتها ونعلها ، وغافلتها حيث حققت طلب الخال الذى زارهم البارحة ، وطالب الخالة بالعودة الى الدار ، لانه بحاجة اليها الزوجة والاولاد سيرافقونه الى الفيظ ، وعلى الخالة ان تأخذ بالها من الدار الفارغة ، وقالت زبيدة : انا لا استغنى عنها ياخال . واجابها الخال : ستعود اليك فى نفس اليوم .

ولكنها تعلم ان الخالة متململة من وجودها معها ، وهى تشعر بالقرب فى هذه الدار ، من كثرة انتقادها للمبسة المتسخ ، وقلة عنايتها بنظافة نفسها ، وهى تفضل العودة الى دارها ، لتكون على راحتها ، ترتدى الجلباب طول الاسبوع ، ولا أحد يطلب منها التغير ، وتأكل اللقمة فى الاوان الذى تحدده لنفسها ، وتختلط بجاراتها حيث تقتعد عتبة بابها ، ويجتمعن حولها ، يثرثرن حول سير الناس ، اما هنا فهى حبسة الحيطان ، تأكل بخجل ، وتقضى حاجتها بخجل ، وترفع لحمها الكثير الى فراشها بخجل ، ولا يرتاح لها جنب ، ولا تغفل لها عين . وكثيرا ماتنسحب من زبيدة لتذهب

كل عصر الى ابنة اختها زبيدة ام محمد فيفترشان الحصر
بالقرب من عشة الفرن وراء حجرة « العدة » ، وتذهب اليها زبيدة
فتجدها باشة الوجه ، فرحة بالارض المكنوسة ، وبالقلل الجديدة في
الصينية فوق صندوق الحب تحكى عن ايامها مع الحبيبة الراحلة ،
وابنة الاخت مصفية اليها بشفف ، وحب ، وتقعد زبيدة ام ابراهيم
معهما معزولة وبعيدة ، فهي لا تقدر على مجاراة الخالة كما تفعل بنت
المم .

وفردت زبيدة ذراعيها بعرض السرير المتين ، وتمطت في
كسل ، واراحت ردفها على جنب ، لتخرج ريحا مكتوما ، يؤلم ماتحت
السرة ، وقامت لتذهب الى الحمام ، وهي تلم شعرها المشعث في
منديل .

— الله يسامحك ياخالة ..

ومرت على حجرة يسرى ودفعت الضلفة المواربة ، فراته
متجمعا على نفسه في السروال والفائلة مستغرقا في نوم عميق ، ومن
أنفه يتردد شخير واهن ، وشعر بدفعة الباب فاستدار ليرى اخته
بين الضلفتين من عينين مغمضتين لم تتضح رؤيتهما بعد .

وقال : صباح الخير ، بفكيه الاهتمام المخلوع منهما « العدة » التي
غمست بماء الكوب الموضوع الى جواره ، فوق « الكومودينو »
وقالت له زبيدة مكشرة : تسحبت خالتك ومشيت .

ورد عليها وهو يريد العودة الى نومه : تخلص اشغالها وترجع .
وقالت له محذرة : لا تعود مرة أخرى للنوم حتى لا نتأخر على
الدكتور .

— فركة كعب من هنا للزقازيق .



لم ترغب زبيدة في ارتداء الملابس الملونة القصيرة ، وارتدت
الجلباب الحريري الاسود ، ولفت رأسها بطرحة خفيفة ، وجمعت علب
الدواء في حقيبة اليد ، وكذلك « الروشتات » الكثيرة ، والجنيهات
المتبقية من ايراد الطاحونة للشهر السابق . فالحاج على صار يدق
عليها بابها آخر كل شهر ، ويمد لها يده بايرادها ، وصار يكتب لها
كشفا خاصا بها كباقي الشركاء ، يوضح فيه المنصرف ، من جاز وسولار
وأجرة العمال ، وأجرة الحداد الذي قام بسن الشواكيش ، ومبلغ
لجمعية الطاحونة ، يتبقى للطواريء ، وغيره من المصاريف ، ويطرحها
من الاجمالي ، فيكون صافي الابراد ، وفي ظهر الكشف يقسم الصافي على

ثلاثة اثلث ، والثالث يقسمه على اثنين ، وواحد الاثنين يقسمه على واحد ونصف ، فيكون الواحد لاختها ، والنصف لها ، وتحصل على نصيبها ، ويضرب هو نصيب الاخ في جيبه ، فمدة تأجير أسهم الاخ لم تنته بعد .

ولا ينسى الحاج - كل مرة - أن يسألها على سبيل الواجب :
محتاجة أية خدمة ؟
وتقول له : شكرا ياعمى .

ويؤكد لها حين يريد القيام : انت تأمرى .
ولم ينس - كل مرة - أن يشير - من بعيد - الى رغبته في بيع نصيبها ، ويؤكد لها أنه أولى من غريب يدخل بين الاقارب ، فيفرق بينهم ، وينهب منهم طاحونة الاجداد ، فقد عرفوا بها ، وعرفت بهم ، فأخوها المجنون حاول ذلك في المرة الاخيرة ، وجاء بفريب . مدعيا أنه هو الذى سيزن الامور في هذه « المخروبة » وهو الذى سيكشف سرقات الحاج التى يأكلها فى بطنه ، ويتمسكن الحاج لابنة أخيه قائلا : أنا الذى يأكلها فى بطنى ؟؟ وماذا أفعل بالقرش الحرام وأنا رجل هنا ورجل فى القبر ؟ أنا أخاف الله ، ولكن أخاك هذا لا يراعى حرمة ، ولا يحفظ للسن وقاره ، فاطلبى اليه أن يلم لسانه ، لا يعقل أن يجلس غريب على ميزان الطاحونة .

وتشير ابنة الاخ بسبابتها على عينيها ، وتقول لعمها بكل الاحترام الواجب : من عيني .

وتتساءل فيما بينها : لماذا لا يأتى الحاج بالايراد الا حين يكون يسرى غائبا ، لم يأت يوما فى حضوره .. أبدا ؟.

وسمعت صوت موتور العربية ، وجاء صوت « الكلاكيس » من الخارج ، فقامت تغلق حقيبتها ، وتضع منديلها الصغير على فمها ، وتخرج من الحجرة بظهرها ، وفتحت الباب الكبير لتجد يسرى داخل العربية ، أمام الباب بالضبط ، يخرج رأسه من النافذة الاخرى ، ويزعق فى نسوة رحن يجرجرن حميرهن على استحياء جهة الحوش ، والحاج على فوق الفروة مشغول بكتابة الاوراق ، ولا يلتفت الى زعيقه .

ودخلت زبيدة العربية ، وصاحت فى اختها : هل .. كف عن الصراخ .

والتفت اليها بوجهه الاحمر المزرود ، وألحرق يتصيب بين تجاعيده الكثيرة : يعجبك هذا ..

أجد النسوان وقد ربطن الحمير في قضيب الشباك والحاج قرد
لا يتحرك ، ولا يمنعهن عن ذلك .
وقالت له مهدئة : معلى .

وقال وهو يضرب يده المعروقة على عجلة القيادة : ايوه .. ولا على
باله .. وهو يريد أن تطربق على رءوسنا .
ومرت العربية بطيئة أمام الحاج ، وبصق يسرى من النافذة
بغل ، وخبطته أخته على كتفه بخفة : عيب .. عمك برضك .
وصرخ الاخ بعصبية : عما الدب .

وانحرفت العربية الى الشارع العرضى ، تطلع مرتفعانه ، وتهبط
منخفضاته ، وتقلقل الجالسين على كراسيها الطرية ، ويسرى
يصرخ فى كل عيل يمر من أمامه ومن جنبه ، وشخط فى بائعة الكرشة
القاعدة على فراشها على ناصية الشارع ، وقامت المرأة مذعورة ، ترفع
الطشت الذى تسبح بمائه الدامى الفشة والكرشة والمصارين ، وتدفع
الدكة المربعة بمائة خشبة ، أسفل الترابيزة ، ونشير اليه بكف يدها :
حاضر .. حاضر .. وزبيدة توترت أعصابها لانفعالات أخيها ،
وقالت فى سرها : ربنا يستر .. وبعدى هذا النهار على خير .



صهريج المياه يرتفع عاليا ، فوق سيقان طويلة تنفرج من أسفل ،
حيث تنفرس على قواعد أسمنتية بين حشائش خضراء تناثرت فى
أحواض صغيرة ، وتضيق كلما ارتفعت ، حتى تصل الى الجسد
الأسطوانى الهائل الذى يدور بعيدا ، ويعلو على كل العمارات
المرتفعة ، وتبرز منه نوافذ صغيرة مقلقة ، لا يطل منها أحد ، وحول
المساحة الدائرية التى تتوزع فيها أحواض الحشائش ، ينتشر صف
من « البوتيكاات » التى أنشئت حديثا ، تسقط مظللاتها على الواجهات
المعلقة على شموعاتها المعاطف والقمصان الرجالي ، والملابس الحریمی
الملونة ، و « الكمبلوزنات » التى راحت نسمة الهواء الخفيفة تهفّف
فى نسيجها الشفاف ، وتتكدس على طاولات عريضة ، أمام الابواب
الضيقة أحذية للرجال والنساء والأطفال ، وحقائب من جلد
صناعى ، ومن نسيج صناعى .

وقفت العربية « البيجو » على الطوار المقابل لحدى هذه
« البوتيكاات » ، ونزل يسرى ليفتح الباب لأخته ، وأخذ
بيدها ، وهى نزلت تعلم طرحتها على وجهها الذى كشف نور شمس
الضحى شحوبه الزائد ، وأحكمت وضع منديلها الصغير على قمها ،

ومشت تترنح على الطوار أمام أخيها ، وهو تأمل عودها ، وممصص بجانب فمه مشفقا على اخته التي جف هيكلها ، ومالت اكتافها الى الامام ، وتسير بخطو واهن عجوز ، ورفعت يدها الى اللافتة المعلقة على شرفة بالدور الثالث ، وأخفت براحة يدها الشمس التي بصت عليها فجأة من وراء اسطوانة الصهريج ، وقالت لأخيها : اطلع معي لتسندنى ، السلم فظيع .

ودخلا من البوابة الحديد التي أكل الصدا أطرافها ، ورقد التراب الناعم على زهور « اللوتس » الحديدية الموزعة بين القضبان الملتوية ، واستقبلا طراوة المدخل ، وامسكت زبيدة بذراع أخيها من عند الكتف خوف السقوط على رخام السلم الذي انبرت درجاته من الوسط ، على جانب السلم مكان لمصعد معطل منذ عهد بعيد ، ولم يتبق منه غير صندوق مهشم ، ركنت أبوابه على ظلامه المقيم ، وامسكت زبيدة بحديد السلم ، وبدأت تنقل قدمها درجة فدرجة ، ويسرى الى جوارها ، يسير على خطوها الهين ، حتى دخلا من الباب الخشب الذي برز تحت شراسته رأسان لوحشين فتحا شدقيهما على آخرهما حتى بانت الانياب الحادة على الشفتين المشقوقتين ، ولبة « النيون » تسقط ضوءها الحليبي على سيدات يرتدين السواد ، قعدن على كراسى من الخشب الرقيق مدهونة بـ « لاكمه » أبيض ، تعرت قشرته في كثر من الجوانب ، كانت النسوة ساكنات يطردن الذباب عن وجوههن ، وينظرن جهة حجرة الكشف المعلقة التي قبع الى جوارها رجل ضخم بشارب كثيف يرفع انفه الفليظ المدفوس بين عينين شريرتين اقتربت زبيدة من الرجل الذي يرتدى القميص الابيض المقلوب ، وحادثته همسا ، وظل يسرى عند الباب يرقب ظهر اخته ، وهى محنية أمام الرجل تدفع له الاجر ، وتستلم ورقة جعلتها بين يديها وهى تحدث يسرى وتطلب منه الانتظار على المقهى ، لانها تعلم أن عصافير مخه ترقزق من أجل كرسي الدخان على أن يعود اليها بعد ساعة .

وهبط يسرى السلم ليخرج من طراوة المدخل ، ويستقبل الضوء الذي لم تقدر عينه على مواجهته ، فأغلقها لفترة ، ثم فتحها تدريجيا ليرى المقهى المقابل تنتشر بعض كراسيه على الحشائش الخضراء القصيرة ، وراء سور الصهريج الحديدى المنخفض ، اشترى الجريدة من البائع الذي نشر صحفه ومجلاته على الطوار أمام مدخل العمارة ، واتجه الى احدى الطاولات المعزولة ، يظللها جدار احد

« البوتيكات » ، وصمى للرجل ، الذى قدم فى الحال وطلب منه قهوة مضبوطة و « بورى » نظيفا ، ودس وجهه بين صفحات الجريدة ، يطالع العناوين الرئيسية .



لمحها تقف بين حديد البوابة تبحث عنه بعينيها القلقتين ، فتوى الجريدة ، ودفع الحساب للجرسون ، وتخطى الحديد الذى يسبح أحواض الحشائش ، وعبر الشارع المسفلت ، فانتبهت إليه ، واقبلت نحو العربية تفتح بابها وهو قعد وراء عجلة القيادة ، يسوى سرواله من أسفل ، « ويفك اختناق محاشمه » ، وزبيدة ظلت صامتة ، سارحة الفكر ، مهمومة بشيء غامض ، فمال عليها بوجهه وهو يدير مفتاح « المارش » : هه .. خير ؟

فاستعادت ذهنها من سرحاته ، وانتبهت الى وجود أخيها الى جوارها ، فروحت بمنديلها الصغير على وجهها ، ومسحت حبات العرق عن جبهتها ، ونفخت من صدرها هواء محبوسا : الجو نار . وعلق يسرى على كلامها : لما العربية تمشى يتلطف الجو . وعادت الى صمتها ، وتحركت السيارة ، لتدور حول الميدان ، وتخترق الشارع العريض الذى تنتشر البواكى القديمة على جانبيه ، يحتفى في ظلها رهط من الرجال والنساء استفرقتهم الحلقة في زجاج « فترينات » محلات الأحذية والاقمشة والملابس الجاهزة ، وقطعت السيارة شارع المديرية بالعرض ، حيث تتجه الى شارع التربة الجديدة .

وحاولت زبيدة الانشغال بمتابعة مشاهد الشوارع التى تمر بها ، على يمينها الرصيف الواسع الذى قعد بعض المصورين فوقه ، على كراسى صغيرة يراقبون المارة ، ويروحون بالجرائد على وجوههم ، وبعضهم أخفى رأسه داخل كيس « الكاميرا » الاسود ، ليلتقط الوجه المثبت أمام الشاشة السوداء المعلقة على الجدار المقابل .

وعلى يسارها رأت أكشاك الخشب التى يقبع فى ظلها رجال كبار السن يحفرون الاختام الحديدية ، أو يبيعون التمفات أو يكتبون العرائض والبلاغات ، وبالقرب منهم انتشر بائعو الطيور خلف الاقفاص التى رقد على سطحها البط والدجاج والحمام .

وسألت زبيدة أخاها عن الصفوف الطويلة من الفلاحين المتكالبين على طاقة صغيرة مظلمة ، مفتوحة فى أحد جدران المديرية ، فقال أخوها متصعبا : مصلحة الجوازات .

وسالها مرة أخرى عما قاله لها الطبيب ، فأجابت باقتضاب
زى كل مرة .. بسن طلب يشوفنى على يومين وراء بعض .
— بسيطة أوصلك بكره وبعده .
— ولماذا تتعب نفسك ؟
— ولا تعب ولا حاجة .
— انا أفكر فى زيارة الحاجة أنيسة ام محمد واقعد معها
اليومين .
— والله فكرة .



لفت السيارة حول ميدان « الكوبرى الجديد » وصارت الان
بمحازاة موقف السيارات وأشار يسرى لسائق من البلد ، يقف
تحت الشمس ، مرتكزا على بوز سيارته ، وأقبل جهته ليسأله :
تشحن البلد ؟ وقال له يسرى : اوصل مشوار ، وأرجع اشحن .
ومرقت السيارة بخفة من بين الزحام ، لتدخل شارع « الحمام »
الذى ينتصب على ناصيته جامع « الشربيني » العريق الذى أعيد
بناؤه ، فصار له مدخل رحب ، مسور بسياج مرتفع من الحديد ،
مدهون باللون الاخضر ، وصار لمدخله أعمدة مرتفعة ، ونوافذ مفلقة
بتعشيقات من خشب سميك ، ومئذنة نحيفة ، تسمق فى الفضاء ،
وترمى ظلها الممتد ، وسط الاسفلت ، وفوق سور سكة الحديد ،
ولمحت زبيدة عادل يقف أمام دكانه ، سائدا على الكراتين
المصفوفة ، ويعبث بأصابعه الطويلة فى فتحة أنفه الطويل ، وانتبه
اليهما داخل السيارة ، فانحنى بقامته الفارهة على النافذة ، ومد
ذراعه الى الداخل ليسلم عليهما .

وسألته زبيدة وهى ترحب به : ماما فى البيت ؟
قال : أيوه .. انزلا اشربا حاجة ساقعة .
وشكره يسرى لأن عليه أن يوصل اخته ، ويعود الى مشاويره .
فهو لم يرزق من صباحة ربنا ، وتحرك بالسيارة ، ليدخل الى الحارة
الضيقة ، المسفلتة بحجارة سوداء بارزة ، وجاهد فى الدخول الى
الحارة ، غير أن عمود النور الواقف على أول الشارع منعه من ذلك .
فنفخ بغيظ ، وقال لأخته : انزلى هنا .
وفتح لها الباب ، وهى مدت رجلها على مهل ، حتى لامست حجارة
الشارع ، وسارت مصعدة فى الحارة المرتفعة قليلا عن الشارع العمومى ،

لم تلتفت الى الوراق ، حتى صاح يسرى : ارجع لك بعد كم يوم ؟

وازاحت يدها في الهواء ، وهممت بكلام ، لم تلتقطه اذن يسرى .

فصاح مرة اخرى بسؤاله ، فالتفتت اليه بوجهها العرقان : لما ازهق ارجع البلد .

واختفت في الشارع الضيق ، وحاول يسرى الرجوع بظهره ليحتويه الشارع الواسع .

ودعت عند المدخل الضوء الباهر ، والحر الشديد ، واستقبلت الدرج الضيق الذي تلتف درجاته المثلثة بالتواء مفاجيء ، يرهق الصاعد عليه ، وعلى بسطة الدور الرابع ، وقفت قليلا سائدة ظهرها الى الجدار لتلتقط انفاسها ، وتضبط لهائها العنيف ، ثم دقت الجرس ، وخرجت اليها ابنة العم في جلباب خفيف ، وبيد مشمرة ، تقبض اصابعها السمينية على مفرفة ، يلعب الدسم على حوافها ، وتغيرت سحنة الوجه المريض المهموم بعمل اليوم ، وارتاحت ملامحه للضيف غير المتوقع ، وفردت ذراعيها على آخرهما ، فارتمت زبيدة بينهما ، واحتضنت الصدر الكبير : اهلا .. اهلا .. مفاجأة والله . واعتذرت عن خروجها المتجهم ، حيث انها من الصبح بانتظار مصطفى الذي ذهب الى الفرن ليحضر قفص الخبز ، وهذا اللكم لم يعد بعد ، وموعد غداء سيده اذف ، وهو ابدا لا يراعى ، وحكت لها زبيدة انها في زيارة للطبيب ، وبما انها هنا ، فلا يفوتها زيارة نة العم الغالية .

ورفعت بعض الملابس والقوط الملقاة على كراسى « الاتريه » ، وخبطت بها على تنجيدها قبل الذهاب بها الى الداخل ، وقالت لضيفتها : تفضلى .

واختارت زبيدة الكرسي المواجه للباب ، حيث اسلمت وجهها للمروحة الموضوعة فوق صندوق التليفزيون ، واستسلمت انفسها لرائحة الطبخ القادمة من المر المعتم ، ممتزجة برائحة الاثاث ، ودهان الحائط ، وراحت عيناها تتجول في المكان ، فأكدت لنفسها ان الاشياء كما تركتها آخر مرة ، السفرة في الحجرة المفتوحة على الصالة ، يلعب مفرشها السميك في النور النحيل الساقط عليه من شيش النافذة البحرية ، وكمية الضوء كافية لاستجلاء دولاب الصيني و « الشفونيرة » الضخمة ، بخشبها الفليظ ومرآتها التي انتشرت

على سطحها خطوط سوداء وباب حجرة الصالون كان مفتوحا ، فرات
جانبا من الكراسي ، وقطع الكرستال المدلاة من الثريا الكبيرة ، فوق
المنضدة البيضاء ، فبعث هدوء المكان ، وهواء المروحة ، ونفس
الشقة الليف ، والضوء الخفيف السكينة في روحها ، فارتكزت براسها
الى الخلف ، وثبتت عينيها في نجفة الصالة الملونة ، وعادت الحاجة
مرحبة : يا ميت مرحبا .
ووضعت أمام « زبيدة » كوبا طويلا يمتلىء الى حافته بعصير
الليمون .

وقالت لها : بلى ريقك .
وسألتها متلهفة : بتعملى ايه عند الدكتور ؟
وقالت لها زبيدة وهى تمسح جوانب فمها : بعافية شوية .
وقالت الحاجة : ألف سلامة .

واستأذنتها لتصعد الى السطح ، لتلقى نظرة على الدجاج ، لانه
لم يطعم شيئا من الصبح ، ذلك ان مقصوفة الرقبة سكينة لم
تأت اليوم ، وارسلت ابنها لتعتذر ، وتقول انها مريضة ، قامت
الصبح من نومها ، فوجدت جنبها وكأنما دقت فيه عشرات الأسياخ
المحماة ، ولعنت الحاجة - قبل صعودها الدرج ، هذا الزمن الذى
أحوجها لأمثال سكينة فالخدم صاروا ملاعين ، ليسوا كخدم
الأيام الماضية ، أيام كانت تمسك الواحدة منهن من جذور شعرها ،
وتمسح بها البلاط ، ولا تنطق بكلمة « اليوم الواحد منا يداديه ،
ويراعيه ، ويدفع لها الأجر المرتفع ، ثم تصطنع الدلع ، ولا تقوم
بواجبها ورأت زبيدة ظهرها العريض ، وردفيها الضخمتين ،
وهى ترفعهما الى أعلى بآخر ما عندها من قوة ، فقطقطت بجانب
شدقيها ، وقالت لنفسها : مسكينة .. هاهى تعيش شيخوختها في
مجاهدة عنيدة ، هذه المرأة التى كانت تتمرغ في العز ، لقد ودعت
النعم يوم ودعت زوجها .

ورفعت زبيدة عينيها لترى الحاج في صورة كبيرة باطار
مزخرف بماء الذهب ، يقف تحت الشريط الاسود الذى يقطع أحد
أركان الاطار ، بجلبابه البلدى السابغ ، تعلو وجهه ابتسامة حلوة
مهيبة ، وتلقى عيناه نظرة سمحة وطيبة ، فيها وقار محسوب ،
أضفى عليها الشعر الرمادى وقارا على وقار ، فكان في مجمله ،
بطوله ، وجلبابه الفخم ، وشعره ، وبسمته ونظرته رجلا تتمناه
كل امرأة ، لانه يوحى بالحماية والاحترام . هذا الرجل الذى بدا
من الصفرة ارتبطت به ابنة العم وهو يسرح بالعربة « الكارو »

ببضاعته في أسواق القرى القريبة من المدينة ، يبيع الناس الصابون والحلوى والابرة والسكر والشاي ، حتى جاءت حرب « هتلر » ، وفجأة عم الخير من كل جانب ، فصارت العربية « الكارو » دكان بقالة يبيع بالجملة ، وامتلك المخازن الكثيرة التي تشحن فيها البضائع من كل صنف ، تحملها اليها سيارة نقل بصندوق كبير ، تسافر الى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، لتجلب السمن والمكرونة والجبن والمشبك ، وابتنى هذه العمارة العالية ، واشترى قطعة أرض ، حجزها للأولاد ، وبعد الثورة شارك صهره الحاج محمد في الأرض الزراعية ، التي ابتاعها من الباشا « شديد » امتلك منها ثمانية أفدنة ، ونصف العزبة ، ولما رحل - في هذه الليلة التي لا تكف ابنة العم عن سرد وقائعها ، بعد أن سقط في منتصف الليل عند حوض الحنفية ، وجرح جرحا خفيفا في جبهته - تفرق الأولاد ، فالأكبر يسكن القاهرة مع زوجه التي تعمل باحدى شركات الطيران ، في شقة حجزها له أبوه قبل وفاته بعامين ، والبنات تفرقن مع أزواجهن في بلاد العرب ، ما بين الكويت والسعودية والامارات ، وفرغ البيت ، فبقيت الحاجة وحدها مع ولدها الأصغر ، الذي ترك معهده ليدير محل أبيه ، ويساعده حسن الطامع في خيرهم ، والولد رغم أنه لم يرغب أبدا في وجود خاله إلا ان الحاجة أجبرته على ذلك بالقوة ، فهي من جانبها تريد عينا تراقب أفعاله ، عينا يقظة على الولد الأهوج الذي قد يهدر أسم أبيه في الأرض ، والولد يعامل خاله كشفيلى ، لا أكثر ، فهو يأمره بالذهاب الى المخازن لرفع الصفائح والكراتين ، ويأمره آخر الليل باللف على البقالين لتحصيل ايراد المحل ، فهو لم يقتنع أبدا ، بأن هذا الخال الفلاح ، يقدر على فهم عالم التجارة القامضة .

وهبطت الحاجة الدرج ، وابتسمت للضيعة مرة أخرى ، وأعدت الترحيب بها : أنت منورة . ثم انتبهت الى أن زبيدة لم تخلع جلبابها الأسود بعد ، فطالبتها بالدخول الى حجرة النوم ، لتخلع الجلباب ، وتخفف عن نفسها .

ودخلت زبيدة الممر الطويل ، حيث لمحت الأواني فوق البوتاجاز تطلق البخار الشهى ، ويدفعها الهواء الى نافذة المسقط ، ودخلت حجرة النوم في آخر الممر ، علقت الجلباب على الشماعة ، ونظرت الى وجهها في مرآة التسيريحة ، عتمة الحجرة أخفت الشحوب قليلا ، فرضيت عن نفسها ، وعادت الى « الأنثريه » فوجدت الحاجة

على الكرسي الكبير تضع سماعة التليفون على أذنها ، وتحادث شخصا على الطرف الآخر : لا .. ما جاش .. ابعت شوف المضروب صاع فين .. لا .. لا .. متشكرة .. ولا حاجة .. غير البطيختين ، وهات معاك عنب .. سلام .

وانامت السماعة على جهازها الموضوع في سلة من خيوط البلاستيك ، ودق الجرس ، فتقدمت زبيدة وفتحت الباب ، فرأت الرجل بجلباب متسخ ومرقع في أكثر من مكان يرفع على رأسه المجعد الشعر قفص الخبز الساخن ، كان الرجل يتصبب عرقا ، وذراعاها ينتشر عليهما الشعر الاسود الفزير ، يتقطر منهما حبات عرق عكرة ، تسقط على البسطة . وقال وهو يلهث : العيش .

وأطلقت الحاجة سيلا من السباب : لسه جاي .. كنت تنام لك كمان شويه .

ورد الرجل : اعمل ايه ؟ الفرن زحمة . وقالت الحاجة : اتنيل على عينك ، أقعد على ما أجيبلك الفدا . وارتاح الرجل على المسحاة الخشنة ، وبدأ يمرر سبابته بعرض الجبهة ، وفوق الذقن النابتة بشعر خشن ، وينثر قطرات العرق على سور السلم ، وضرب عينه الوحيدة في المكان يتأمل الضيفة التي جلست على الكرسي عاقدة ذراعيها على بطنها ، والحاجة غرقت من الأواني في طبق كبير ، جعلت كل الأصناف على بعضها ، وأتت من الثلاثية بربع بطيخة ، ودفعتهما الى الرجل ، وقالت له : انت والولد « رزه » .. عمك حسن حيتفدى هنا . وأعادت غلق الباب بقوة .

وبعد قليل .. دق جرس الباب مرة أخرى ، وفتحت زبيدة حيث واجهت جرم عادل الطويل ، ابتسم لها ، وأحنى رأسه ليدخل على عجل ، وجاء من بعده الخال حسن يسند على كرشه البارز بطيختين كبيرتين ، دحرجهما في الممر ، وعاد ليسلم على ابنة العم : يا مرحبا .. هنا من زمان ؟ .

قالت زبيدة وهي تعود الى مقعدها : أبدا . ورفع حسن أكمام جلبابه الواسعة ، واتجه الى الحوض : ولان عادل كان محنيا تحت الصنبور يبلل شعره بالماء ، ركن على الحائط ، بانتظار دوره ، واختفى عادل بالداخل ، وكان قد أخذ الفوطة معه يجفف بها على مهل ، وحسن حينما فرغ من

غسل يده بالصابونة العطرة ، سحب منديلته الكبير من جيب الصديري ، وبدأ يجفف يده السمينية ، وهو يجلس على الكرسي الى جوار زبيدة والحاجة مرت من امامهما ترفع الاطباق بكلتا يديها ، وقام حسن منتفضا لياخذ منها احد الاطباق : خلى عنك انت .

وزبيدة اتجهت الى المطبخ الذى لم يتسع لها مع الحاجة . وقالت لها الحاجة : استريحى انت . ثم هزت رأسها نحو الممر ، وقالت لـ « زبيدة » : شفتى سيادته .. لازم يتم عليها كل يوم فى نفس الميعاد .

ولم تفهم زبيدة تماما ، وهمست لها الحاجة بأن الاستاذ ، وهى تقصد ابنها عاد مفرم بنت الست « جى جى » وهى بنت رقيقة مثل أمها ، من بنات هذه الأيام الخليعات اللأى يترددن على النوادى وصالات الرقص ، وأمها لا تكف عن صحبة الرجال من كل صنف ، وكل ليلة تحيى حفلا ، تدعو فيه عليه القوم ، ليشربوا ، ويلعبوا الورق حتى الفجر ، وأنا حذرته أكثر من مرة ، أن هذه البنت ليست من توبنا ، ولا من دمنا ، فلا هى تنفع لك ، ولا انت تنفع لها ، هى تراك نهية سهلة ، تريد أن تخرب بيتك ، وهذا المال الذى تحتكم فيه ، لا يخصك وحدك ، هو مال ورثة ، فحافظ عليه ، وهو لا ينصت الى أبدا ، كل يوم اسمع حكاية عن فسحاته معها ، وسفره خفية كل جمعة الى القاهرة مرة والاسكندرية مرة . وكادت الدمعة تطفر من عين الحاجة ، غير أنها لحقتها ، فمسحت بكمها على عينيها ، وربت عليها « زبيدة » مهدئة : شباب ولازم ياخذ وقته .

وعلقت الحاجة ، وهى تحاول أن تتماسك : مغلبنى يا أختى .. مغلبنى .

وخرجت زبيدة بالأطباق ، ووجدت حسن واقفا على باب السفارة ينصت الى كلام أخته ، وشكل على وجهه ملامح الاشفاق ، ونظر بعطف جهة المطبخ ، وقال لـ « زبيدة » على عجل : مجننها .. والله .

وجاءت الحاجة بقارب الشورية الصينى الكبير ، وجعلته فى المنتصف ، وحسن قام من فوره الى الليمونة المشقوقة ، وعصرها بعنف على الشورية التى تطلق البخار الخفيف ، فيسبح متجها الى

لمبة « الفلورسنت » الدائرية المثبتة بالسقف ونادت الحاجة على ابنها الذى يركن على سور الشرفة القبلية .
وجاء الولد وهو يلتفت الى الورا ، ويشير بذراعه الطويلة لشخص لا يبين واكتملت السفرة ، جلست الحاجة وزبيدة فى صف ، وجلس حسن فى مواجتهما ، أما عادل فقد جلس على الكرسي الوحيد ، على رأس السفرة وبدأت الملاعق تنقل الشورية الى الأفواه الجائعة ، وبدأ صوت الرشف يتناوب بينهم .
قالت زبيدة : سمعت أن ستوية عمى بعد يومين .
فزاد حسن ونظر يده بعيدا ، وقال معلقا : خليفهم يعملوها .. أنا اعملها فى بيتى .

وقالت الحاجة وهى تدفع ملعقة الأرز بحذر : يمكن ما أحضرش .. زى ما أنت شايقة .. مفيش وقت .
وعلق حسن مرة أخرى : هم معتبرينه أبوهم لوحدهم ، عاوزين ياكلوا خيره وكان ما لهمش اخوات .
وقالت الحاجة بتعقل : يا سيدى .. خليفهم يشبعوا .
وزبيدة تعلم أن حسن غاضب على اخوته غير الاشقاء لأنهم يميلون الى أخيه الأكبر « حسين » وقرروا أن يبيعوا نصيبهم فى الطاحونة له محتجين بأنه الأولى ، فهو يعمل بها منذ صباه الباكر ، أما حسن فقد دخل منافسا لأخيه الشقيق ، لأنه طماع يريد أن يلم كل ما ترك أبوه فى كرشه ، والحاجة تقف الى جانب حسن لأنه الوحيد الذى دافع عن حقها فى المسقى المشترك ما بين أرضها وأرض أبيها ، بينما أخوها الأكبر انحاز مع الآخرين باسم أنه يقف مع الحق وحسن يراعى شئونها ، ومقرب منها جدا ، أنه لم يتأخر يوما فى تسديد أيجار الأفدنة الأربعة التى يستأجرها من أخته أما الآخر فهو يهمل زراعة نصيبه المؤجر ، ويوزعها على الفلاحين بايجار من الباطن وقال حسن وهو يلوك قطعة لحم كبيرة خطفها خفية من طبق : والله ان ما باعوا لى لاطلع عقد الفدانين الملك وأخليهم يدوخوا السبع دوخات .

وقالت الحاجة وهى تصطنع صوت الحكمة والقناعة : لا .. الفدانين مالکش حق فيهم .. أنت تعرف ان أبوك كتبهم باسم أمنا للتحايل على القانون .
وقالت زبيدة : وسمعت ان الحاج ساب لهم عقد .. أمك بايعة له الفدانين .

وقال حسن : هـىء .. عقد ابتدائى ، ما ينفعش ببصلة ،
انا معى عقد التسجيل النهائى .
وقالت الحاجة : احنا مش عاوزين مشاكل ، بس يدونى حقى
فى المسقى وفى الأرض الفضا آخذ نصيبى على الواجبة .
وقام عادل منسحبا الى الداخل ، ونظرت اليه زبيدة
بأندهاش .
وانطلق حسن فى طعامه بحرية ، وبدأ يملأ فمه بكل ما تقع
عليه يده ، ثم رفع قارب الشوربة ، وراح يعب منه ، وبعد أن أنهى
ذلك قال مبتسما : المعالق ما بتشلش حاجة .
وقالت الحاجة وهى تمد له يدها بفخذ دجاجة محمر : بالهنا
والشفا يا اخوى .
والتفتت الى زبيدة لتقول : والله بيشقى بس عادل ما بيعترفش
بجميل .
وقال حسن مطيبا خاطر اخته : لسه جاهل .. لو يخلع البنت
دى من دماغه .
وقالت الحاجة : والنبي لاعمل زى ما قلت .
وقال حسن مهللا : والحمد لله .. اقتنعتى .
فنقلت زبيدة اليهما نظرها وعلى وجهها تساؤل مبهم فقالت
الحاجة : انزل البلد يوم الجمعة ، وأروح للشيخ اللى بتقول عليه .
وقامت زبيدة متجهة الى الحنفية ، وقالت وهى ترجرج
الماء فى فمها : آ... سمعت انه شاطر .
وقالت الحاجة وهى تلملم العظام المتناثرة على مفرش السفارة :
يمكن تكون المرة دى سحرت له .
وقال حسن وهو يمصمص اصابعه الفليضة : كل شىء
جائز .

القسم الثانى

- ١ -

لما رأى شواهد الجبانة تدور بعيدا وراء جذوع الشجر المنتصب على الطريق ، قرأ ياسر الفاتحة - فى سره - لأبيه وأمه الراقدين هناك ، تحت مصطبتين متباعدتين ، واحدة على أول الطريق غربا ، والاخرى فى الطرف البعيد ، جهة البلد وتساءل فى نفسه : هل ستبقى هذه العادة أم سيمحوها النسيان ؟ .

فى كل مرة ، يحاول الا يخضع لتكرارها ، ولكن ها هو الخفقان الدافق يلاحق قلبه كلما وصل الى هذه البقعة ، هل هو الاضطراب المعتاد للقاء البلد لما يطول الغياب ؟ أم لأن القلب يعلم أن الحبيين هناك يشربان من عيون المصطبة فرحين بعودة الابن ؟ على كل ، هو لم يستطع الهرب من تلك العادة ، كما لم يستطع الهرب من عينه حين تروح تستطلع المكان حولها ، كأنما تراه لأول مرة ، هاهى مداخن وأبورات الطوب ترتفع فى الافق ، وتتوزع مع انحناءات النهر ، وها هو الصهريج يعلو الأبنية محاطا بالأشجار التى حدفها بالطوب طمعا فى ثمارها اللذيذة ، والنخلات التى جمع بلحها الاخضر صبيا . وبالقرب منه ، على الجانب الأيمن من الطريق ، تمر سراعا أسوار الساحة ، والمعهد الدينى وجدران مسجد النصر العالية ، وسبيل الماء الذى يرد عطش المشيعين بعد أن يكونوا قد واروا الأحبة التراب ، ويمر بسرعة مبنى المحكمة وشونة الحب والمدرسة الثانوية ، وأخيرا ها هو موقف الاوتوبيس .

فيرفع طوله ليسحب الحقيبة ، ويهبط الى الارض ، يللمم القميص والبنطلون ، يدارى عينه خجلا ، كمن يلتقى بالمحبة بعد قطيعة ظن كل واحد منهما انها الفراق ، سور سكة الحديد المبنى بالدبش الابيض مكتوب عليه اسماء يعرفها ، ولم يزل يداوم الاطلاع على اسماء فريق « الاسد المرعب » الذى كان أحد أعضائه ، مكتوبة باللون الأزرق ، بخط صبياتى ، وصورة الفدائى المثلث الذى يرفع رشاشه عاليا طلبا للثأر ، لم تزل بخطوط يده الفضة على منحنى السور ، ويتمنى الا تزول ، لتذكره ببكارة قلبه المنهك .

أعطى ظهره للدكاكين وكراسى المقاهى المزدحمة بالرجال ،
واستقبل المزلقان ، ليمر من تحت بوابتيه المشرعتين فى الفضاء ،
وانزلق هابطا الشارع المسفلت الواسع الذى كانت تقوم عليه يوما
دور عمال الدريسة ، وحاول ضبط الدفع اللا ارادى ليمشى الهوينى ،
مرتبكا فى خجله ، لا يريد أن يراه أحد حتى يضبط مشاعره ، ويألف
عودته ، ويصير واحدا من ناس البلد ، أما الآن فان اللسان سيتلجلج ،
ولن يجد الكلام المناسب ، ولكنه سمع الصوت الذى ينادى : ياسر ..
ياسر .

تجاهل الصوت مؤقتا ، ليتأكد أن النداء يخصه بالذات ، وسمعه
مرة أخرى ، فالتفت وراءه ، ليجد أخاه غير الشقيق حسن يتدحرج
من ارتفاع المزلقان نحوه ، واتجه اليه ليوفر عنه الجهد المبذول عن
اللاحاق به ، والتحمت الأيادى العرقانة ، وقال حسن « كنت قاعد
هنا لما شفتك » .

وأشار الى المقهى الذى يبعثر كراسيه القديمة فى مواجهة
المزلقان .

وأجاب ياسر بارتباك : ما اخدتش بالى .

ودعاه أخوه لشرب الشىاى ، واعتذر ياسر لانه يريد أن
يفسل وجهه وينزل عن جسمه آثار السفر ، وألح حسن فى دعوته :
أشرب الشىاى بعدين روح واتجها الى الطاولة التى ترك عليها
حسن علبة سجائره ، ونصف كوب من الشىاى وصفق أخوه
بكفيه العريضتين ، وجاء حمام من الداخل بطاقيته الملقاة الى الوراء ،
وبشاربه النحيل المفتول الى أعلى قليلا ، مال بجسمه الطويل على
ياسر مرحبا : أهلا بالاستاذ .

وطلب كرسي الدخان ، وأصر حسن أن يشرب قهوة ، وابتسم
له حمام وقال له محركا رأسه وغامزا بعينه بحركات سرية يعرفها
كلاهما : فينك يا عم من زمان .

وقال ياسر وهو يمسح العرق بمنديل ورقى : أبدا .. مشاغل .
ونظر حسن الى كليهما مندهشا ، ثم ابتسم لأخيه الأصغر كأنه
كشف السر وأشعل سيجارة ، ثم مال بثقل جسمه على الطاولة
سارحا فى البعيد ، وعلم ياسر من ملامح وجهه أن لديه كلاما كثيرا
يريد الافاضة به ، وهو دوما يحتاجه فى زئقاته الخاصة ، فيظهر له
التودد ، ويختلق الحيل لاصطياده ، ليقص له عن الأب الذى فهمه
خطأ حين عزم عليه بالفداء « ويقول فى وجهى علانية : وماذا بعد

الغداء ؟ ويخرجني أمام الرجال على المقهى ، ويصرح بأنه لن يؤجر لى قيراطا من أرضه . « او يشكو له أمه التى قست عليه يوما وانحازت الى الخادمة التى جلبها أبوك ، وترك لها دار العزبة ، والبهائم ، والأرض ، لتسرح فيها على راحتها ، وأنا حين أردت الاعتراض عليها ، تتجرا خالتي وتقول : هذه أشياءنا ونحن احرار فيها فلا تدخل بوزك فى أمورنا ، وأبوك يسمع هذا ولا يسكتها ، ثم تهيننى ، وتقول : اخرج من دارنا . . . وحين أشهد أباك على ذلك . وأسأله : هل انت موافق على طردى ؟ فيجيب بحسم : دار اولادها . . . وهى حرة . واطرح دافعا الباب ورائى ، بعد ان اعلنت لهما : هذه الدار حرام على بعد الآن ، فلا يهتمان ، وحين أسقط فى الشارع مفشيا على ، يتلم الاغراب ، ولا تتحرك أمك ، ولا أبى ، لانقاذى برغم انهما يعلمان أن اللمة فى الشارع كانت بسبب سقوطة المفاجيء . »

وكثير من مثل هذه الحكايات ، يسمعها ياسر من أخيه ، ويهون عليه الأمر ، ويطلب منه السماح ، ويؤكد له أن أمه لا تكرهه أبدا ، وان أباه يفضلها على كل الاخوة ، وهو ينظر ذراعه بعيدا ، ويقول : ياشيخ . . . اسمع كلامك أصدقك . . . ويقول حسن وهو مرتكز بكوعه على الطاولة ، يمتص دخان سيجارته ، ويرشف بقايا الشاي : حسين عزم البنات فى داره ، اشترى ثلاث دجاجات بيضاء وجمعهن فى غدوة ، ورفض دعوتى لما طلبت منهن ذلك ، وأنا لا غرض لى غير حق الله مع صلة الرحم .

ويقول حسن : حسين زار الحاجة فتحية ليعرض عليها بيع نصيبنا لزوجها وعرف ياسر انه يريد الدخول فى الموضوع الذى يعرف تفاصيله كاملة ، ولن يبوح بها حتى يعلم أغراضه ، فهو منذ أن اجتمع مع أخوته فى دار الحاج على ليعرضوا عليه شراء ميراثهم عن أبيهم فى الطاحونة ، وعرض الحاج ثلاثين جنيها للمتر ، وطالبوه برفع المتر الى أربعين ، وامتنع الحاج ، هددوا بعرض الانصبه على الحاج حنفى العائد من السعودية والذي رفع السعر الى ما فوق الاربعين ، فى سبيل تمكينه قانونيا من الملكية ، وياسر يعلم أن ذلك مجرد ضغط على الحاج ، فهو لا يريد لحنفى أن يدخل الطاحونة أبدا . لأنه بذلك سيحقق حلم عائلته التى تدعى احقيتها فى الطاحونة التى نهبا الحاج « محمد » من أبيهم عنوة ، ذات يوم بعيد ، لا يعيه الاولاد ويقول حسن : سالت ريانة حسين على الحاجة ، فهى جميلة كما تعلم ، وسمعتها على كل لسان ، وكلنا يعلم كيف استخدمها زوجها فى سفره ، وكيف فتحت له أبواب

الرزق الواسعة مع الفرياء الذين يترددون على دارها ، وزوجها كما تعلم يستخدمه لاغراء أخينا العبيط .

وقال ياسر : حسين أراد من دخول الحاج حنفى الضفط على عمنا .

وألقى حسن عقب السيجارة على الأرض ، وتفادها حمام حين قدم بالصينية عليها فنجان القهوة ، وبيده كرسي الدخان الذى راح يقطع ناره بشفتيه المزمومتين وأمسك ياسر بالجوزة ، بينما حسن أنشغل بضبط الصينية على الطاولة المهتزة ، وقال : دا كلام ! .

وقال : المهم .. أنا مستعد أدفع فى المتر أربعين جنيها . وعلى العموم أنا أولى من الغريب ، وأولى من الحاج على .

وتشجع ياسر ليقول له : لكنك لست أولى من حسين الذى يعمل بالطاحونة من صباح الباكر .. وأنا قلت للبنات ، واجتمع الراى على ذلك ، سنبيع لحسين حتى لو بثلاثين جنيها .

وبلع حسن ريقه ، وقال معقبا : وماله .. أنتم أحرار ، كنت أريد مصلحته ، فسنة لم يعد يحتمل العمل فى الطاحونة ، وأجدى له أن يبقى على قسمته من أرض الإصلاح الزراعى ويشترى بنصيبه من الطاحونة ماكينة رى ، يشرح بها على الفيضان ، وهو مشروع مضمون الربح ، وكثير من الفلاحين تركوا مزارعهم من أجله ، لأن رزقته واسعة .

وقال ياسر وهو يرشف وش الفنجان : وهل ترضى لأخيك البهدلة ؟ .

وعرض عليه أن يقوم معه الى الدار ، فهو لا يحتمل الجلوس هكذا ، دون الاستحمام لازالة غبار الطريق ، وعرض حسن من جانبه ، أن يصحب أخاه الى داره ، فهناك يستطيع ان يستحم بماء الدش ، ويتناولان معا الغداء ، وأصر ياسر على الذهاب الى داربيه ، فالיום « السنوية » ولا بد أن يهيئ نفسه لاستقبال المقرئين والمواسين من قبل اذان العصر ، وسأل أخاه السؤال المفاجيء : أم أنك لن تحضر « السنوية » . فأجابه الآخر متلهوجا : طبعا .. طبعا .

وفى الطريق ، قال له : أنا موافق على بيع نصيبى من الطاحونة لحسين .. والأمر لله .

وقال : أنا أراقب تحركاته من زمان ، ولم أسافر اليوم للحاجة ، وجلست على المقهى لاتابعه ، وهو على المقهى الآخر بانتظار مشتر لأرض الإصلاح وكان الأولى به أن يستعين بى بدلا من الغريب ، فأنا أخلصها له بثمان مجز ، لعله نسى أنى عضو بجمعية الإصلاح الزراعى

السنوية :

حسن يكره هذه الدار ، من يوم أن كتبها أبوه بعقد بيع لأخويه غير الشقيقين ويرى أن هذه مظلمة كبيرة من مظالم أبيه ، دفعته الى ذلك زوجه حرصا على حق أولادها وكرهها أكثر يوم أجبر على الموافقة على ترك متر يدور حولها ، اقتطع من حرم الطاحونة فقد فاجأوه في جلسة ودية ، تجمع الاخوة والأخوات ، وتحدثوا في ذلك ، وعرض ياسر أن يصوت الورثة للموافقة على المتر ، فوافق الجميع باتفاق سرى تم بدون علم حسن الذى كان رفضه متوقعا ، ولأنه رأى الجميع يرفع يده بالموافقة ، قال : يعنى أطلع أنا المكروه .. موافق .

وهو منذ طردته زوجة أبيه ، حرم على نفسه دخول الدار حتى كان مرض أبيه الاخير فأجبر على ذلك ، وعاش بين اخوته الايام الثلاثة التى سقط فيها الأب في غيبوبة لا يفيق منها ، ثم تابع المجيء ليحضر « الثالث » و « الخمسان » و « الاربعين » وليجتمع مع اخوته ، حيث ينهون موضوع الميراث .

وها هو يتبع أخاه متواريا خلف ظهره ، ينظر بتردد الى الكراسى الفارغة للمقهى المواجه للدار ، وينتظر حتى يطرق أخوه السقاية الحديد ، ويفتح الباب ، ويدخل وراءه من الفرجة المفتوحة فالدار لم تتعود - منذ قيام هذا المقهى أمامها - على فتح الباب على وسعه حتى لا يرى الرجال حريم الدار القاعدات بالردهة الداخلية . وسلم ياسر على أخته زبيدة أم محمد التى أخذته الى حضنها بشوق ، ولعت عيناها بحبات من الدمع ثقيلة ، انسالت ببطء على خديها الموردين ، وصاح العيال فى الصالة : خالى ياسر .. خالى ياسر .

فخرجت الأختان الكبيران زينب وزينات وزوجة الأخ الشقيق ، والخالة ، خرجن جميعا من الحجرة العارية من البلاط والمفتوح بابها على حوش العدة ، رحبن بياسر وأخذتهن الدهشة لوجود حسن المفاجيء ، وسلمن عليه بفتور ، واختار حسن الجلوس على كنبه الصالة العريضة ، وتركه ياسر ليدخل الحجرة معهن حيث عدن جميعا لينكفن على أوانى الطبخ ، ورأى أنهن مشغولات بأعداد كميات كبيرة من الطعام ، دل على ذلك الكربات الكثيرة ، ووابورات الجاز التى حصلن عليها من الجيران لتسعف مع نار البوتاجاز المكون

عند نهاية الكنية القديمة ، أسفل النافذة المسدول عليها قطعة المشمع
التي تصفى الضوء في الحجرة ، وتحجز الهواء القوى .

وتحدث ياسر اليهن مداعبا : ايه دا كله انتم حتعزموا البلد ؟ .
وقالت الخالة : تعيش يا خويا وتفتكر .

وقدمت اليه زبيدة لتسأله : اعملك بيضتين بسرعة ؟ .
وقال لها : انا شعبان .. عاوزين كوبيتين شاى تقال .
وسأله الخالة : جاى بكام يوم ؟ .

وقال لها وهو ينفض طوله : كثير .. ازي خالى ؟ .
قالت : والنبي امبارح قال كدا ، ياسر عدى الشهر بيومين .
ومالت زينب على اذنه : وايه عترك فى اخينا ؟ .
قال ياسر مبتسما : كان على القهوة .
وقالت زبيدة : يعنى اخته ما جتش لسنوية أبوها .
واجابها ياسر باهمال : هي حرة .

وقالت زينات : احنا حبييع لحسين ، وحيقبضنا النهارده .
وقال ياسر : هو نفسه حبييع معنا .
وعلقت زينب : خاله الطيب حضر .

وتركهن الى الصالة ليكسر عزلة حسن الجالس كالفريب . يلوك
دخان سيجارته لا ينتبه الى العيال الذين تحلقوا في الصالة الصغيرة ،
يطلقون الصخب ، ويضربون الكرة في ضلفة الباب الكبير .

وعادت زبيدة اليه : تشطف قبل الشاى ؟ .

وقال لها : على ما اشطف تكونى خلصتى الشاى .

ومال الى الحقيبة يخرج هدومه المتسخة ، وهي وقفت الى
جواره تجمعها على ذراعها وتطلع اليها حسن يحذر ، وقال : ازيك
يا زبيدة ؟ .

وردت دون أن تنظر اليه : الله يسلمك .

حسن أراد بعد وفاة ابيه أن يتقرب اليها ، ويعاملها بحنان
عوضا عن أبيها فهي « وليته » مكسورة الجناح ، وهي أحوج الأخوات
للعناية ، وزبيدة كانت تنفر منه ، ولا تميل اليه ، وتتحوط لحيله
التي تعرفها ، فهو يعترب بطيئا ناعما كالشعبان ثم سرعان ما يخون ،
ولدهع ، ثم يختفى في جحره المظلم ، فلا تصل اليه يد ، وقلبها
لا يرتاح اليه . لأنها تعتقد أن له يدا في طلاقها من زوجها الذي تقرب
منه على حصل على لقمة سائفة ، وهذه هي طريقته أبدا ، ما ان

يطل أحد برأسه ، يظن حسن ان وراءه شيئا حتى يتودد اليه ،
يحصل على مرماه ، ثم يقبض على جلبابه في أسنانه ، ويجرى .
بعد وفاة الحاج محمد دخل عليها حسن بأكياس الفسাকে ،
وبالجنيه أو الجنيهين ، على فترات متقاطعة ، وكانت حين تثور
على أمها ، يستضيفها في داره ، ويفح في أذننها ، وينفث سمومه في
صدرها ، ليزيد نارها نارا ، فتكره أمها ، ولكنه حين يفعل ذلك
ترداد محبة لأمها ، وتعود اليها فجأة ، مشفقة عليها ، وتخدمها
بعينها ، ولما تكرر ذلك منه ، صاحت في وجهه ، وبعلو الصوت :
أخرج من هنا ، ولا تدخل دارنا أبدا .. أنت شيطان .

وأخرج حسن في التو ، ولكن هذه المرة ، لم يكن الأبله الذى
يلقى الايمان المفظة بتحريم الدار ، في هذا الاوان بالذات ، وانحنى
للعاصفة ، وعاود المجيء ، فان له حقوقا لم يحصل عليها بعد ،
وهناك معاملات مع الاخوة والأخوات ، فهل يضع نصيبه كواحد من
ورثة الحاج ؟ .

واستأذن ياسر من أخيه في دخول الحمام ، وأجابه حسن بأدب
شديد : تفضل .. اليه دلوقت ترد الروح .

لما عاد حسان من عمله مرهقا . يتصبب عرقا ، شد على يد أخيه
ياسر وقبل خديه ، ورمى السلام على حسن الذى تقلقل في مكانه ،
بينما هو يعبر من أمامه ليدخل حجرته ، خلع ملابس العمل ، وارتدى
الجلباب الأبيض الخفيف ، وانشغل بتشطيف وجهه على الحوض ،
وقال لياسر وهو يجفف وجهه ، كنت تقدم اجازتك يومين .
وهمهم ياسر بكلام غير واضح ، بان منه أنه ليس ملك نفسه ،
وتحكمه مشاغل العمل ، ولما ارتاح حسان لنظافة وجهه ، ورفع
الاجهاد عن سحنته ، قعد على الأرض ، وخبط فخذ حسن
صائحا : ازيك يا أبو على .

وانتفض لها بدن حسن السمين ، وممص شفتيه مستغربا .
وأهمله حسان فجأة ، ومال بوجهه نحو الحجرة المزدحمة
بالبنات : الفدا جاهز ؟ وأقبلت زوجته بالصينية الكبيرة ، وضعتها
على الأرض ، وافترشت عليها ورق الجرائد ، ثم بدأت تنقل الأطباق
من الداخل ، والعيال تركوا لعبهم ، وتجمعوا في حلقة بالقرب من
باب المرحاض .

وقال حسان : خلوا العيال لوحدهم .

وجاءت زينب بقارب الشورية ، انحنت فوق الصينية ، تزيح
الاطباق لتجعل له مكانا وسطا ، وقالت لأخيها : احنا حناكل جوه ،
والعيال معنا :

وقال ياسر لأخيه : حسن موافق على البيع .
وهتف حسان : صحيح ؟ وهو ينظر بابتهاج الى حسن المنكمش
على نفسه بالقرب من الصينية وكأنما يريد أن يقول فلنبدا «باسم
الله » ليس هذا وقت الكلام في البيع والشراء لقد أزف وقت الطعام .

بعد الفداء ، قام الاخوة برفع كراسي الصالون المذهب الى
الحجرة الداخلية تركوا الكنبه الكبيرة في المواجهة ، وأضافوا اليها
كنبتين « اسطانبولى » على الجانبين وأرسل الصبية لاحضار بعض
الكراسي من دار الحاج على وجعلت هذه الكراسي في صفين بطول
الردهة الصغيرة ، وأنزلت الستارة بين الردهتين لتحضى حريم
الدار من عين الرجال .

وبعد صلاة العصر ، سمعت طرقات السقاية ، وفتح الباب ،
حيث دخل عثمان يسحب الشيخين المكفوفين ، وقام الاخوة ، وأزواج
البنات الذين قدموا من ساعة ، وهياؤا للشيخين مكانهما ، أسفل
النافذة المضيئة ، وتربع الشيخ محمود والشيخ يوسف على الكنبه
المذهب الطويلة ، وقبع عثمان على طرف الكرسي ، عند الباب ،
يجفف عرقه بمنديله المكور . ومن حين لآخر يلقي نظرة الى الداخل ،
ويضطرب أنفه لرائحة الطعام الشهى .

ودارت بعض الاحاديث التافهة ، أكثرها حول عثمان ذلك
الولد الذى لا يدع وليمة تفوته ، وطلبوا منه أن يريهم دفتره الصغير
الذى يلقيه فى عبه ، حيث سجل فيه أسماء الأموات جميعا ، وتواريخ
وفاتهم ، وتواريخ خمسائهم ، وتواريخ الذكري ، وكل يوم يطلع
على الدفتر ، ويمر على أهل المتوفى ليذكرهم بالمناسبة التى قد
تفوتهم ويحجز لنفسه مكانا حيث يصحب المقرئين ، وهو الذى
يحفظ بعض الآيات التى تعاون فى التردد على القبور ، الخميس
والجمعة من كل أسبوع ، قد يطلب منه أهل المتوفى ترتيل بعض
الآيات ، لا شئ ، الا للضحك على صوته الأجش ، وهو لا يمانع
فى سبيل الحصول على ربع الجنيه أو الخمسين قرشا .

وانطلق كلا الشيخين يعاونان أهل الدار فى التفكه من عثمان ،
فقال الشيخ محمود : هذا المجرم لا يعتق وجبة قط ، خذ اليوم

مثلا ، حجز معنا هنا ، وبعد قليل سينطلق الى الجبانة ليلى
محصولها ، وبعدها عنده سنوية جماعة أبو بلال وعنده ختمة في
كفر السوق ، ثم يختم ليلته للذهاب الى ليلة سيدى عبيد .
وسمع طرق على جانب الباب ، فقام حسان ليسحب الصينية
من يد زوجه وضع فنجانين أمام الشيخين ، ثم دار بالباقي على
أزواج البنات ، وأخوته ، وبقي فنجان مد له عثمان يسده ،
فضربها حسان : وكمان حتشرب قهوة ! .

ورد الشيخ محمود مهلا : قلت لك يا أستاذ هو ما يعتقش .
وقام عثمان الى الفنجان بعد أن أدخل منديله في فتحة الجلباب ،
وقال : والنبي يا أستاذ دماغى مصدعة .. شوف .

ورفع طاقيته ، فبدأ رأسه الحليق معقودا بمنديل على جبهته .
ورشف الشيخان الفنجانين . ودخنا سيجارتين ، عزم بهما
واحد من أزواج البنات وبعد أن انتهى من ذلك ، راح كل واحد
منهما يدعو الآخر ليفتح التلاوة ، فبدأ الشيخ يوسف ، ووقع
صمت مهيب ، وانسحبت الابتسامات ، وتشكلت سحن جهمة ،
وانعقدت الوجوه ، وأخذت بالعقول تأملات عميقة في الآيات التي
حركت الحزن الكامن في القلوب .

وبدا الرجال يترددون ، جاء الخال محمد والخال سيد وجاء
الحاج على وبعض الجيران ، ثم جاء أخيرا يسرى بقميصه المتسخ ،
تنتشر عليه بقع الشمع ، هلل لما رأى ياسر ، وسحب الكرسي الى
جواره ، وبدأ يدور بينهما همس خافت ، ينقطع حين تسقط عليهما
نظرة الأخ الكبير حسين المحذرة ، بل ان حسن لم يتورع عن رفع
أصبعه الى أنفه ليقول لهما : هوووش .

وبعد آذان العشاء بساعة حضر المشتري ، رجل في الخمسين
من عمره ، يرفع حقيبة سوداء تحت إبطه ، ويحرسه غلامان ينظران
بصلابة كي يفهما من حولهما خطورة العمل الذي يقومان به ، وهو
حراسة مال الأب الذي سينتقل بعد أن يخرج من هذه الحجرة ،
من رجل معدم لا يمتلك قيراطا الى صاحب ملك ، حصل على فدانين
خالصين له ، بعرق الفربة ، وجهد السنين .

ومال يسرى على أذن ياسر ليسأله عن القادمين .

وقال له ياسر : بعدين أقول لك .

بعدها قام ليستأذن من باقى الاخوة ، وقال لياسر : أنا
منتظرك .

وشق حسين الرجال ليسلم على الضيف الذي اخذته المفاجأة ،
 واجلسه على أحد الكراسي ، ولما انتهى الشيخ محمود من القراءة ،
 مال حسين ، على اخوته ، واستشارهم قائلا : اظن كفاية .
 ومال على حسان : اديهم حسابهم .

ونادى على الشيخ محمود : أحسنت يا مولانا . . اختتم بقى
 يا شيخ يوسف .

ورد الشيخ يوسف مبتسما : من عيني .

وأشار الى كلتا عينيه المظلمتين .

وبعد أن قرئت الفاتحة للراحل العزيز ولأموات المسلمين جميعا
 ولكل أولياء الله الصالحين ، قام الأخوال الى الداخل ، ليسألا اختهما
 عما اذا كانت ستأتى معهما ، وقعدا قليلا مع البنات في نسمة الليل
 الرائقة في حوش العدة الورانى ، ولم تسمح زبيدة برحيل الخالة ،
 وقالت للخال محمد : خليها معنا يومين . ولكن الخال أصر على
 رحيلها .

أما أزواج البنات فقد سلما على الاخوة بأدب ، ودخلا ليصحبوا
 الامراتين غير أن البنيتين طلبتا منهما أن يرحلا ، ويصحبوا معهما
 العيال ، وسيأتيان بعد قليل وسيقوم أحد الاخوة بتوصيلهما ،
 وخضع الأزواج لطلبيهما ، وسار كل واحد منهما في طريق .

اختار الرجل كرسيًا في الزاوية الضيقة وراء الباب ، وقعد
 ولداه على كرسيين ، واحد عن يمينه ، والآخر عن يساره ، يرقبان
 المكان الغريب بحزم ، يتنقلان بنظريهما في الوجوه الصامتة أمامهما ،
 ويمعثنان النظر في صور الحائط ، أو يلقيان النظرات المتأملة الطويلة
 في الظلمة المسدلة وراء قضبان النافذة ، وأبوهما دفس الحقيبة فوق
 وركيه ، وانحنى عليها قليلا ، وماتت أطرافه العظمية الجافة على
 جوانبها ، وظل مدة يتفادى نظرات حسن الشريرة ، فأخوه الأكبر لم
 يخبره بأنه سيكون بين الحاضرين ، وهو حين دخل ، وبوغت بكتلته
 الضخمة المفرودة على الكرسي المذهب ، كاد أن يرجع بظهره ، ولكنه
 اقترب منه بالذات ، كما يقترب الفأر الفرع من القط ، بعد أن
 عرف مصيره وأقر بأن لا فكاك ، ولا مهرب ، فالفاصل قد خدرت ،
 والدم تجمد في العروق وأرعبته كثيرا نظرة حسن حين مد اليه يده ،
 وقال له : ازيك يا أبو سالم بطريقة تهكمية تحمل التهديد في
 ثناياها .

وأبو سالم يخشى أن « يطريقها » على دماغه ، فهو يعلم أن هذا

الذى يفعله لا يقره القانون فالحكومة لم توزع بعد عقود الملكية على منتفعي الاصلاح الزراعى ، والبيع بالباطن أمر خطر ، اذا لم يوافق عليه أعضاء الجمعية الزراعية ، وحسن واحد منهم ، بل هو اخطرهم ، وأبو سالم يرجو أن يصفوا الاخوة فيما بينهم ، ويرضى حسن عن هذا البيع ، حتى لا يظل مهددا ، ولا مانع عنده أن يعطيه ثلاثمائة جنيه نظير الموافقة وحسين هذا باله ، حين قال له : ولا يهملك .. القرشين يسكتوه .

وحسان منذ أن رحل الشيخان والأخوال وازواج البنات وهو يتحرك ما بين حجرة الجلوس والحجرة الداخلية ، رفع الأكواب والفناجين الفارغة ، وأمر زوجته بأن تصنع شايا للضيوف ، وأجاب على أسئلة أخواته : من هو الرجل ؟ وبكم سيشتري أرض حسين ؟ وهل حقا ستوزع عليهن أنصباتهن من ميراث الطاحونة الليلة ؟ وأراحهن بالاجابة على بعض الاسئلة ، ونفض نفسه منهن هربا من الحاحهن فى البعض الآخر صائحا : لسه ماتمش حاجة .

ونبهت زينب على الأخ الشقيق : ماتسيبش الاوضة ، واصحى لكل كلمة . زينب دائما متشككة فى كل أمر ، وهى تحصى أصابع يدها حتى لو كان الذى صافحها هو أخوها ، ومنذ وفاة أبيها ، حين ترى اثنين من الاخوة مندمجين فى علاقة طيبة ، يلعب الفأر الأبدى فى عيها ، وتدور على أخواتها فى بيوتهن لتعبر عن شكوكها ، فمرة انضم حسان الى حسين فى جمع القطن وسمعت من بعض جيرة الأرض انهما باعا الكثير من المحصول للتجار ، خارج تموين الحكومة ، ومرة اجتمع حسين مع حسن ليوزعا أجولة الذرة التى نشرت فوق سطح دار العزبة لتجففها الشمس ، ومرة حسان ذهب الى العزبة ، صباح هذا اليوم ليتصرف فى كمية من الحطب و التبن المخزون بالدار ، وهى فى اكثر المرات تجد آذانا صاغية لشكوكها ، وفى مرات قليلة تراجعها زينبات بطيبة لتدفع الشك عن أحد اخوتها : يا شيخخة .. حرام عليك .

ولا يستبعد بعد أن تسمع ذلك القيام بزيارة منفردة الى زبيدة لتقول : شوفتى تدافع عنه ، الظاهر انها مستفيدة ، فهو لا تحلو له القعدة الا عندها .

وفى حجرة الجلوس ، فرك حسين يده ، بعد أن فرغ الضيوف من احتساء الشاي ، وبدأ الكلام : سمعونا الفاتحة للنبي . وانتشرت فى الحجرة وسوسة القراءة الخفية ، ورفع أبو سالم يده عن الحقيبة للحظة ليمسح براحته على وجهه ، ثم أعادها بسرعة

لتقبض على جوانب الحقيبة المنتفخة ، وياسر وحسان قرآها بحركة الشفتين بينما الجميع كان يسمعها حرفا حرفا من لعلعة صوت حسن القوى .

وتحدث حسين عن رغبته فى شراء نصيب اخوته من الطاحونة ، وتحدث قليلا عن ذكرى المرحوم ، وانهى كلامه فى هذه النقطة ، بأن هكذا حال الدنيا وأن لا شىء دائم غير وجه الله ، وبأن الملكية ما هى الا امانة بين أيدينا يسلمها الواحد للآخر ، والملك فى النهاية لصاحب الملك .

ورد « أبو سالم » بحماس : ونعم بالله .
وظل حسن راكزا بكوعه فوق مسند الكرسي ، ونفخ هواء من أنفه وأطلق تنهدة عميقة ، وسأل أخاه : وبكم ستشتري ؟
وذكره حسين بالثمن الذى كان قد اقترحه الحاج على وانه قد رفع ثمن المتر عشرة جنيهات ، وانه يظن أن هذا الثمن مناسب جدا ، والبنات موافقات على ذلك ، فنهره حسن قائلا : تكلم عن نفسك ..
لهن السنة يتكلمن بها . ونظر الى أبو سالم ليسأله : وانت بكم تشتري أرضه ؟

وفرد الرجل هيكله ، وتنحنح ليسلك زوره قائلا : بسبعة آلاف للفدان أن شاء الله . ثم أعاد النظر الى أخيه ليسأله : وانت موافق على الثمن ؟

فقال حسين وهو يرفع طاقيته لروح بها على وجهه : السعر كذا النهارده .

وقال حسن وهو يعتدل قليلا لريح بطنه الممتدة أمامه : بدل الف والدوران .. طلع يابو سالم فلوسك .

وارتاح الجميع فى جلسته ، وسمعت تنهدات الخروج من الموقف العصيب ، وسمعت قدم تجرى بالخارج والبنات لم يتحركن من اظهار أصواتهن ، وصار همسن كلاما ، ثم استمال الى صخب ، حتى تجران فى النهاية على الدخول الى حجرة الجلوس ليتوزعن على الكراسى الفارغة ، وعلى أطراف الكنب ، دون أن يشعر بهن أحد ، ورحن يراقبن الجنيحات الحمراء ترف فى يد حسن اليارعة ، ويضحكن بخفاء على ارتباك حسان فى العد ، ويفمزن فيما بينهن ليشرن الى حمرة وجه حسين الذى فرح كثيرا بهذه النهاية السهلة حتى أنه مال على احدهن قائلا : بعدما نعد الفلوس ، وأمضى العقد للرجل أوزع عليكم نصيبكم ، وبعدين تكتب عقد الطاحونة .

بعد أن ضربت كل بنت نصيبها في صدرها ، نفض حسن جلبابه ،
ودس نصيبه ونصيب الحاجة أنيسة في جيب الصديري ، واتجه
الى الباب الكبير ، دون سلام أو كلام ، والشر يقطق من عينيه ،
وشده بقوة وراءه حتى أن جدران الدار ارتعشت رعبا ، وساد صمت
اليوم على الحاضرين ، وتأمل كل منهم وجه الآخر ، وقالت زينب :
الظاهر ناوى على الشر .

وازدادت الحمرة على وجه حسين وقال متجربا : أعلى ما فى
خياله يركبه .

وسحب ياسر نفسه من الجلسة ، بعد أن اتفق مع أخيه على
زيارة العزبة ، واتجه نحو باب العدة بعد أن أعطى ما يخصه لـ زبيدة
لتحفظه فى دولاب الحائط الى أن يحين موعد السفر .

رفع جسمه كتلة الظلام الراقدة وراء الدار ، ولف خياله حوله
عن يمين وعن شمال حين سار فى الظل الباهت عند خجرة الميزان .
دفع زجاج الشراعة ، ومد يده بين القضبان ، وشد الدوبارة
المتصلة بترباس الباب ، وكان قد رأى يسرى هناك بالساحة التى
بأخر الدار ، يراعى نارا كبيرة ، أشعلها على الأرضية ، وأقبل عليه ،
ولم ينتبه يسرى حتى رأى خياله يسقط على يديه المشفولتين بتنظيف
الحجارة .

وجلس ياسر على كرسي الخشب ، وفرد ذراعيه على آخريهما ،
ليستقبل النسمة اللطيفة التى تتخبط حائرة بين الجدران مطلقا آهة
أفرغت كل هموم القلب .

قال له يسرى : خلصت ؟

- الحمد لله .

- شكلك يقول انك قبضت فلوسا .

- يعنى عازف ! .

- ودى عاوزه فهلوه .

وقام ليسحب « الدومة » من صفيحة الماء ، جعل فوهة القلب
تحت الصنبور ، وترك الماء يندفع من الغابة ليرش تراب الارض ،

فذعرت الأرانب الطليقة ، وهربت بخفة الى جحورها ، وظل بعضها في فتحة الفرن ينظر بعينين وأسعتين براقنتين .

وياسر أخرج ورقة « السوليفان » الحمراء ، جعلها في راحته ، وراح ينفخ فيها ويضغط عليها ليمنحها الدفع حتى لانت بين أصابعه ، وأخيرا صف القطع الصغيرة فوق عتبة الكبريت ، وعاد يسرى ليجمع نفسه فوق كرسى الحمام وبدأ يردم الجمرات ، ويحوطها بالتراب ، ثم بدأ يسحب جذوات صغيرة مصهلة ، ويرص الحجارة المصفوفة بين قدميه .

وقال لياسر : أتمنى لو أنهى إيجارى مع الحاج « قرد » وأبيع نصيبى مثلكم .

وقال لياسر : أنا يا عم لا بتاع طواحين ، ولا بتاع أراضى ، أنا رجل سواق .. بدل ما أهلك عمرى فى عربيات الناس ، اشتري عربية ، تكون خالصة لى ، ما عاد العمر يحتمل البهدلة ، وكمان ياريت تقول لخالى يسحب الأرض .

ووافق ياسر على كل ما قال .

وحدثه يسرى عن حضور أخته زبيدة ، وعن طرده لسعدية وقال له أن صحة زبيدة تتدهور يوما بعد يوم ، ولم ينجح الأطباء فى توصيف مرضها بعد ، وقد جاءت هنا لتجد من يخدمها ، غير أن بنت الكلب قليلة الأصل ، تجرات عليها ، وتشاجرت معها على مرأى من زوجها ، فقررت إنهاء عيشها معنا .

وذكره ياسر بكلامه الذى يردده عليه منذ أن كانا معا بالقاهرة : قلت لك مائة مرة تزوج غيرها لتنجب لك الولد ، فهى لا مال ولا جمال ، ولا انجاب يعنى عديمة المزايا ، فقيم الحرص عليها ؟ .

قال يسرى : كنت أقول العشرة .. انما خلاص .

قال ياسر : طلقها .. خليك تشوف حالك .

— تصدق ان القسيمة فى جيبى من يومها .. وخايف أعملها .

وأخرج ورقة قديمة مطوية من جيب جلبابه ، ركن الجوزة ، وأخذ يفك طيات الورقة وأعطاها لياسر ليقرأها ، وقربها ياسر من اللمبة المدلاة على حائط المطبخ .

وأكد ضرورة أن ينهى ذلك ، فى أقرب فرصة ، وقال : ابن المأذون كل ليلة على المقهى المواجهة لدارنا ، أنا أشوفه بكره ، ونطلع على أبيه ننهى المسألة .

— أنا بكره راحة .. وأنا من ايدك دى لايدك دى .

ومد له يده بالجوزة : غير الميه على ما انظف الحجارة .
وقف ياسر أمام الحوض ، وحاذر من رشاش الماء ، قلب الجوزة
لينثر ماءها على الارض ، ثم جعلها تحت خيط الماء ، فقال له يسرى :
لا .. ادفسها خلى الميه تجرى فيها .
وقال ياسر : يا أخى أنا مش مطمئن لحسن .
- حيعمل ايه ؟
- لا تنس أن العقد المسجل للأرض الملك معه .
- لو فى استطاعته كان عمل من زمان .
- بيعنا لأخيه حسين وتنازله عن متر الدار ، وتوكلنا لحسين
بعد وفاة الحاج يخليه يستغله ضدنا .
وطالبه يسرى بأن يخلع الهموم من دماغه ، ليستمتعا بخلوتهما ،
وصاح فجأة بتهليلة عالية رفع على أثرها الجوزة عاليا نافخا الدخان
من فمه ، ومن طاقتى أنفه : ملعون أبو الدنيا .
فضحك ياسر لمنظره ، واستقبل دوره ، وبدأ يقطع النار بشدة
حتى تناثر فتاتها على الارض .
وبعد أن أنهى يسرى ضحكه المفاجيء ، ومسح الدموع عن جانبى
عينيه مال عليه ليسأله همسا : فين يا عم المسائل ؟
وصمت ياسر بحسرة : وتفادى نظرتة ، وهو يعطيه الجوزة
الفارغة ، وكرر يسرى السؤال : ايه .. خلاص ما عدوش يطلعوا
ورق سرى ؟
وأراح ياسر صدره بتنهيذة عميقة ، ولم يجب ، وظل متفاديا
النظر الى وجه الرجل الذى بص عليه من بين ذراعيه اللتين تنقلان
الجدوات الى البلاطة ، ليقول له : والله تعلمنا منه الكثير .. فتح
ضلمة الدماغ .
وكرر يسرى كلمته الخالدة « كما قلت لك ، لترى هذه الاشتراكية
مطبقة على الواقع محتاجة لخمسين سنة ، على الاقل . » ذلك أن
يسرى يعتقد أن أدمغة الناس جميعا قد أكلتها العتة ، وخربت فى
السعى وراء القرش ، أو كما يقول دائما : كيف ستلجم هذا الرجل
عن غرضه ، وتقول له كف عن التفكير فى كوم اللحم الذى تحمله على
كتفك ، ولا تفكر فى السفر الى الخارج فى سبيل ان تبني لك ولعيالك
دارا تأويك ، أو فى سبيل أن تضع على جسمك هدمة نظيفة ، وتطعم
نفسك وعيالك لقمة لاثقة ، كل الناس صمموا على هدف ثابت ، وهو
كيف تقلع القرش من عين العفريت ؟ أن توقفهم عن هذا الفرض

ليطالعوا هذه الورقة أو تلك ، سيقولون لك هذا كلام جميل ، ولكنه أحلام مجرد أحلام . هذه الورقة لن تعيننى على شراء تليفزيون ملون كما فعل فلان ، ولن تساعدنى أن اضع قرشين فى البنك استفيد من فوائدها كما فعل علان ، أو لن تقدم لى يد العون لأهيل تراب دارى القديمة لأقيم غيرها بالحجر الأحمر كما فعل ترتان . وهكذا .. وكان ياسر ينصت لهذا الكلام المحبط ، ثم يستوقف سرى فجأة ليقول له : لكن ..

فيرد عليه سرى بحسم : لا تقل « لكن » هذا هو الواقع ، واحد عبيط مثلى سينصت اليك ، وسيؤمن على كلامك ، ربما لأن لا أولاد لى ، أو لأنى أقدر على نفسى قليلا ، كم واحد فى هذه « المخروبة » سينصت اليك ؟ بل قد يواجهك أحدهم بالسؤال ، وكم عددكم أنتم أيها الاشتراكيون ؟ عشرة ، عشرون ، مائة ، ماذا ستفعلون فى هذه البركة العفنة ؟

ويصمت ياسر تماما ، ويدع ذراعيه يسقطان الى جنبه ، ويميل برأسه على كتفه ليسرح فى لا شيء ، ويعود اليه سرى ليقول له : أنا لا أقول هذا الكلام لأحطمك .. أبدا .. أنت تعلم بأن قلبى معك . وحين لا يستطيع اخراج ياسر من حالته ، ويخشى أن يكون قد أصابه الفم ، يخبطه على ساقه ، ويمد له يده بالجوزة ، ويقول مهللا : يا عم ان شاء الله تخرب ، ولا تحمل هما .. خذ .. شد .

ويهدىء من لهجته قليلا ، ويتحدث جادا على حين غفلة : ولا يهملك ستحكمون البلد ، وتؤدبون كل أولاد الكلب ، لكن فى هذه الحالة أرجوك لا تنسى ، فأنا معك منذ فترة ، اقرأ أوراقك ، وأسلم لك عقلى ، ومقتنع بكثير مما تقول ، فلا تنسى .

ويظل ياسر عاقدا على تكشيرة وجهه المهموم ، فيدفعه بكوعه ليقول له بغمزة من عينه : ما فيش ميعاد الليلة .. والا ..

ويبتسم ياسر ويبدأ يقطع نار الحجر ، ويطلق الدخان على دفعات من فمه ، ليأخذه الهواء غلالة زرقاء شفافة ، ثم يبدأ يمزعها بعيدا ، ويلقى كل قطعة منها فى ناحية ، من فضاء الساحة الواسعة .

قام « ياسر » من نومه على هزات خفيفة في كتفه ، فرأى في ضباب نظراته النائمة زبيدة تقف الى جوار السرير ، طافت بسمة لطيفة على وجهها الحزين وقالت له : حسين وصل .

وثنت ركبتيها على الكنب لتدفع شيش النافذة المفلق ، فاندفع نور الشمس قويا يملأ الحجرة الضيقة ، وسمع صوت حسين يأتيه من الخارج : صبح النوم فقام يمد جسمه ، ويضرب ذراعيه في الهواء ، ليفك تكبيلة النوم المستحكمة وفي الصالة وجد حسين في جلباب ابيض خفيف ، وطاقية بيضاء من القماش ووجهه مشرق ومضى ، أزال عنه شعيرات الذقن التي كانت تنتشر عليه بالأمس ، وانمحي عنه الاجهاد ، وصار رائقا كمن رفع عن عاتقه كابوسا ثقيلا كان يرهقه ، وزوجة اخيه كانت بحجرة الكرار تنحنى على المكينة ، وترفع الفضلات المتبقية من عمل الأمس ، وزبيدة انشغلت بالداخل لتحضير الافطار اكل ياسر لقمة سريعة ، وارتدى قميصا خفيفا على بنطلون قديم ، ليتحمل غبار الطريق ، وخرج هو وحسين الى الشارع ، كان المقهى لا يزال مغلقا كذلك الدكاكين القليلة الموجودة بالشارع الجانبى ، وكان السكون شاملا الا من صياح بعض الأولاد الذين يمرقون فجأة عبر تقاطعات الشوارع ، والطاحونة كانت مغلقة ، وأبوابها العريقة وقفت في صمود تستقبل اشعة الشمس الطازجة . وخرجا الى الشارع الكبير المسفلت ، ولم يلتقيا بأحد ليلقيا عليه تحية الصبح حتى انحرفا عند « السنترال » ليسيرا بموازاة السكة الحديد ، فرأيا عن يسارهما زينات تقف مع بناتها في شرفة البيت ، يستروحن نسمة يوم الجمعة ، فصبحا عليها ، وعزمت عليهما بالشاي بحرارة وود ، واعتدرا لانهما - كما تعلم - ذاهبان قبل صعد الشمس لينهيا الموضوع ، ومرا على البناء الجديد الذى تحوطه سقالات الخشب من كل جانب ، وصعدا تلال الرمل والزلط الملقاة في الشارع والتي تمتد حتى شريط القطار ، وأشار حسين وهو يتصعب : مال حكومة بصحيح .

وقال لأخيه : بلدنا حتنوز خلاص ، هنا سيقام فرع للبنك الأهلى ، وفرع لصيدناوى .

وسأله ياسر : لكن البلد فيها فلوس تكفى كل فروع البنوك التى انشئت اخيرا ؟ .

وأجابه حسين : امال يا سيدى الناس مدروزة فلوس ، شفت المشتري بتاع امبارح دا كان بيشتغل عندنا بالأجرة .

وسارا فى صمت بعد أن فرد حسين الشمسية ، ودخل ياسر فى ظلها ، ينظر الى الرسوم المعلقة على مدرسة البنات والعبارات المكتوبة على واجهة مدرسة التجارة التى كانت يوما مدرسته الابتدائية ، هذه المدرسة الواسعة التى انشئت على آخر طراز ، فيها الحديقة الكبيرة ، وحجرة للإدارة مستقلة ، وصفان من الفصول على هيئة حدوة الحصان ومراحيض ومسجد فى زاوية بعيدة ، وحوش واسع به جميع أدوات الألعاب الرياضية ، استكثروا كل هذا على الأولاد الصغار فضموهم فى بيت كبير ، استأجرته الإدارة التعليمية ، وأطلقوا فى رحابة هذه المدرسة أولاد وبنات التجارة التى تروج حكاياتهم على السنة البلد جميعا .

ولمح ياسر الخال محمد يشرب كرسى الدخان مع عمال ماكينة المجارى الواقعة على رأس حقله ، فنادى عليه ، وترك الخال الجوزة ، وجاء بخلعته الدمور وصدره المفتوح ، وبقدميه العساريتين اللتين تدوسان ندى الأرض ، أقبل عليه ببشاشة فاردا له يده .
- على فين بدرى كده ؟

وقال حسين متجهما وهو يدور حول نفسه يريد أن يستمعجل اخاه ، فلا يقف للثرثرة مع الخال الذى لا ينتهى له كلام ، ومال ياسر على أذن خاله ليقول له : لا تزعل منى .. ما على الرسول إلا البلاغ .

- اللهم اجعله خيرا .

- يسرى يا سيدى يريد أرضه .

- أنا أشيلها على راسى وأوصلها لغاية داره .

- ربنا هو الرزاق .

- بس إنا الاحق على أرضى .

- بيقول انه حيزرعها بايده .

- هو حر .

- بينى وبينك عايز يبيعها ليشترى عربية .

- عربية تانى ، نسى العربية اللى قلبها فى ترمة الاسماعيلية .

وصاح حسين وهو ينفخ ، ويضرب الحصى برجله .

— يا لله يا عم .. أنت فاضى .
وصافح ياسر خاله ، وقال له مهدئا : أعدى عليك بالليل ..
لا تزعل .
وهتف الخال اليه ، وهو يعود الى مكانه : أبدا .. بس يدينى
حقى .

وغمغم بكلام كثير ، لم تتضح عباراته لياسر ثم بدأ صوته يعلو ،
وهو يحدث الرجال من حوله ، وعاد ياسر الى ظل الشمسية وبدأ
التراب يتناثر على قدميه ، وحول ذيل جلباب أخيه ، وسارا بتصميم
فى مواجهة الشمس التى برزت قوية فوق العبل المصفوف فى طريق
السيارات والذى تبدو أطرافه وراء شريط القطار الممتد الى البعيد .
وأوضح ياسر لأخيه أن يسرى كلمه فى حاجته لأرض الاصلاح
الزراعى المؤجرة للخال ، وهو قد وجد الفرصة ليتحدث مع خاله ،
وقال له : يبدو ان المسكين سيتأثر بالسئلة دى جدا .
ورفع حسين يده ليمسح العرق الذى نضح على جبينه : ويسرى
حيعمل ايه بالارض ؟

— لما سمع بموضوعنا عاوز يبيع كل حاجة ويشترى عربية .
— لما ربنا يسهلها وأبيع نصيبى من ميراث الارض الملك اشترى
منه فى الطاحونة .
— بالك حسن ممكن يتجنن بعد ما كان طامع يلم كل حاجة أبيه
يطلع من المولد بلا حمص .

وبدا حسين يحكى لأخيه عن ذلك الطمع القديم فى نفس حسن
وذلك الجشع الذى يسرى فى دمه ، من أيام العائلة وأن السبب ميل
أمه اليه ، من يوم تزوج هو الغريبة ، بينما ضم حسن اليه ابنة
أختها ، القروية التى تعرف أصول التودد الى الأمهات العجائز .
وحكى له أن الأب أيضا كان يميل اليه ، ويفضله عليه ، وظهر
ذلك من يوم أن أسلم له أذنه ، مما كان يدفع الاب للغضب على حسين
ويتهمه بالسرقه ، وحسين كان يراه بأمر عينه ، وهو يرفع أجولة
القمح ، وزكائب الذرة عيني عينك لبيعها للتاجر ، ولا يقدر أن يفتن
عليه ، بينما الآخر كان اذا رآه يقطع بعض كيزان الذرة ليشويها مع
« المربعين » يهرع الى الاب ليقول له ان حسين عمل ، وعمل ، وعمل ..
وأنهما حين أرادا الانفصال والعيش فى حياة مستقلة عن الاب ،
فاز هو بكل شئ ، بل لقد عاركة من أجل صينية العشاء ، وانحاز
الاب اليه ، بل ميزه ، فأعطاه البقرة بعجلها ، ولم يعط حسين غير

البقرة العجوز العجفاء التى لا يدرى ضرعها اللبن ورضى بقسمته ونصيبه ،
وأنه حين احتاج للمال فى حواز ابنته البكر ، وطلب من أبيه المساعدة ،
تدخل حسن وقال : وهل سيعيش لنا أبونا ليحوز أولادنا ؟ . وعرض
أن يشتري نصيبه من دار العائلة ، ووافق على ذلك ، فخرج حسين
ليسكن فى دار زوجته الموروثة عن أبيها ، واستحوذ على القطعتين
معا . وأنهى حسين كلامه بتنهيدة قائلا : يووووه .. احكى ايه
والا ايه ؟ . خليه يشبع .

وكانا قد استقبلا دور عزبة « شديد » ووصلت اليهما رائحة
الخبز المحمص مع الدخان المتصاعد من طاقات الدور ، وكانت الكلاب
قد لمحتهما من بعيد ، فأطلقت النباح عاليا ، ولما اقتربا من الدور
خرجت الكلاب عليهما ، وحين تشممت حباب حسين هذا نباحها ،
وعادت الى الظلال التى ترقد تحتها فى سكونة .

امام الارض :

وقف ياسر وحيدا يتأمل المكان ..
هذا هو سور الجامع الذى حاول أبوه أن يقيمه قبل وفاته ، طوب
أحمر ، تشقق أسمنته فى أكثر من زاوية هاهنا وتذكر كلام أبيه
« سيكون المحراب ، وسأكلف نجارا من البلد ليصنع منبرا من
الخشب ، ويزخرفه بنقوش جميلة ، سيكون صغيرا جدا حقا ، ولكنه
يتسع لرجل يقف عليه ، ويرفعه الى أعلى فيظهر واضحا للمصلين ،
وهنا ثلاث نوافذ قبلية ، ومن هنا سنفتح بابا صغيرا يؤدي الى الميضة
التي سأجلب لها عشرة صنادير ، لن أترك الناس يتوضأون بماء التربة ،
كما تفعل العزب الأخرى ، سأنشئ صهريجا من الصاج ، وطمبة ،
يتولى أحد رجالنا ضخ الماء فى المواسير ، وسأقيم هنا ثلاثة مراحيض ،
أخشى من أن رجال العزبة « المناجيس » لا يستفيدون من الجامع إلا
بقضاء الطبيعة ، سيجعلونه اذا تركته مفتوحا على « البهلى » مرتعا ،
لأنهم سيهجون من قذارة بيوتهم المظلمة ، ليطمطعوا فى نظافة الجامع
الذى سأفترشه بحصر كبيرة . »

ولم يكتمل البناء ، جاء الى الأب من قال له : من يكمل مسجدا
يقضى نحبه .

ودومت الفكرة فى عقل الأب ، ثم قصرت يده فى أواخر أيامه ،

فأهمله ، وتركه على هذا الحال ، واقنع نفسه في النهاية : عليهم أن يكملوه ، أنا جهدي لهذا لأحد ، وعليهم بالباقي .

وتحرك ياسر ليلمس جذع الكافورة العجوزة ، تقشر لحاؤها ، وبان لحمها من الداخل جافا ومكرمشا ، والكثير من فروعها جف ، ونزع منه الورق ، وبعضها مدد على الأرض ، ودقت به المسامير الحدادي الغليظة ، لتربط بها الماشية .

كم من الساعات الطوال قضاها تحت ظل شبابها الوارف ، كان يلذ له في السنتين اللتين قضاها هنا الصعود الى السطح لينام تحت أغصانها الخضراء الممتدة ، يتمدد على الحطب ، وتستتره الشجرة بأوراقها التي ترمى عليه ظلة دسمة ، فكانت تجعل من هذه البقعة بالذات فردوسا حقيقيا ، في عز الهجرة تكون الأرض هناك حارة ، تنفث بخارها في وجه السماء ، بينما النسمة هنا تتحنجل حوليه بخفة وطرب .

ما أصاب الشجرة انتقلت عدواه الى الدار القديمة ، هل تشعر الأشياء بأصحابها ؟ سقطت الدهاكة ، وبانت الأحجار الطينية ، وكثير من جحور الفئران ، ورغم أن قفلا أسود كبيرا أغلق على الرذة الصدئة بين ضلعتي الباب إلا أن الدار بحالها ، لا تستر شيئا البتة ، السقف مخلوع من أعلى ، والأبواب ضعيفة هشة ، أهلكتها الشمس التي تدور حولها من الصبح حتى آخر النهار .

هذا هو باب حجرة الجلوس التي جعلت يوما حجرة خاصة به ، ينكفئ على « الترابيزة » الكبيرة بعد أن تشعل له أمه لمبتين نمرّة عشرة ، ويقعد من العشاء حتى نقطة الفجر ، ثم يلمه غطاء السرير الصغير الذي وضع تحت النافذة المطلة على جسر التربة ، وحين يله الضيوف الكبار بالدار ، ترفع الترابيزة ، وتفك ألواح السرير ، ويركن في الردهة .

وهاهي الآن قد جعلت مخزنا للتبن ، وماوى للفار والثعبان والحشرة الغامضة . وهناك في الحجرة الأخرى التي جعلت مقرا لزوجة الأب ، ما زال السلك الذي يحمي من البعوض متشبثا بآخر خيوطه في المسامير الصدئة

وانتقل بسيره البطيء ، يلف حول المكان ، كمن يتلذذ بالمه ، ويجرح القلب بالذكرى الحميمية ، مؤملا ألا تكون هناك عين من العزبة ترقبه ، فتضحك في عيبها متشفية ، وهو يود ألا يلتقي بأحد من أولاد هذا الرجل الذي كان يقود أهل العزبة في النزاع مع الأب على

أرض الباشا ، سيلحظ الأسى فى عينيه ، وقد يقول له مجاملا ، كما قالها يوم جاء مع اخوته لجمع المتأخر، من ايجار الارض عقب وفاة الاب بيومين : لا شىء يدوم... جمعوا هذا الطين أبى وأبوك لكن ماذا اخذوا معهم فى دار الحق ؟ لا شىء .. لا شىء .

هذه هى « زريبة » الغنم ، هكذا سماها الأب لانه كان يحلم بامتلاك مرايح كبير ، يدعه لأحد رجاله يتولى شئونه ، ولكن غنماته بعسد سرحة كل يوم ، هنا كانت واقعة ابنته عزيزة مع حسان رآهما من الشباك الصغير بحجرة الفرن ، وسمع لهماها بين ذراعيه ، وصوتها الخائف : بلاش هنا .. بلاش هنا .

واخوه الذى كلبشته الرغبة ، استمات فى احتضانها ، وفى جرحها اليه ، الى الركن وهنا .. وهنا .. قضى حسان وزبيدة ليلتهما حين عادا من البلد ليلا ، ورفض الأب أن يفتح لهما الباب صائحا فى وجهيهما : اذهبا .. الى حيث تعيش أمكما . وكانت الام فى غضبة طالت أيامها ، تركت دار الأب مع زوجه وعادت هى الى دار أبيها . وهنا الحوش الصغير ، وسمع صوت أبيه يوم جلب أولاد العائلة جميعا ، ليساعدوا فى رفع الطوب للبنائين فوق السقالات « ساربنى النحل فى خلايا بالقرب من الزرع ينطلق اليه يأكل ربيعه ، ونجمع عسله فى السنة مرتين ، نأكل منه ، ونوزع على الأهل ، ونربيع بالباقي فلوسا حلالا » .

ووصل أخيرا الى الشجرة الصغيرة التى غرسها أبوه فى سنواته الاخيرة ، بعد أن صار المكوث فى الدار جحيما ، لا يطيقه بشر ، لأنها هجرت من زمن بعيد ، فعاشت فيها البراغيث فسادا « وصار الواحد منها بحجم الكف » هكذا كان يقول الأب « فلا أفضل من فرشاة نظيفة تحت توتة ، أعلق عليها شربة مائى ، على رأس الغيط . »

وجلس ياسر لينظر الى مساحة الارض الممتدة أمامه ، وجعل من كفه مظلة ، فارتاحت العين ، ووضحت رؤيتها ، فرأى حد الارض فى غبشة العبل المنتصب هناك عند حدود أرض الاصلاح الزراعى . كم مرة انحنى فوق هذه الارض ، يكبش الكيماوى ويلم غلة الرز ، ويبحث عن الدودة فى خطوط القطن .

كم مرة دخل بين عيدان الدرة ليجمع ورقا للماشية ؟ .
وكم مرة سهر فى الخصى ليحرس زرعة الطماطم والخيار و ..
و .. و .. وأحس الأرض وقد تجمعت على نفسها ، وانكششت حتى صارت جسدا أليفا ، يقمى بين ساقيه ، يتمسح به ، ويقترب

في تلمس حان ، وشعر وكأنه يشم ريحها ، ويتسمع لانفاسها ، وهي تضمه اليه : اهلا بالغالى ابن الغالى .. ها أنت ذا تعود الى .. الألعلم انى اشتاق اليك .. لقد رفعتك صغيرا لنا بين يدي هاتين .. فلا تتخل عني ..

وشعر بالدمع ينساب على خديه ، فرفع يده ليمسحه ، ومرة اخرى راى الارض بساطا اخضر ، ولكن شيئا ما يربطها بقلبه ، كاحساسه بالبلد حين يمشى في شوارعها ، كاحساسه بأخته زبيدة تحوم حوله ، وتقضى له أغراضه في صمت ، كشعوره بحضن أمه حين كان يرتدى عليها ، فيشعر باتساعه وعمقه ، وكشعوره بقامة أبيه ، وسيره وسط الرجال فارها ، وبهيا ، بجلبابه الفخيم ، وعمامته الوضيئة، فيستمد من وجوده الراحة والأمان ، كشعوره ب... وسمع صوت حسين فاستفاق مرة واحدة ، وغاضت احاسيسه ليرى حسين بينيته الصلبة فوق مدار الساقية ، والى جواره رجل يتلفع بشملة خشنة ، ويلم جلبابه الاسود هيكلا خشبيا جافا ، فألقى نظرة أخيرة الى الأرض ، وتسلق المدار ليمد يده ويصافح اليد الصفراء الباهتة ، وما كانت هذه اليد الا يد « ابراهيم الفار » شيخ العزبة .

الجامع :

دور العزبة تقع ما بين الفدان المزروع بأشجار الجوافة والليمون وجسر ترعة « المورية » تصطف هذه الدور القليلة في قطاعات عرضية ، تبدأ بمساحة مستطيلة فارغة يستغلها أهلها في قعدة اول الليل ، وفي ركن أدواتهم ، كالمحاريث والنوارج والطنابير ، ثم باب كبير بضلفة واحدة ، لا يفلق أبدا الا على زمهريرة الشتاء القاطع ، ثم ظلمة ابدية لا يظهر فيها شيء غير حزمة من ضوء الشمس ، تسقط على فرن ، أو على منخل معلق على الحائط ، أو على قاعدة الزير الاسمنتية .

ودار ابراهيم الفار واحدة من هذه الدور ، غير أنها تتميز عنها ، بهذا الصندوق الخشبي الصغير ، المدقوق على الجدار عند المدخل ، وهو « البريد » الذى يسقط فيه أهل العزبة رسائلهم النادرة لبعض الأولاد الذين رحلوا الى العراق وبلاد الخليج في الايام الأخيرة ، يأتى البوسطجى من البلد في الأسبوع مرة ليفتح الصندوق ، ويدس في جعبته ما تجمع فيه ، ثم يجلس على الحصر المفروش دائما أمام الباب راكنا دراجته بالقرب من خلايا النحل البلدية المصفوفة أسفل

الصندوق ، حتى تاتي اليه زوجة شيخ العزبة بكوب الشاي الساخن ،
وقد يلقاه زوجها على الجسر ، في أول العزبة ليقول له : لا تتعب
نفسك ما حدث رمى جواباب .

وقبل أن يتجه ياسر بصحبة أخيه الى دار « الفار » نزلوا عن
المدار ، واتجهوا الى الدار حيث وقفوا عند الباب القديم لحجرة
الجلوس ، وكان حسين قد تسلق ذكر التوت ، ونتش منه فرعاً طويلاً
مستوياً ، نزع الورقات الخضراء وجعل من الفرع « بوصة » انحنى
بها تحت الدار المهدومة من أول الجسر حتى الكتف الذي يفصل حجرة
الجلوس عن الردهة ، ثم قام بوجهه المزروود ليقول للفار : كده يكون
عرض الجامع .

واتجه ليقيس بالبوصة عرض الدار ، من أول المدخل حتى
الحجرة الوسطانية المدفوس في طاقاتها كرات القش والخيش ، ثم قام
مرة أخرى ليقول للفار : وكدا الطول .. معقول ؟ .
وردد الفار وراءه : معقول .. كتر ألف خيركم .
وهمس حسين في أذن أخيه الصغير : شفت الرجل مبسوط
ازاي .

وعلق ياسر بصوت عال : لازم نحقق حلم أبينا ، ولو كان هذا
السور الذي ابتداه يصلح للاكتمال لكنا اتمنا بناءه .

ورد حسين مدعماً كلام أخيه : هنا واجهة الجامع تكون أفضل .
ولم ينس ياسر أن يؤكد على الرجل بأن يلصق رخامة تشير الى
اسم أبيه مؤسس المسجد ، بعد انتهاء البناء .

دعاهما الفار ليشربا الشاي في داره ، فانحرفوا جهة المدار ،
ثم انحدروا من الجسر لتطرق أنفهم رائحة تختلط فيها روائح النوم
والسباح واللبن المتخثر ، هي رائحة دار الفار .

ووجدوا الحصر مفروشا على الأرض المكنوسة ، ونادى الفار على
أهل بيته ليخرجوا مساند الكنب النظيفة ، وليصنعوا الشاي للضيوف
الأعزاء ، وخرجت ابنته ترفع المساند على رأسها ، وجعلتها ما بين
الجدار الطيني - الذي ينهال ترابه من اللسة الخفيفة - وظهر
ياسر وأخوه الحريص على جلبابه النظيف من التراب .

وجر الفار « المنقد » المكون على جنب ، وبدأ يشعل نارا في
الجمرات الخامدة وأخرج من كيسه القماشى صندوق معسل ،
وبدأ يملأ الحجر منه ، وينفخ في النار فتصهلل من جديد ، ثم التفت
الى الأخوين ليقول : « كده أبوكم ارتاح في تربته » .

وقال حسين كانت امثية عمره أن يبني الجامع ويوصل اليه للعزبة
.. الله يجازيهم وقفوا في وجهه ، فعاندت الحكومة ، واكتفت بحنفية
عند ملتقى الكفر بالعزبة .

وقال المفار : الله يرحمه كان شهما ، علمنى درسا لا انساه فى
حياتى ، لما التقينا كخصمين فى جلسات المحاكم ، قال لى بص
يا ابراهيم وتأمل المحامين ، تراهم شديدى الخصومة امام القاضى ،
وحين ينهون من المرافعة يذهبون معا ليجلسوا فى مكتب المحامين
كأصدقاء ، علينا أن نكون مثلهم ، فى الحياة أصحاب ، وفى الجلسات
يقدم كل منا أقصى ما عنده ضد الآخر ، وأمن حسين على كلامه :
كان عاقلا وحكيما .

وقال انصار : عاندنا معه فى البداية عنادا شديدا ، بعد أن قامت
الثورة ، وحددت ملكيات الباشا ، قلنا تخلصنا من الاقطاع ، ثم حين
أراد الباشا أن يلحق نفسه ، ويبيع هذه القطعة قبل أن تصدرها
الحكومة ، وعرضها بثمن رخيص ، لا يذكر ، قلنا هذه فرصتنا لنصير
ملانكا ، وأصحاب طين ، فجمعنا الفلوس القليلة المخزونة فى شقوق
الدور ، وبعنا حلى النسوان ، وجرجرنا مواشينا الى الأسواق ،
وتقدمنا الى وكلاء الباشا ، فعرفنا بأن الحاج قد سبقنا ، فاشتري
دور العزبة بالأرض الملحقة بها ، بحق شفعة الأرض التى كان قد
اشتراها فى فترة سابقة ، ووقع النزاع ، فصرنا نحشد له ، ويحشد
لنا .. أتذكر يا حسين يوم أن عبأ أبوك عربة نقل من رجال البلد ،
يرفعون السلاح ؟ وزعمهم حول داركم ، فلبدنا لهم فى دورنا ، وأطلقنا
الرصاصات الطائشة .

وقال حسين : كيف أنسى ؟ يومها اتلم على أولادكم ، وجردونى
من هدومي ، وأرسلونى الى أبى عاريا تماما ، واستقبلنى بصفعة لم
أزل أسمع صفيها فى أذنى .

وجاءت زوجة الرجل من داخل الدار ، ترفع الصينية عليها
البراد الأزرق الذى يحوطه السواد من القعر الى « البزبوز » ، رحبت
بالضيفين ، ولت شاشها على وجهها ، وقعدت الى جوار زوجها ،
تجمع أطراف الثوب الممزق ، وتنظر بعين واحدة جهة حسين لتسأل
عن الجماعة ، والبنات عاملين ايه ؟ بخير ؟ والنبي السلام أمانة .

وذكرت الحاجة بالخير ، وأيامها الطيبة معها ، وقالت : ان اليوم
الذى يمر لا يأتى مثيله أبدا ، وذكرت الحاج بالطيب .

وقالت ان زمن الرجال الحقيقيين قد ولى .

وقام حسين واخوه مستاذنين من الرجل ، وقال حسين : الارض
تعتبر تبرعنا نحن كورثة جميعا ، وعليكم بالباقي ، لا دخل لنا
لا بالطوب ولا بالأسمنت او خلافه .
وقال الرجل بأدب جم : « كتر الف خيركم . »
واكد عليه ياسر : ان جاءك أحدهم لا تسمع لتهديده .
وفي الطريق مال حسين على أذن أخيه قائلاً بابتهاج : كذا ضمنا
رجال العزبة في صفنا ، وليخبط رأسه في الحيط .

عطش الصبار :

بنات الحاج ارتدين جلابيبن السوداء ، والتقين في الدار الكبيرة ،
وسرون في ظلال الدور الخلفية ، تفوح منهن رائحة خفية لعطر رخيص ،
وامام مبنى المحكمة ، قطعن قضبي سكة الحديد اللامعين ، وطرقت
تحت نعالهن زلطات صلبة ، ودافئة .
واستقمن فوق أسفلت الطريق الجديد حتى انحرفن مع الانحناء
المفاجئة للترعة التي تترك البلد عند مدخلها ، وتلف حولها من بعيد ،
واستقبلن الشواهد الرابضة تحت شعاع الشمس الراحلة ، ورأين
الجلاليب السوداء تشفى في الشوارع الضيقة وعلى التلال الصغيرة
بينها .

في الشارع الترايبى الموازي للمصرف ، رأين العربية « المرسيدس »
ترقد تحت جذع الجميزة المعجوز ، والأرض مرشوشة بماء خفيف ،
من أول الجبانة الى السبيل الذي دهن بجير أبيض ، وجدد مأؤه ،
وأعيد له الحياة ، بعد أن أزيحت عنه الحشرات التي جعلت من عيونه
مرقدا .

وانزوت البنات بعيدا حتى حافة المصرف الرخوة ، ليتفادين
حلقة النسوة القاعدات على كراسي « بيلاج » مخططة ، وتتوسطهن
الحاجة الكبيرة ، تبرق أساورها الذهبية في شعاع الشمس الأخير ،
وكان السن الذهبي يلمع في ظلمة فمها وهي تتحدث لمن حولها ، وظهرها
الى الرخامة الكبيرة ، المكتوب عليها بخط كوفي جميل اسم ولدها الذي
رحل منذ عام .

زغلل بريق السن والأساور عين البنات ، وتنشقت أنوفهن روائح
العطر التي سبحت في فضاء المقبرة .

قالت الكبيرة وهى تلم طرحتها حول عنقها : المقابر للموعظه
لا « للفشخرة . »

وردت أختها : تذكرى أصلهم .. الفلوس تعمى .
يسرن يجمعن ذبول الجلابيب ، ويتوارين بين الشواهد ، يكتمن
ما احتاج فى قلوبهن ، ويتفادين النظر الى الورااء ، رغم حاجتهن الشديدة
لذلك .

وقفن ضارعات بأكفهن ليهمسن بالفاتحة امام مقبره « الحاج »
وتنبهن بأن مقبرة الاب المهملة ، تنتشر عليها شروخ كبيرة تتسع للفأر
وليد الرجل تمتد الى ظلمتها ، ورأين دهان الزيت الأخضر الكثيف
قد سقطت قشرته ، وبانت الحجارة القديمة ، وانتبهن الى البلاطة
المكتوب عليها اسمه بخط ساذج تكاد تنزلق من اطارها المشقق ،
فرحن يزحن براحتهن الورق الجاف المتراكم فوق المصطبة ، ويكنسن
بأقدامهن وبالفصن الناشف الورق المتناثر امام العين . واخترت مكانا
بين السور القصير ، وحاذرن الا بضغطن عليه بظهورهن .
وقالت واحدة : لم يهتم واحد من الأولاد بتجديد « تربة » أبيه .
فردت الأخرى : لحسن الميراث عقولهم .

وقالت الكبيرة : أكثر من مرة اقول لهم فليساهم كل واحد منا
بجزء من نصيبه لنرمم مقبرة « الحاج » .

ومصمصن بجانب أفواههن ، ثم قعدن فى سكون ، رءوسهن على
أيديهن ، وعيونهن ترنو للحشرة الزاحفة على بطنها بالقرب من الفتحة .
وطلعت عليهن أم قاعود بهيكلها الناحل ، تستره خرق ممزعه من
جلباب أسود كالح ، جعلت عقدته الكبيرة على ناحية ، فبانت سيقانها
الجافة ، وكانت بمجملها بهيئة جثة خرجت - على غفلة - من إحدى
الفوهات المغفورة التى لا نهاية لظلامها .

أقبلت ترفع صفيحتها المطبقة من كل الجوانب ، رفعت شاشها
الساقط على كتفها ، ونشرته على فرع الشجرة القصيرة المائلة على
مقبرة « الحاج » واتجهت اليهن فاتحة ثفرها المظلم : أهلا بالغالين .
وانحنى على رأس المصطبة قبلها : أبوى الحاج انا لا أهمله
أبدا .

وسحبت الكنسة من تحت الابط ، وبدأت تكنس فوق المصطبة ،
ونزلت الى الارض ، تلملم الورق المتبقى ، وتنظف حوض الصبارة
الوحيدة بالقرب من العين المسدودة بالحجارة والطين .
وسمعت البنات حديثها الى نفسها وهى على انحنائها : وهل

نعوض أمثال هؤلاء الرجال ، انقضى زمنهم والأجر على الله ، لم تعد العين تقع على رجل حقيقى يقشعر الجسد لمنظره .
وحركت البنت الصغيرة يدها الى صدرها لتجر الصرة ، وسحبت منها عشرة قروش فضية ، جعلتها فى كفها حتى تنتهى المرأة من عملها .

وعادت أم قاعود بالصفحة ملآنة على آخرها بماء القناة القريبة ، وأمالتها على حوض الصبارة ليسيل ماؤها دون أن يخلخل الجذر الهش ، وأدارت الى البنات وجهها العرقان لتقول : وهل أنساه ؟! أيام كنت أذهب اليه بكيسى فى جرن القمح ، وينادى على . . تعالى يا نفيسة تعالى ، ويملؤه على أبيه .

وأشرقت وجوه البنات ، وبدأن يرفعن الطرح عن وجوههن ، وينصتن الى كلام المرأة التى قعدت قبالتهن على المصطبة المجاورة ، ومدت الوسطى يدها الى صدرها ، لتخرج ورقة لم تنظر اليها ، وأخفتها تحت فخذها : تصدقوا بالله . . أنا لم أخبر أحدا بهذا قبل اليوم ، كان المرحوم - ربنا يجعله فى نعيمه ويوفق له أولاده - يمر على كل رمضان ، فى هدوة الليل ، ويقف جنب شباكى ، ويترك حديدته بعكازه ، فأبص بين القضبان استطلع الطارق ، فاذا يده المبروكة مطوية على « اللى فيه النصيب » ويخفى وجهه فى العباءة عنى ، ثم يدخل فى ظلمة الحارة ، حتى لا أعرفه ، ولكن كيف أتوه عن وجهه ؟ اليوم يصفوننا فى طوابير أمام دكاكينهم ليرانا « اللى يسوى واللى ما يسواش » لنكون فرجة للبلد ، وتصير فضيحتنا بجلاجل ، انهم لا يريدون وجهه ، عيونهم على العبد .

وتضيق حلقة البنات ، ويمسكن أطراف الطرح ليروحن بها على وجوههن التى وردها الاضطراب ، وتفرد الكبيرة صرتها فى حجرها ، وتختار ورقة من لفة الفلوس وتطويها فى يدها .

وتواصل المرأة حديثها : كنت - ألف رحمة ونور على روحك يا بركة - أذهب اليه فى الطاحونة بكيلة الحب ، وبصرة الحلبة ، فلا يقبل أن أرفعها على الميزان أبدا ويدفعنى فى ظهري ، ويقول ، أدخلى يا نفيسة أدخلى . ويشير الى الرجل القاعد امام القادوس ، ويأمره « شف اللى عاوزاه وأنا أجيب لك النمرة . »

وسمعت من يناديها عند شجرة الكافور العالية ، فهرعت الى طرحتها لتلقيها على عجل فوق كتفها ، وسحبت الصفحة التى أفرغت ماءها ، وأعادت ضبط الكنسة تحت الابط .

واستأذنت من البنات ، فقمنا جميعا مرة واحدة ، يلقين قروشهن
اليدين المرفوعة وهي تتلوى وسطهن ، تبحث عن مخرج ، وسط الحلقة
الحكمة : خيركم سابق .. يا حبايبي .. خيركم سابق .
والبنات ضغطن عليها ، وأجبرن أصابعها لتقبض على القروش .
وصحن وراءها : لما تشوفى أحدا من الشيوخ ابعتيه .
ورت عليهن ، وهي تقفز كعنزة ضامرة فوق المصاطب : حاضر ..
من عيني

وقالت لها الكبيرة : لما تعوزى حاجة عدى علينا .
وسمعن « كتر خيركم » من بعيد ، وهي مشغولة بتنظيف المصطبة
التي مال عليها ظل الكافورة الممدود .
ووقفن يترقبن مرور المقرئين ، متحركات من اغشية الزاس ،
وتجران على فتح صدورهن ليستقبلن هبات النسيم الذي انطلق
من مكانه .

بعد أن زالت حرارة الشمس ، وانسحبت الى أطراف السماء
اللامسة لجريد النخيل البعيد ، نظرن الى مدخل الجبانة فلم يرون
الا السواد يشفى بين المصاطب والأسوار التي مدت ظلها .
وقامت الصغرى الى الشجرة القصيرة ، وقصفت منها غصنا
أخضر والفته بحنو فوق مصطبة الأب .

استيقظ ياسر من نومه على صوت أخواته بالصلاة ، فقام الى النافذة ، ودفع شيشها الى الوراء ، وفوجيء بالظلمة التي انسحبت من تفريعات الشوارع ، وحطت في حوش الحمير ، فحجزت حجرة الميزان ، والحوائط القديمة للطاحونة ، وباب « العدة » ، وفوجيء بأن مصابيح النور بدأت تبزغ على امتداد الشارع ، وتوزع بقعا من الضوء الاصفر حولها ، فقال لنفسه : ياه ..

وخرج الى الصلاة يرفع ذراعيه الى أعلى ويخفضهما الى أسفل ، ويلوى قامته ليا شديدا حتى سمع طرقعات الجذع ، واحس بانفراد عضلاته ، فشقق لمة الاخوات الموزعات على الكراسي ، واتجه الى الحنفية لينعش وجهه بالماء ، وتردد قائلا لنفسه : آخذ « دش » .

وسمعهن يتحدثن عن الحاجة أنيسة التي راينها - في عودتهن من الجبانة - عند موقف السيارات عائدة من زيارة حسن ، وقلن انها انحرفت بوجهها بعيدا ، وهي جالسة في الكرسي الامامي لسيارة الأجرة ، وحسن ينحنى عليها بحادثتها في اذنها ، واندھشن من هذه الزيارة ، وعبرت زينب عن شكوكها : يا ترى بيدبرونا ايه ؟ .

وقالت زينات : يعنى ما تحضرش سنوية أبيها ، ولا تنكسف من نزول البلد بعدها بيوم .

وقالت زبيدة : على يدك .. ابوها كان ييموت ولم تزره ، وحضرت العزاء على سبيل الواجب .

وتحدث اليهن ياسر مطمئنا : وماذا يمكن ان تفعل هي او حسن ؟ وحكى لهن عن زيارته للعزبة مع حسين ، وكيف أنهما حسما موضوع الجامع وحددا المساحة المطلوبة ، وكيف هلل لذلك شيخ العزبة ، فلن يكون بمقدور أى منهما المطالبة بواجهة الأرض ، وانهم ضمنوا اهل العزبة عند اللزوم ، وسعدت البنات لهذه الأنباء .

وتركهن ياسر ليدخل الحمام ، وبين رشاش الماء ، كان يسمع اصواتهن الغاضبة تسب هذه الأخت الجحود ، والاخ الطامع الذي لا يكف عن تحريك جمرات الشر كلما خمدت .

وبعد أن ارتدى ملابسه النظيفة ، خرج الى المقهى المواجه للدار ، فاختار كرسيًا فوق الرصيف المرتفع ، وركن عليه كوعه ، مسلماً وجهه للهواء الذى يركض من شارع القرن الضيق الى فضاء الشارع الواسع .

وبعد فترة قال لنفسه : ابن المأذون لم يأت بعد ، اشرب كرسي الدخان مع الخال ، وأعود اليه .

وفي الطريق تذكر أيام الجد ، قبل أن يضموا له الكنبتين ، تحت النافذة المفتوحة على الشارع وقبل أن يرفعوه من حصر الأرض الذى يوجع العظام العجوز ، ويحيطوا جذعه بالمساند ، كان يشترى « باكو » المعسل كل ليلة ، ويدخل عليه ، وكان الجد يحفظ مواعيده ، فحين يدخل يلتفت اليه - وهو لا يراه - ويهتف باسمه كطفل ، وتكون الخالة مفترشة الأرض تحت قدميه ، تزود شعلة المصباح المعلق على الجدار ، وتهم بسحب الموقد من تحت الكنب ومعه الصينية عليها عدة الشاي ، « تدلق » الجاز على القوالح ، وتشعل نارا صغيرة تسوى بها الشاي ، وتدفن الباقي تحت الرماد ، لتستخدم جذواته فى رص الجوزة التى يقوم ياسر بتغيير مائها من الصنبور القريب من الباب الكبير ، ويمس على الخال الذى يكون قد عاد من حقله ، وشطف وجهه ، وارتدى الجلباب النظيف خارجا الى المقهى على اول الشارع ، فهو لا يجرؤ أبدا على شرب الدخان أمام أبيه .

انحرف الى الدكان الموجود على الناصية ، ووجد صاحب الدكان على الكرسي ، فوق الرصيف ، لما رآه ، وقف ليسلم عليه ، ثم دخل من تلقاء نفسه ، ومد يده الى الرف ، وسحب ورقة الدخان ، أخذها ياسر وسأله : كيف الاحوال ؟ قال : نحمده .

قال فى نفسه : ضمنا « درج » واحد ، ها قد ترك تعليمه ، بعد أن مات أبوه ، ليفتح الدكان ، ولو جلست معه الليلة سيحدثنى عن أحلامه التى لم تتحقق ، وسيلغى الزمن والبلد الضيق الذى لا تروج فيه تجارة .

تركه لينزل الى الشارع ، رأى النور يخرج من المضيئة عرف أنهم يكملون العزاء لميت من الحي ، فأقرباء المتوفى يصطفون عند المدخل ، ونحنحات الشيخ تهيب الميكرفون للتلاوة قال فى نفسه : لن أمر عليهم .

دخل الشارع الصغير ، عن يمينه ، وكانت النسوة على عتبات

الدور يتبادلن الحديث تجاهلهن وسار في طريقه المظلمة ، ثم تجاهل أصحاب المآتم المصطفين في مستطيل النور دفع باب الدار المواجهة للمضيقة ، عبر بقعة الماء بالقرب من حوض الحنفية ، ونادى بصوت مرتفع ، وكان قد سمع الاصوات تأتي من حجرة الخال ، والدخان كان خارجا من أعلى الباب الى فضاء ما بين الحجرتين المبنيتين بالطوب الاحمر والزربية المبنية بالطوب النى .
برزت رأس البنت الصغيرة من فتحة الباب ، وصاحت : الاستاذ ياسر .

وسمع صوت خاله يقول : أهلا وسهلا .
عند عتبة الباب رآه وزوجه يقفان بانتظاره ، والغريب الجالس معهما على الحصر ، ركن الجوزة ، ووقف يتسم له : أهلا .. أهلا .

ولمح خالته جالسة في حجرتها وحيدة فوق الكنبتين المضمومتين ، اسفل النافذة التي يتسرب منها صوت المقرئ .
قال لهم : اسلم على خالتي . قال الخال : واجب .
عبر العتبة العالية ، ومد يده اليها : ازيك يا خالة .
رفعت يدها من تحت الفطاء الملموم على خصرها : نحمده .
سألها : مالك ؟ قالت : أبدا .

كانوا يقفون فوق الحصر بانتظاره ، قبل ان يسلم عليهم شم رائحة طبيخ مختلطة برائحة المعسل ، قال الغريب : يا مرحبا .
ولم يستطع ان يمد يده الى اولاد الخال الراقدين على السرير يطالعون كتبهم ، فأشار اليهم بيده من بعيد ، فردوا على تحيته بحياء .

وقال الخال : تفضل . ومسح بكفه المشمع المنشور على الكنبه ، فقعده على الطرف .

قال الخال : اقلع الجزمة وربع .. قال : خلىنى فى الهوا .
قالت زوجة الخال : « السقسيقة » عدت على دارنا عرفت انك حتزورنا الليلة . حين سقط الشال عن وجه الغريب ، تأمل ملامحه ، قال فى نفسه : لقد صار رجلا ، له شارب ، ويلبس الجلباب النظيف . هو ابن ذلك الرجل الذى أمسك لنا العصا ، وقادنا فى خطوط القطن ، نجمع الدودة ، كان أبوه يحبني ، ويقربني ، ويقربني اليه ، يجعلني أقف وراء ظهور الاولاد المحنية لاشرف عليهم ، وكان يأخذني - آخر كل شهر - الى داره ، يضع أمامي « الطبلية »

الصغيرة ، عليها لمبة الجاز ، ويجمع الاولاد بالردهة وينادى عليهم
اسما اسما ، وانظر انا الى الدفتر ، وأعمل علامة « صح » أمام
الاسم ، وأعد له القروش المكتوبة بخانة الاجر . »
ابتسم الغريب بخجل ، وقال : اظن ما تخدش بالك منى
يا استاذ ؟ .

قال : انت « العربى » .
بدت السعادة على وجهه ، وقال : الله ينور عليك .
طلب الخال أن يواصل الرص ، فسأل العربى : والاستاذ له فى
المعسل ؟ .

قال : طبعا . وأخرج ورقة الدخان من جيبه ، وألقاها فى حجر
الخال ، فانتفض الخال فجأة : الدخان كثير . قال العربى : أرض
لك كرسى « قص » ؟

قال : ادخن « باكو » قال العربى : جوزة خالك عيلة .. أجيب
لك جوزتى .

قال : لسه حتروح ؟
— بانط من الحيطه على دارنا .

ضحك الخال : زى الجن .

ركن العربى الجوزة على الدولاب ، وقبض على ذيل جلبابه
بأسنانه ، ونزل من المرتفع الذى تقام عليه الحجرتان ، أخرج رأسه
ليتابعه ، فاستراح للنسمة الخفيفة التى لامست وجهه ، رآه يتسلق
ظهر الفرن ، ليخرج من العشة الى حائط داره المجاورة ، لمع الخالة
على وضعها بين الفطاء سائدة رأسها على كفها ، وزوجة الخال سحبت
الوابور من تحت الدولاب ، وراحت تكبسه ، فخرج خيط رفيع من
الجاز ، بلل رأس الوابور ، ثم حكّت عود ثقاب فى جانب العلبة ،
وألقته فوق الرأس المبلل ، وأعطت البراد للبنت الصغيرة لتملأه ،
والخال سحب القوالج من تحت الكنبه ، وكدسها فوق الوابور فازداد
وهج النار ، وفكر فى الخالة التى كانت — بعد وفاة الجد — تتلف
لرؤيته . فترك حجرتها لتقوم هى بأعداد الشاى والدخان ، وتحكى
عن أيام أبيها التى لن تعود ، ويلحقها الخال كمن يردد مقاطع الاذان
عقب المؤذن : الله يرحمه .. الله يرحمه . أمال رأسه الى الخال ،
وهمس فى أذنه : خالتى زعلانة ؟ .

عدلت زوجة الخال الشاش على رأسها ، فشغلت أساورها ،
قالت : لا .. أبدا .

سألها : ماجتش تقعد معنا ؟ قالت : بتسمع القرآن .
قال الخال : الواد العربى عفريت .
قال له : لم يكن صاحبك . قال الخال : طول عمرنا أصحاب .
وكانت زوجة الخال تتابع الحوار بأذنها ، وهى منكفئة على الوابور ،
وقال الخال فجأة : بص ياسيدى بالنسبة ليسرى لن أعمل معه مثل
الأغراب وأطلب خلو .. بس يدينى حقى .
- أنت مسجل كل حساباتك فى ورق ؟
- لا ورق ولا يحزنون ، هو بيكتب أولا بأول .
- وما المانع ان تقعدوا سوا ؟
- لا .. بينى وبينه ربنا .. انا لا أعرفه .. كفاية .
وعاد العربى يلهث ومعه جوزة نحاس ، قال : شوف يا أستاذ .
قال : ماشى .
قال العربى : شوف القابة . قال : غير ميتها .
وأشار لواحد من اولاد الخال : افتح الشباك يهوى .
قال الخال : قفلناه علشان الميكرفون .
- ابتعته لك بكرة تتفاهموا سوا .
- أقفل على السيرة دى دلوقت .
لما عاد العربى بالجوزة يقطر الماء من أسفلها ، وبقع الماء التشرت
على جلبابه ، قال للخال : الحنفية خربانة . قال الخال : بكرة
أصلحها .
جلس مكانه بين السرير والدولاب ، جمع طرف جلبابه ، فظهر
سرواله على سيقان نحيلة ، أغلق ضلفة الدولاب المفتوحة ، فاخفت
الهدوم المبعثرة على الارفف ، خبطت زوجة الخال يده وسحبتهما
بنعومة وبط ، وقالت : سيبيها ، ما بتتقفلش .
ابتسمت له ، فقال العربى وهو يخطبها على كفها : حاجتكم كلها
خربانة .
ونظر الى ياسر منتبها بعد فوات الاوان .
قال الخال : عاوزه مسمارين .
قال العربى : اديها مسمارين .
وأراد ان يغمز بعينه ناحية زوجة الخال فانتبه الى وجود ياسر .
وقف ابن الخال على السرير يمسح جسمه ، وقال : اروح اشوف
المسلسل .
سأله أبوه : خلصت الواجب ؟
- خلصت .

قام أخوه وراءه ، وبكت البنت الصغيرة ، فدفعتها أمها غاضبة .
في داهية .

سأل ياسر : اشتريت تليفزيون يا خال ؟

رد العربي : بيتفرجوا عندي .

قال الخال : عنده كل حاجة .

قال العربي : البركة في الجرى .

سأل ياسر : جرى ؟ .

قال العربي : ماخليتش بلد .

ضحك الخال ، وامسكه من فخذيه ، ثم أدار وجهه : بقول لك

عفريت .

وقالت زوجة الخال : هو قعيدة زى ناس .

ومدت يدها بكوب الشاي الى « ياسر » رفعه الى فمه ، فتحركت

بطنه لرائحة الجاز وشعر أنه لن يقدر على شرب الدخان معهما ، فقام

فجأة ليقول للخال : زى ما اتفقنا .

الطلاق :

لما عاد ياسر مرة أخرى ليقعد على رصيف المقهى المواجه لداره ،

سمع من يطلب له الشاي من جانب الشارع ، فمال نحو الجدار

ليستطلع صاحب الصوت ، كان حسان بين مجموعة من الأصدقاء

بينهم ابن الماذون وصاحب المقهى بالصدى والسروال الطويل ، يقمى

أمامهم ، يحرك المصفاة في الهواء ، ويرص طقم الحجارة الملقى على

الأرض ، فرفع الكرسي ، واتجه اليهم .

دخن معهم الحجرين المتبقين من الطقم ، ثم مال على ابن الماذون :

عاوزك في موضوع .

— انت تؤمر .

ثم طلب من حسان أن يصحبهما في مشوار بسيط .

— ماشى نشرب كمان طقم .

واستأذنهما على أن يعود بعد دقيقة .

شد دوبارة الباب ، ونادى على يسرى فخرج اليه من ظلمة

الحجرة بالفانلة والسروال ، يدعك عينيه متجها الى مفتاح النور ،

وضحت بلاطات الصالة وجدرانها ، فأقبل عليه ليكلمه . فين

القسيمة ؟ .

— في جيب الجلابية .

وأمره ياسر باحضارها حيث أنه عشر على ابن الماذون ، وهو الآن على المقهى ، وعليه اذا كان جادا ان يقطع عرقا ويسيل دما ، لانه اذا تقاعس فلن ينهى هذا الموضوع أبدا ، وقال له يسرى : لا .. انا جاي معاك .

وادخل هيكله النحيل فى الجلباب على عجل ، ثم نثر من ماء القلة على وجهه ، وسار معه فى الشارع وهو يجفف تجاعيد وجهه بالمنديل . وقفا عند نهاية سور الطاحونة ينظران الى الماشيين ، ويرقبان المقهى من بعيد ، وشد يسرى ذراع رفيقه على غفلة صائحا فيه : بص .. بص .

وأشار الى امرأة تلبس الجلباب الحرير الأسود ، جسدها القوى المدملج يتلقى تيار الهواء الذى اندفع بين طيات الثوب ، فأظهر الفخذين المدورين ، وتكويرة البطن ، والسرة والنهدين البارزين ، والمرأة كانت مشغولة بضبط الطرحة الخفيفة التى كادت ان تطير عن رأسها ، بيد بيضاء تشغل أساورها الذهبية البراقة فى نور المصابيح ، ثم انتبهت للرجلين الواقفين ينظران اليها بانبهار ، قال يسرى بحسرة : عاوز حاجة زى كدا ، تتحملنى وترمى لى عيلين حلوين .

وقال له ياسر وهو ينظر الى وجهه المهموم : تقل جيبك . وواصل يسرى كلامه ، ولم يرفع عينه عن ظهر المرأة ، وردفها الكبيرين اللذين يرفعان الثوب : دى الهنا كله ، تقلب فيها طول الليل على راحتك ، لا تقول بطنى ولا جنبى .

وتركه ياسر ليشير الى ابن الماذون الذى قدم اليه بصحبة حسان وبدأ ياسر الكلام قائلا : الموضوع يا سيدى فيه طلاق . فهتف ابن الماذون . بدعمر مفتعل : أعوذ بالله .

وتبرم حسان كأنما يريد أن يعود الى جلسته ، بعد ان كشف الامر ، وسأل ابن الماذون : طلاق مين ؟ .

فاكمل ياسر حديثه : يسرى يريد تطليق امراته .. وبعدين أوضح لك .

فانبرى يسرى اليه : ولا توضح ولا يحزنون .. أبدا .. هاوزين نخلص من الخرابة اللى عشت عمرى فيها ، ونجيب قمر ينور الدار ، ويبدرها ذرية ، العمر ما عاد يحتمل صرمحة .

وقال ابن الماذون بخضوع : انا تحت أمرك .. آخذكم للحاج . وسأل « يسرى » بحسم : قبل ما نروح للحاج .. حياخد كام ؟ . - أبدا .. عشرة جنيهات .

وأخرج يسرى بعض الجنيهاات من جيبه ، وورقة القسيمة ،
ودفنها في جيب ابن المأذون : سبعة جنيه ، وحلاوتك عندي ،
وآدى الورقة .

وانسحب حسان بعيدا ، وقال : أرجع انا .
فشده ابن المأذون من ذراعه : عاوزين اتنين شهود والبركة فيك
انت واخوك .

ساروا في الشارع حتى قطعوا الطريق العمومى ، ثم انعطفوا
يسارا ، فوق الطريق المسفلت المتجه الى النهر ، مارين على المساكن
الشعبية ، وبيت المأمور ، والمدرسة الاعدادية ثم انعطفوا مرة أخرى
يمينا ، فنزلوا الى الطريق المترب ، وعبروا أمام الحنفية العمومية ،
ثم ساروا على جسر الترعة الضيقة ، واستقبلوا مقام « الحاجة
آمنة » .

عبروا القنطرة الصغيرة التى تحجز الحمار المنتفخ السابح في ماء
الترعة القليل ، فسدوا أنوفهم بأصابعهم ، وسبقهم ابن المأذون ليدخل
الدار الصغيرة المقامة ما بين الجسر والمسجد الملحق بالمقام ، وقال
لهم قبل أن يصعد العتبات : انتظروا انده عليه .

وانتبه يسرى نحو المقام ، ووقف تحت نافذته الكبيرة التى يبدو
من وراء قضبانها النور الابيض الباهر الساقط على اطراف المقصورة ،
بدا شاهد الحاجة آمنة بين زخرفتها بحريره الاخضر ، ورأسه المعصوب
بشال حرير ابيض ، يلمع الترتير من جوانبه ، ويفوح العطر من أركانه ،
وقف يسرى فاردا كفيه مرددا الفاتحة بصوت خفيض ، وباستغراق
حقيقى ، أنساه رفيقيه اللذين وقفا خلفه ، يرقبانه بدهش ، والتفت
اليهما باسماء بعد أن مرر راحتيه على وجهه : واجب بزضك .

ثم أمسك ياسر من جنبه ، وقرصه مداعبا : دى بركة البلد .
وسمعوا نداء ابن المأذون فعادوا اليه ، وسبقهم الى الداخل ليفتح
الحجرة بالدور الارضى ، أضاء مصباحها المدلى من السقف ، فقرش
ضوءا مريضا ، أظهرهم كأشباح باهتة صفراء وراح ابن المأذون يفتح
النوافذ ، فانطلق في الحجرة هواء حرر ركودها . وأزال النفس
القديم المستقر بين جدرانها الضيقة ، واستطاعوا أن يلمحوا عمائم
الصور المبعثرة على الحائط ، تطل من تحتها وجوه كهلة ، تتسع
عيونها بين اللحي السوداء الكثيفة لتحملق في الناظر اليها بالحاح .
ونفض كل واحد منهم مكانا على الكنبات الموزعات ، ثم ثبتوا
نظرهم على المكتب الذى اتضح فجأة بعد أن أضاء ابن المأذون أباجورة

عتيقة ، انخلع رأسها ، وتدلى ساقطا على عمودها الصدىء ، بين كتب كثيرة صفراء ، تراكم عليها الغبار .

وسحب من الدرج منفضة مصنوعة من شرائط القماش ، وحركها بحذر فوق الكتب ، وعلى رأس الأماجورة ، وفي المساحة الفارغة جهة الكرسي الموضوع على قاعدته حشية منتفخة . وسمعوا نحنة الحاج في الصالة ، فتأهبوا لحضوره ، ودخل عليهم بجرمه القصير ، يللم أطراف القفطان اللامع ، ضيق عينيه ، وتأملهم واحدا واحدا وهو يتجول بينهم ماداً يده البيضاء الخفيفة ، وعاد نحو الباب ليدخل ما بين المكتب والنافذة المظلة على المسجد ، وانجصص الى الوراء ، رافعا العمامة قليلا ليهرش بهدوء في مقدم رأسه ، فضبط فتحتى القفطان ، ثم عقد يديه ، راكزا بكوعه فوق المكتب ، وضيق عينيه في نظرة أخيرة فاحصة ، قائلا بصوته الهادىء : أهلا وسهلا .

وقدم ابنه الرجال للوالد الوقور ، ذاكرا القابهم ، وردد الحاج وراءه : ونعم . . . ونعم وقال للرجال ان آباءهم - جعلهم الله جميعا في نعيمه المقيم - كانوا من أعز أصدقائى وإنه هو الذى زوج أمهاتهم ، ونقل نظره الى ياسر وحسان فجأة ، اظن انتم أبناء الجديدة ؟ فقالوا في نفس واحد : ايوه .

وعقب على اجابتهما الحازمة : كان جدكما لامكما - الله يرحمه - من أجده الرجال . ثم التفت الى يسرى : ويعتبر جدك أيضا . . . انتم أبناء خالة ، على ما اظن .

واقترب يسرى حتى صار على طرف الكنبه في مواجهته بالضبط : وأبناء عم . . . الموضوع يا مولانا انى متزوج من امرأة دامت عشرتى معها أكثر من عشر سنوات ، ولا يعيش لى أبناء منها أبدا ، وأولاد الحلال ينصحون بتطليقها ، والزواج بغيرها ، فأنت كما ترى . . .

وقاطعه الشيخ : يا ابنى الطلاق ليس بالكلمة السهلة .

وسحب يسرى القسيمة من جيبه ، وفردها أمام الشيخ : انا فكرت في الموضوع ألف مرة . . . لا فائدة .

ومال بوجهه على الورقة يتصفحها ، وهو يحرك أصابعه النحيلة بين شعيرات لحيته الشهباء ، وقال كمن يحدث نفسه : انه أبغض الحلال .

ثم رفع عينه لبحث عن ابنه بين الجالسين ، وأشار له برأسه : قل لهم يعملوا شأى .

وأمسكه يسرى من ذراعه ، واقعده غصبا : لا داعى .

ونسى الحاج الأمر ، وعاد يتفحص الورقة ، ورفع وجهه مرة أخرى ، وأصابه داخل فتحتى الأنف تعبت فيهما : يا ابنى راجع نفسك .

وقال يسرى وهو يسحب المنديل على جبهته : لا حياة لى معها بعد أن شتمت أهلى وعابت فى أمى .
وهز الحاج رأسه : وصلت لهذا الحد ! .
وعلق يسرى بقرف : وأكثر من هذا .
وفتح الحاج الدرج : وفرد ورقا أبيض ودفترًا بدفتين طويلتين ، وسحب قلما من بين الكتب : الأمر لله .

وساد الحجرة صمت عميق ، فلم يسمع غير نقيق ضفدع الترعة ، وأصوات الرجال داخل المسجد ، والحاج أنفمس ما بين الدفتر ينقل إليه بيانات القسيمة المعلقة بين أصابعه المرتعشة ، ويسرى يلتفت إلى رفقائه مفتعلا ابتسامة على كرمشات وجهه المتوتر ، ويده لم تكف عن مسح العرق السائل بغزارة على خديه وعلى عنقه ، ثم انتبه على صوت الحاج يقول له : ردد ورائى .

فتحفر يسرى واقترب حتى لامس المكتب ، وبدأ يردد وراءه ، بصوت مبحوح حاول بشدة أن يجعله مرحا ، وحسان ترك المشهد ، وانشغل ، بالنظر من النافذة مستطلعا القبة البيضاء المحاطة بأغصان الشجر المرتفعة التى رقدت عليها عصافير ، تحاول احكام نومتها فى الأعشاش الكثيرة المدلاة بين الورق الأسود ولم يعد بنظره حتى طلب منه الحاج بطاقته فسحبها كالنوم من جيب البنطلون وألقاها إلى جوار بطاقة ياسر التى برزت منها صورته المتسمة فى نور الإباحورة الكثيف .
ونقل الحاج بيانات البطاقتين ، ثم تنهد بصمق قائلا : لو كانت تسير الآن على قناة أو فى شارع ، أو نائمة على سرير ، لسقطت على وجهها دون أن تعلم السبب . . هذا الطلاق تهتز له السموات السبع .
وتقدم « ابن الماذون » من أبيه ، وألقى أمامه الفلوس ، جعلها الرجل بين أصابعه يقلب فى أطرافها ، ويحصى عددها ، ثم ركنها بهدوء فوق الدفتر ، وقال ليسرى : سبعة جنيهات !!

وتقدم إليه يسرى يقبل كتفيه ، ويقول مازحا : انت بركتنا .
وانقلبت سحنة الحاج ، وقال بتكشيرة : والله ما ينفع . . أنا لا أدخل جيبى من هذه الفلوس مليما ، كلها رسوم ، وتمغيات ، ومشاورير تسجيل ، وإنتم والحمد لله متعلمون ، وتعرفون كل هذه الأمور .

وعاد يسرى اليه ليقول بجذ : البركة فيك .
وأدار الحاج ظهره منشغلاً بأمر ما : أبدا .. والله لا ينفع .
وتحدث ابنه الى يسرى مبرئاً ذمته : قلت لك من قبل عشرة
جنيهاً .
وأخرج يسرى من جيبه جنيهاً ، فردده فوق الجنيهاً الأخرى ،
وشد يد الحاج من خلف : كذا تمام .. سلام عليكم .
وأخرج مسرعاً ، وفي أعقابهِ ياسر وأخوه .
ثم لحقهم ابن المأذون على جسر الشرعة ، فنظر اليه يسرى
بغضب ، ولكن الولد لم يهتم بنظرته ، ووجه كلامه الى حسان : تكمل
سهرتنا .
وقال له يسرى : لو وفقت مع أبيك كنت سهرتك في دارى أعلى
سهرة .
ورد عليه ابن المأذون ضاحكاً : احنا فيها .

بعد منتصف الليل ، ودع ياسر أخاه عند الباب ، وقال له :
ادخل أنت .. سأتمشى قليلا . وسار مع ابن المأذون الذى سحب
سجائره ، وعزم عليه بواحدة ، اشعلها ياسر وهو يقول : لم اضحك
كما ضحكت هذه الليلة .

وعلق ابن المأذون وهو يطفىء عود الثقاب : حنة يسرى كانت
عظيمة .

وقال ياسر : هو لا يدخن الا حشيش الزيت ، ويشتره من بلده
الأصلى .

وغمرهما نور شارع الزراعة القوى ، ونظرا الى امتداده ، فلم
يقع نظرهما على دركيين يعلقان سلاحهما على الذراع ، ويسيران
جنباً الى جنب بين الدكاكين المفلقة ، ويدور بينهما حوار هامس ،
ولمحا الكلاب المتجمعة على طاولات محل الجزارة الذى يثن بداخله
موتور ثلاجة كبيرة .

قطعا الشارع باتجاه الجامع الكبير ، وهناك فارق ياسر ابن
المأذون .

وقال له : سأتجول جهة المستشفى .. سلام .

وانطلق ابن المأذون يعدو متجمعا على نفسه ، وهو يحنى رأسه
الى الأرض فى خطوات سريعة متلاحقة ، بينما انحرف ياسر الى الحارة
الضيقة ، فاشتد أنفه رائحة خبيز مقبلة من آخر الحارة السد
المظلمة ، وخفق قلبه حتى سمع ضرباته العنيفة بين جنبه وفركت
يده المبللة « فلتر » السيجارة ، والقاء بعيدا ، وحاول أن يحبس
حشرة الكحة التى هيجت رئتيه ، وأقبل بحذر نحو البيت المبنى
بحجر قديم والذى سقطت دهاكته من الزوايا ، وتآكلت حجارته
الراشحة ، نظر بفتة وراءه ، فرأى الكلاب تمرق صفا تحت نور
الشارع الكبير ، وازداد وجيب قلبه ، واقترب أكثر من عمود النور
المطفأ ، ووجد النافذة مواربة ، ولا أحد يبين فى ظلمتها القائمة ، فطرق
بظهر السبابة ، ورأى الوجه يشرق بياضه بين الضلفتين .

وهزت له رأسها المحلول الشعر ، وابتلعت الظلمة بياض الوجه ،

فاستوحش المكان وانصت لمعالجتها ترباس الباب ، فاقترب ، ليدخل بكتفه من الفتحة الضيقة ، وأمسكته من يده ، وسار وراءها ، وهو يرى - على نور لمبة سهارى بآخر الصالة - أبواب الحجرات المغلقة ، واحتواه ظلام الحجرة ، وكان قد رتاح على صدرها الممتلىء ، وهى التفت عليه بذراعيها ، تهصر عوده وهو يستجيب للضغط ، ويقتحم لحمها القوى ، ويفور حتى ليكاد يتلاشى فى مسامها ، وهى تهمس له فى أذنه : تأخرت . وهو ظل يدور براحتيه على الكتف ، وعلى الجنبين ، وفوق اكتنازة الفخذين حتى عثر على كفيها اللذين انزلقا الى أسفل ، وهما فى انفلات حذر ، وقال : كنت فى سهرة .

وقالت له بدلع ، وهى تفك جسدها منه : تسهر مع أصحابك ، وتنسى نفسك . وجرته من يده ، ليقعد على كرسى الصالون العريض ، واستطاع الآن رؤية أشياء الحجرة بالنور الشحيح المخنوق فى فرجات الشيش ، واقترب منها ، ليلم خصرها بين ذراعه ، وليشم فوح عطرها الحبيب الى قلبه .

وسألته : كنت مع يسرى طبعاً ؟

- لم يعد لى صاحب غيره .. تصدقنى بيسأل عن الورق ، وانا خجلت منه .

- قل له الحقيقة .

- اترك الرجل على وهمه ، فماذا يمكننى أن أقول له ، يكفى ما خسرت من أصحاب .

- لكن بصحيح ، لم تعد تحضر معك أوراقا كالأيام السابقة ؟

وقال وهو يوارى وجهه بعيداً عنها : خط الاتصال انقطع لأنهم قبضوا على الصديق الذى كان يمدنى به .

وأراد أن يغير الموضوع ، فحدثها عن رحلته مع أخيه وابن الماذون ليخلصوا يسرى من زوجته المتشبهة بجلده كالعلقة . وقالت بحسرة : حرام عليكم .

وحدثها عن قلق يسرى وتوتر أعصابه ، وهو يردد وراء الماذون بخوف ، وقال لها ان حسان لم يطق هذا المنظر ، وقام يتأمل الشارع من النافذة ، وأنه مال عليه فى طريق العودة ليقول له : ارتكبت عملاً حراماً أخشى أن يجازينى الله عليه وختم كلامه قائلاً : ما كنت أظن - قبل اليوم - أن الطلاق شيء رهيب ، وأن قلوب الرجال ترتج له بقوة .

وقالت وهى تعود لتمسك كفيه ، وتستدير بكامل وجهها اليه :
يكفيننا الشر .

ثم اطرقت قليلا ، وهى تعبت بأصابعه ، ومد يده ليرفع ذقنها ،
ويميل عليها بشفتيه ، وأنامت وجهها على كتفه : أقول لك خيرا
يزعلك .

وانتفضا على صوت نحنة متقطعة ترددت بالصالة ، وقامت
واقفة ، ووقف وراءها بنظر بترقب ، وانفلتت منه متجهة الى الباب :
انتظر .

وفتحت الباب ، وحاذرت الا تزيق مفاصله ، واختفت فى الصالة ،
ونزل ليمدد جسمه على السجادة مائلا على المنضدة الرخامية ،
وسمع خطو قدميها الحافيتين فوق بلاط الصالة .

كم هى رائعة هذه البنت ، ها هى تحاول مواجهة الخطر ، كما
واجهته من قبل ، حين رآهما أخوها - ذات ليلة - فوق سور النهر ،
يدفعان سيقانهما فى لهو ، مستمتعين بنسمة الليل ، تحت الظلام
الذى رمت أغصان شجرة كثيفة الورق ، مر أخوها بين أصدقائه
ملقيا بنظراته على الأرض ، مدعيا أنه لم يرهما ، ولكنه علم أن الأخ
انتظر عودتها وجرحها من ضفائرها ، ودفعها أرضا ، وراح يركلها
بقدميه ، وينام عليها ، ليعض لحمها ، ويخمش بأصابعه الخشنة
وجهها حتى سال منه الدم .

كم من سنوات انقضت منذ رآها على سكة الحديد ، تلقى اليه
النظرة التى اهتز لها فؤاده ، وقف مبهوتا . ومرت هى بسرعة
ضمن حلقة من رفيقات المدرسة ، وكانت هى فى الزى ، أفرعن طولا ،
وأصحن قواما ، وصار يرقبها كلما عبرت ، واعتاد طريق المدرسة ،
وبدا يصحب زملاءه فى رحلة صباحية ، ليخط بقلم الفحم صورة الفتى
الذى يقبل بنهم فتاة ، سقط شعرها المهوش بين الزهر وأوراق
الشجر ، حتى استطاع يوما أن يدس لها الورقة فى كفها ، لم يكتب
شيئا ، رسم القلب كتفاحة ريانة وبه ثقب الباب ، وأنام المفتاح
كعصفورة مفردة ، فى جانب من الورقة ، وفهمت الرسم ، وانفتح
له القلب ، واستطاع أن يمهدا الطرق بينهما ، بصديق منه ، وصديقة
منها ، وعرفا الموعد ، واللقاء المحلى ، وصار يكلمها عن الفصص
التي يقرأها ، وصارت تحدثه عن كتب أبيها فتعده بها ، وهو يقرأ .
ويحكى لها عما يقرأ ، ويشدو لها بالقصيدة التى بات الليل يصوغ
أبياتها .

وانقضت أيام اللعب لتأتى أيام الجد ، وعرف القلب الهم ، فراح يحادثها بكلام جديد بعد أن عرف العاصمة التى أطلعتة على بعض أسرارها ، وكان يعود إليها بأوراقه السرية يفك لها طلاسمها ، وهى تنهد بعمق : كلام جميل بصحيح ، لكنه يدفنى للخوف عليك وانفتح الباب مرة أخرى ، ودخلت تجمع ثوبها الشفاف ، وتعيد خصلات شعرها الى الوراء ، وجلست الى جواره فاردة ذراعها على فخذه ، وقالت : بابا كان فى الحمام ، وانتظرت حتى جمعت أنفاسها المضطربة ، ونظرت اليه بوجه ضاحك ، يضىء بهالته الفراغ القليل بينهما ، وأدرك أنها تريد تذكيرها بالأمر الذى قالت انه مزعج ، وسألها وهو يعود الى احتضانها ، فقالت معاينة : جاني عريس انما ايه .. نكتة .

— مبروك .

وخببطته على صدره ، وهى تفتح أزرار القميص لتسمى أصابعها فى براح الصدر : والنبي دمك ثقيل ، أنا اتكلم جد .

وقالت ان أباهما أجبرها على الدخول اليه ، فرأت المسكين يقعد غارقا فى عرقه ، وينظر إليها خلسة بارتباك وقلق ، وأن أمها نصحتها بأن تخلع ياسر من دماغها ، فهو لا يصلح لها ، لأنه لا يملك أن يسعدها ، كما يملك هذا الشاب الذى عاد من الخارج ، فهدم بيت أبيه ، وأقام عمارة مرتفعة ، وملا إحدى شققها بقطع الأثاث الحديثة ، وفرشها بالموكت ، ولصق الأوراق الملونة على حوائطها .. و .. و .. و ..

وتحدث ياسر مضطربا : أنا لا أقدر ان اتقدم اليك الآن .

وقال : كما تعلمين أنا لا املك مسكنا خاصا ، ولم ارتبط بوظيفة ، ومصرى لا يزال غامضا ، ولا اعرف شيئا سوى انى أحبك .

وارتمت عليه لتجمعه فى حضنها : وأنا باموت فيك .

والتقت يداها فوق عرى لحمه ، تحت القميص ، وتشابكت أصابعها وراء الظهر ، وضمتة بشدة حتى ضل أنفه فى غابة شعرها المظلمة ، ينشق عبرها ، فانتعشت روحه وانعدل ليأخذ وجهها بين راحتيه ، ومال ببطيئا ، حتى التقت الشفاه الظماى وتهالكت فى تقبيل حار ، لم يفيقا منه حتى سمعا صوت الجامع يهيب الميكرفون لصلاة الفجر ، واقتحم الصوت الحجرة من الفرجة المضيئة ، فقام ياسر ليجمع أطراف القميص المبعثرة ، وينسحب خارجا ، قبل أن يقوم أبوها للصلاة .

اخيرا اتضحت ضربات السقطة القوية ، وكانت حزا من الرؤيا
الآخذة بخناق يسرى ، انها هنا ، فى هذه الدار ، وعلى بابها الكبير ،
وبرزت من ظلام العيون المفلقة ، الحوائط ، وعروق السقف ، والواحه
المدودة بالطول ، والدولاب الصاج ، والشماعة المدقوقة وراء الباب ،
والحصير ، والكنبه الملقى عليها خلقات كثيرة ، ومراة مشسطوفة
الجوانب ، ومشط ، وفرشاة ، وطقم الأسنان الفارق فى ماء الكوب ،
وتوارت سعدية وكأنما ابتلعها الماء الذى كانت تسبح فيه عارية ،
وسط لحم أجنة كثيرة مفقودة العين ، تتخبط فى تيار الماء بأذرع
صغيرة واهنة ، كانت تنحل من جسدها ، وتعم من حولها مع باقى
الأطراف المبتورة ، وسعدية بين بقع الدم الحمراء ، تحاول ألا تفلت
يدها من قدم يسرى المتشبث بالبر ، والأجنة تتقاذف حولها فى البقع
الحمراء ، متوهجة فى نور لا يعلم مصدره ، تخبط وجهه ، وتعاون
المرأة التى تجر بعناد « ما هذا الذى أرى ؟ » وهرب من ظلام الحجره ،
وفاجأه جسد الشمس المفرد بطول الصالة « من ؟ من ؟ أيوه .. »
ولم يهتم أنه يخرج بملابس داخلية ، وبدون طقم الاسنان ، وانفتح
زجاج الشراعة عن وجه أسمر لفتى ينز عرقه تحت العينين القلقتين
فى مواجهة خيوط الشمس القوية .

- الحاج فرج يقول لك تأخرت .

- رح يلعن أبوك لأب الحاج خرا .. مش شغال النهارده .

وانصفت الضلفة ، ولم يبق من الوجه غير شبح فى الزجاج ،

لا يريم ، وعائد الطرق على انسقاطه .

- امشى يا ابن الكلب ، واختفى الشبح .

« ما هذا الذى أرى ؟ ما معناه ؟ »

الدار هامة ، يطن ذبابها الكثير المنتشر على بقع الشمس ، يحوم

بالحاج كلما داس بقعة ، ثم يعود مرة أخرى ليفترش الضوء .

« هل يجزع القلب من وحشة الدار ؟ لم يحدث هذا من قبل ،

لماذا لا اطبق الدخول فى ظلمة الحجره ؟ لماذا لا اطبق صوت السكون

في الدار ؟ وكنت اعود من ضجيج المدن متلهفا لهدوئها ! » .
وغسل وجهه على عجل ، ولاك لقمة من فطيرة متبقية من أمس ،
بعد ان القم فمه الطقم ودخل في جلبابه ، متجها الى الخارج .
الحاج على يمد بوزه بين صفحات الجريدة ، متشاغلا بها وانا لن
اصبح عليه ابدا وشحته وابو عليوة على باب الفراكة بين نسوة
منتظرات ان تدور الطاحونة في اوانها : صباح الخير يا اولاد .
- صباح الفل يا اسطى .

- ناموسيتك كحلى .
ونظر يده لحسين الذي اطل من شباك الطاحونة ، وقف على آخر
سور الحوش يتلفت في الشارع ، مرة جهة اليمين ، ومرة جهة
اليسار ، وقدمه ثناقلت على الارض لا تريد ان تتلطح . الى اين
يذهب ؟ لا طاقة لدخول الدار ، لقد طالت زيارة زبيدة للحاجة ، فهل
يذهب ليعود بها ، هل اخطأ في تطبيق سعديّة ؟ .
كان سعيدا البارحة ، كمن ازاح الغمة عن عينيه « لماذا كل هذه
المرارة في الحلق كان الطريق معها مسدودة . وانا كبرت . . كبرت ،
من العدل ان يكون لى ولد يبهج شيخوختى المقبلة ، وسعدية جدباء
.. جدباء . »

- يا اسطى . . يا اسطى يسرى .
« سيد الخياط ، ماذا يريد هو الآخر ؟ لا وقت لثرثرته التي
لا تنتهى ، سيما دماغى بكلامه الفارغ . »
- واقف ليه كدا ؟ تعالى اشرب معى كرسى الدخان .
« لا بأس . . كرسى الدخان جاء في اوانه . »
وقعد على « الكرويتة » المفككة الاوصال ، وسيد قام الى المنقد
الصغير المكون تحت « البنك » وقطع من ورق الجريدة على الفحم
المدفون في الرماد ، واشعل النار ليحيى خموده .
- ايه مالك ؟
- ولا حلجة .

وظل مشغولا بمتابعة النسوة العائدات من السوق واللائي يرجعن
بظهورهن الى وراء مع نزولهن انحدارة الشارع ، وسحب من الورقة
الموضوعة تحت رأس الماكينة لقمة بسكويت ، لم يقدر على بلعها
الا بجرعة ماء من القلة المعلقة في مسمار الباب .
- ما لكش مزاج في اصطباحة .
وترك سيد يعد الجوزة .

— عن اذنك .

وغادر الدكان الى زحمة شارع الزراعة . النسوة ، بملابسهن السوداء غاديات رائحات ، يرفعن السلال ، وينحنين فوق اكوام الطماطم والباذنجان والبطاطس وبائعة الكرشة مدت ذراعها على آخره تقطع مصرانا طويلا ، كومتها على كفة الميزان وراحت تكور ورقة على هيئة قرطاس « ربنا يقرفكم .. من هذا ؟ معقول !! .. »

بعد كل هذه السنين ، هو .. هو بقفاه السمين ، وبشرته الحمراء التي أعرفها ، ونظارته السمكة ، وما ألقى رماء الى هذا البلد بعد السنين الطويلة ؟ »

— عدلى .. عدلى .

« ها هو يلتفت الى .. هو .. هذا الأعمش الذى تنفلق عيناه فى الشمس ، فلا يقدر على النظر ، هو من كنا نسميه « عدو الشمس » وسحبته الى ظل السوق .

— من .. يسرى ؟!

واحضان ، وضربات على الأكتاف ، وقبلات فرقت على رؤوس الشارين والبائعين .

— ايه الصدف السعيدة دى .. تعال .. تعال .

— تعال أنت اشرب الشاي عندى .

— بس تعال ..

وازاح عدلى الورقة عن رأس زجاجة مسدودة بفلين احمر .
— ايه ده .. خمر ؟

— تعال بس .. أخى اشتراها من المطار وأعطاهما لى لما عرف

أنى جئت خصيصا لزيارته .

وسارا الى نهاية الشارع بين زحام السوق ، يجهدان فى تفادى اجساد النسوة ويكتمان أنفيهما ليمنعا روائح العرق النتنة . وينزلقان بعيدا ، لتمر من بينهما عربة « كارو » يجرها حمار هزيل ، لم يفق من نومه بعد ، ويشيران الى رجال العزب النازلين الى البلد بطواقى مبرومة ، يرفعون سلالا قديمة على الأذرع الضامرة .

— فاكروا أيام المولد لما كنا ننتش منهم الطواقى .

— جمعت مرة فى دارى أكثر من عشر طواقى .

وعبرا قنطرة النهر القديمة ، وسارا بموازة النادى الذى تملأ الشمس ساحته الفارغة ، وهبطا ارتفاع الجسر ، أمام كشك المرور ، ليسيرا بين صفى العبل المرتفع ، واختارا مكانا معزولا بين ماء النهر

الرائقة ، وسور المصلى الواطيء ، تنسدل عليهما صفصافة ، تلامس اطرافها سطح الماء ، وتصنع دوائر رقيقة ، عند الحافة ، ورفع عدلى الورق عن الزجاجاة ، وشد الفلينة بأسنانه ثم صب منها فى الفطاء .

— اشرب .

وتشممت أنف يسرى رائحة الخمر القوية « أين إيامك يا مصر ؟ هل تعود مرة أخرى ؟ » .

— كنت يا عدلى أعود بالتاكسى آخر الليل ، وأمر على بار الحرية اشرب الكأس والكأسين ، واشترى زجاجة ، تكفى ليلتى ، وليلتين بعدها .. أنا يا عدلى منذ أن عدت الى البلد لم تمس شفتاى طعم الخمر أبدا .. هنا أنا اتوه فى الحشيش لأنه الكيف الوحيد المتاح .

— الخمر نعمة أم نقمة ؟ .

— خلقها الله لحكمة عنده .

وانتعش جوف يسرى للجرعة ، وأحس بأن أمعاءه انتبهت لها ، وبدأت تتمطى داخله ، لتقوم من ركود طال أمده .

— أنا أحس يا عدلى بأن معدتى كان مغشيا عليها ، وهذه الجرعة كأنها ماء الورد الذى نشر عليها فاستفاقت .

— اشرب .

— فاكرا يا « عدلى » أيام مدرسة « الاتحاد الوطنى » ؟

— وكيف أنسى .. الناظر عبد السيد !

هذا الرجل كان يبيت الرعب فى قلوبنا الصغيرة .. اذكر أنى عدت يوما من المدرسة ، تغذيت غداء ثقيلًا ، وقضيت قيلولة طويلة ، ولما

استيقظت رأيت الشمس اختفت وراء الدور ، ولم يتبق من أثرها غير ضوء خفيف ، وظل باهت ، وهواء رطب ، فظننت أنه الصباح ،

وانى تأخرت عن موعدى ، وقلت فى نفسى ان حضرة الناظر لن ينجينى من عقاب الفلقة ، فأسرعت الى القميص و « والشورت » ورفعت

الشنطة على كتفى وجريت ، وأمى تصيح ورأى ، يا ولد ، يا يسرى ولم أجبها ، كنت مرعوبا ووصلت الى المدرسة ، فوجدت بوابتها

مغلقة ، ونوافذ الفصول فى الدور الثانى مسدودة ، ولا حس ولا نامة هناك ، وأدركت ان الوقت آخر النهار ، وعدت مكسوفًا أجرجر

ساقى .

— وأنا اذكر ان أمى أرسلتنى يوما بقفة الحب الى طاحونتك ،

وأنا انحرف من الشارع الضيق وراء الطاحونة ، وجدتني - فجأة -
في مواجهة حضرة الناظر ، وليس في الشارع إلا أنا وهو ، واحترت
كيف أقدم له التحية ، ويداي متشعلقتين في أذن القفصة ، رفعت
اليمين فاهتزت القفة ، رفعت الشمال فارتجت ، رفعت الاثنيين
في لهوجة لأقدم تحية حازمة تليق بحضرة الناظر ، فتشخلعت القفة ،
وسقطت على الأرض ، وتناثر الحبيب ، فبكيت ، وحضرة الناظر
اقترب مني ، يربت على كتفي قائلاً : يا جحش .
- كانت أيام رائعة يا عدلى .

- اشرب .

- كانت الآمال وردية ، لا تكف عن الأحلام ، لم أكن أتوقع أبدا
أن أكون على حالي اليوم ، مجرد سائق ، يرهق أعصابه على عربات
الناس . ولا يقدر أن يمتلك عربة خاصة به .
- كل حي يحصل نصيبه .. اشرب .

- ألا تعلم يا عدلى انى طلقت امرأتى بالأمس .
- أعوذ بالله .

- عندك كم عيل يا عدلى ؟

- أربعة .

- أما أنا فلا شيء ، كل أولادى يموتون بمجرد خروجهم من

الرحم .

- ربنا يعوضك خيرا ، استأذنيك لأن الجماعة عندنا مجهزين
غدوة ، ولين العيلة بمناسبة عودة أخى ، كما تعلم نحن قليلا ما نلتقى
هذه الأيام .

اليوم خمير :

وعلى سور الكوبرى : جعل يسرى رأسه بين يديه ، يتأمل ثعبان
النهر الفضى يتلوى وسط وابورات الطوب ، مغادرا البلد بانحناءة
قاسية ، ليختفى في البعيد وليترك النخل والشجر الملتف كتلة عالية
تحجز الأفق الذى ينفث دخانه الحامى .

- هكذا يا عدلى تحى الشوق ثم تتركنى .. اشتاق لسسانى

للخمير ، ولا خمير في البلد .

وتردد أكثر من مرة في الهبوط الى جسر النهر من الضسفة

الأخرى .

— يلعن أبو الدنيا . . .

وتفادى التراب الذى هاج حول قدميه ، وسار على رافد الترعة الصغيرة التى تخرج من باطن النهر ، وعبر الأرض الواسعة المحبوزه للمولد ، ورأى قبة الحاجة « آمنة » يضيء بياضها اخضرار الشجر النائم حولها ملقيا ظلا دسما يرد الروح ، واستقبل « الخص » المقام تحت التوتة الكبيرة التى تفرد أغصانها الكثيرة فى دائرة واسعة فوق الساقية . ورأى هناك الحوزية ، ينتشرون على القش ، يراعون الأحصنة القلقة التى تنفض الذباب عن جلدها . وهى واقفة بين العريش ، تعلق التبن من كيس معلق فى بوزها .

— سلام عليكم .

— سلام ورحمة الله وبركاته .

وتوقفت الأفواه من مضغ لحم السمك المشوى ، المفروود فى المناديل المحلاوى ، وحملت العيون الراشحة باندهاش ، وثبتت الأيادى بأكواز البلاستيك ، فلا هى ترفع الى الأشداق ، ولا هى تنزل الى الأرض ، واختار كومة قش بالقرب من باب « الخص » ، وصفق أحدهم : هات هنا واحد « دبل » للأسطى .

وخرج « الديدامونى » بظهره المحنى ، وبذراعيه المشمرتين ، عن فائلة قطنية مخروقة فى أكثر من مكان ، نقل قدميه ببطء جهة يسرى وهو يحاذر ألا تندلق البوطة الخامرة من حواف الكوز ، تحرك نعلله الممزوع ، ليزيل الحصى ، ونظف بقعة دائرية صغيرة أمام يسرى ثبت عليها الكوز ، وقام يتأوه من عظام ظهره التى طقطقت بصوت مرتفع ، وعاد ممسكا جنبه الى « الخص » ثم التفت : اجيب لك سمك ؟

— لا . . عاوز حاجة خضرا .

ورفع الكوز الى شفتيه ، شفت من الرغاوى السابحة على الحافة .

« الفرق كبير بين لدعة البوطة ولدعة الويسكى ، الطبقية فى الخمر أيضا ، صدقت يا ابن الخالة ، كله طبقات ، كان الويسكى فى قديم الزمان وقفا على الناس « الهاى » الآن . . الناس من أمثالنا عرفوا طريقه ، مند عرفوا طريق المطارات والأسواق الحرة ، وعادت الخمور الجيدة مرة ثانية الى البلد ، بعد خمارة الخواجة « طناش » لم تر البلد الخمر فى زجاجات ، وراحت بوطة « الديدامونى » .

.. ..
.. ..

أهؤلاء من يقصدهم حين يتحدث عن البؤساء والكادحين ؟
أين هم من كلامه الصعب ؟ كيف تقدر عقولهم على فك الغازه ؟
ياه .. ولا مليون سنة ، أنا نفسي أفهمه بالعافية .
ورقك يا ياسر في بر ، وأصحاب المصلحة الحقيقية - كما تقول -
في البر الآخر ثم هل أنا خير من هؤلاء ؟ لماذا اضطربوا لما راونى ،
أنا مثلهم « عربجي » لكن « عربجي » تكنولوجيا .. هىء .. هىء ..
هىء .. حصانى حديد وحصانهم من لحم ودم ، أنا مثلهم أعمل
بلا اجر عند الناس .

« وها أنا ذا أقعد وحيدا ، يخشون الاقتراب منى ، على ظن انى
أفضلهم ، وفيما أفضلهم الله وحده يعلم ، الآنى ابن فلان الفلانى ؟
أم شكلى يوحى بأنى لا أنتمى اليهم ، لماذا لا يأتى واحد منهم ويجالسنى ؟
وأنا اذا قمت وانضمت الى حلفتهم ، سيقول الماشى فى الطريق ،
راينا الاسطى يسرى من عائلة كذا ، يفرش الأرض مع العربجية كلامك
بعيد جدا يا ابن خالتى .. بعيد .. ولن يتحقق أبدا » .
- وحدوووه .

- هات يا « ديدامونى » كوز آخر .

« تقصد يا ياسر أن تجعل من هؤلاء ناسا حقيقيين ؟ هذا يتطلب
منهم أن يرتدوا الملابس النظيفة ، ويطلقوا لحاهم ، ويرفصوا عن
رءوسهم المناديل المتسخة ، ليمشطوا شعورهم ، ويدهنوها بالشامبو ،
ثم يعملوا على قدر طاقتهم ، ويأخذوا بقدر حاجاتهم تعال ياعم ..
لا كلمك عن هذه الدنيا الجميلة ، عن الجنة .. »

وكيف ستكون الدنيا بدون عربجية ؟ ربنا خلق الحمصار ليجر
العربة ، وخلقنى لأسوقه بعقلى .. قل كلاما آخر .
ولكن ياعم هذا فى الامكان ، المساواة ، اذا تجمعت قوتك على قوة
الآخر ، وجمعكم الهدف الواحد ، تسقطون الاستغلال ، وتقيمون هذه
الدنيا الجديدة ، دنيا العدل . نسقط من ؟ قبل أن يفكر احدنا فى هذا
سياكل ضربا على وجهه ، لا ياكله حرامى بلغ فى جامع .. قل كلاما
آخر .

هل رأيت يا ياسر أن احلامك بعيدة ..
هذا الرجل خير منى ، على الأقل هو يمتلك هذه العربة ، وهذا

الحصان ، وله زوجة وعيال يؤنسون وحدته ، أما أنا ، لا شيء ، لا شيء البتة .

وهذا ما يجعلنى اسلم لك رأسى ، لتعبيها كلامك ، انك تفازل حرمانى ، كلامك مخدر آخر ، يؤخذ مع جرعة الحشيش ، أصبح معك ، ومع ورقاتك طوال الليل ما ان يأتى الصبح واخرج لسيارتى ، وادخل بين الناس ، احمل أشياءهم ، وأوصل بعضهم ، هذا فى زيارة ، وهذا فى طريقه للعمل ، وهذا ذاهب لينهى صفقة وآخر فى طريقه الى بور سعيد ليهرب البضائع ، ويتجول بها فى الشوارع ليغير قشرة الناس القدرة ، وتسيح زبدة كلامك فى صهد الزحام ، وأشعر بك بعيدا ، وكنت بالليل بين ضلوعى .
- هات يا « ديدامونى » كوز آخر .

« وهل يستطيع كلامك تزويجى من بنت الحلال ، الجميلة ، التى تصون شرفها ، وتنجب لى ولدا ، وولدا ، وولدا ؟ هل يستطيع كلامك ان يملكنى سيارة ، ويمنعنى من ذلة العمل مع رجال كان أبى يستخدمهم فى أرضه ؟ هل يستطيع كلامك ان يبتنى لى بيتا بالحجر الأحمر ، يصمد للأيام بدلا من هذا المتداعى ؟ »
- هات يا « ديدامونى » .. هات .

الى الامام سر :

لما سقط ظل الجدار الورانى لحوش العدة ، واقبلت نسمة العصارى تلهو فوق ترابه الناعم فتحت زبيدة أم محمد باب الحجرة العارية من البلاط ، ونشرت الماء على التراب ، ووضعت صينية القلل فوق صندوق الحب لتبردها النسمة الالهية ، وافترشست الحصر بالقرب من عشة الفرن ، وضعت كوبين من الشاي ، غمست فيهما اوراق النعناع الريانة ، وامتد ياسر بطوله على الحصر الى جوارها ، يرشف الشاي ، ويحادثها عن سفره فى الصباح الباكر ، ليلحق بعمله ، وسأله عن لقائه بسامية .

وقالت له : من الخسارة ان تضيع منك هذه البنت ، ووصفت له لهفتها حين مرت عليها لتخبرها بالموعد الليلى ، وقال لها انه لا يملك القرار فى ذلك الآن ، ثم انه لا يستطيع حسم هذا الموضوع قبل

الاطمئنان على مصير اخته ، وانه يستطيع ان يقرر ارتباطه بالبنت بعد ان يرى زبيدة في بيت العدل .

وقالت له زبيدة : ان عليه ان يهتم بنفسه ، ويدعها لمصيرها الغامض .

وقامت لتفتح الباب الذي ترددت طرقاته البعيدة من الباب الكبير .

ونادت عليه من الداخل قائلة ان شخصا لا تعرفه يسأل عنه .

وجرع ياسر ثمالة الشاي ، وعبر الصالة الكبيرة ، ثم الصالة الصغيرة ، ورأى المعلم زهير - الذي يسهر معه على مقهى حمام - في ضوء الشارع بعمامته المزهرة ، وقفطانه اللامع تحت الجلباب الأبيض ، شد ياسر على يده : تفضل . والرجل خلع يده ، ومال عليه بوجهه الجهم : الحق يا أستاذ قريبك لم عيـال البلد وعامل مظاهره من أول شارع البحر لغاية السويقة ، وأنا مسكته بالعافية ، وحبسته في دكاني ، وقلت انك الوحيد الذي يقدر عليه .

وارتدى ياسر هدومه بسرعة ، وخرج مع الرجل متجهسا الى السوق .

وهناك التقى بصديق له يقف تحت مظلة السوق المقامة على الأعمدة الأسمنتية رحب بياسر وأخذه من يده ، وهمس في أذنه : الحق لمة .. دا بيقول كلامك كله ، وأنا حاولت منعه ، وضربني بكوعه في جنبى ، بعدين قلت أروح لك .. ولم يستمع ياسر إليه ، اتخذ طريقه وسط أوراق الخضار المختلطة بطين الأرض وبين زحام العيال الواقفين على طوار الدكاكين المغلقة ، يصفقون ويهللون جهة باب الدكان الموارب الذي يحرسه رجلان من حمالي السوق «

وانفتح الباب على يسرى القابع في ظلمة الدكان ، بين روائح خضاره المعبأة في أقفاص كثيرة تنتشر في أركانه .

وهتف يسرى بعلو الصوت : ياسر .. ياسر .

وبدا يتدفق في الكلام : كنت نائما في دارك ، وأنا عملت الثورة وحدى .

- تعال .. تعال .

- قم يا ابن الحلال روح مع ابن خالتك .

- تحركت من هناك الى المركز ، وحذفته بالطوب ، لم يخرج كلب

منهم ، الكل اختفى وراء حيطانه ، قلت لهم اخرجوا لى ، فخافوا ، لأنى كنت فى حماية الجماهير .

— تعال بس نروح .

— لن اعود الى الدار فى يوم مجيد كهذا .. هل تدرى كيف بدأ

الامر ؟

بدأت الشرارة فى بوظة « الديدامونى » حاولت أن انقلل الوعى للمربية الذين كانوا هناك ، ولكنهم الاندال ابدوا الخوف والحذر ، ايدونى فى البداية ، ثم تراجعوا قائلين ، كلامك مضبوط ، ولكن من يضمن لنا الحماية ؟ فانطلقت وحدى الى معلم المعلم بسيونى هناك وحدث العمال يكدحون فى رفع السباح على الحمير ، قلت له ان هذا يستفلكم ، وينهب رزق عيالكم ليبنى العمارات العالية ، فشوروا ، نظروا اليه ، وقالوا لى ياعم نحن نخافه ، وحاول الراجل الاقتراب منى ، ليستقبلنى ومد لى يده ليسلم على متخاذلا : فقال ياابن الناس الطيبين ، وقلت له فى وجهه انت بورجوازى عفن . وكانت الجماهير قد التمت ، وخرجت لى من دورها ، واختفى الرجل ، قلت يا يسرى خذ حذرك ها هو يختفى بالداخل ليتصل بشرطة المركز فيقبضوا عليك ، وقلت على ان افسد خططه ، هاهى الجماهير حولى ، فلننطلق الى هناك لنفاجئهم ، وحصل رفعونى على الأكتاف ، وسرت بهم ألقى الشعارات والتهافتات ، ومرة « يسقط » ومرة « يعيش » وهم ورائى يرددون بحماس « يسقط ، ويعيش » حتى التففنا حول أسوار المركز ، وقلت لهم احدثوا الطوب داخل السور ، فحدثنا ، حتى سقط المركز بمن فيه ، وقلت لهم علينا أن نحتفل الآن بثورتنا ، فالى البلد ، ليعرف كل الناس بأن زمن العدل قد جاء ، فتحرروا ، لن نخسروا غير قيودكم ، فاخذنا طريق الزراعة بطوله ، وهاهم الآن بين يديك ، فافعل بهم كما تريد .. خذهم الآن الى الحكم .

— بس تعال .. بلاش فضايح .

— فضايح !! لا .. لا تأكل حقى .. أنا متفق معك من قبل .

لا تأكل حقى أنا لا أريد شيئا ، اريد عربة ، اشغلها أجرة ، ألف بها بين البلاد ، وزوجة جميلة بيضاء تخلف لى الذرية الطيبة .

— تعال بس .. ونتفاهم فى البيت .

— ماشى .. ولكن لا تأكل حقى .

وانخلعا من العيال المتهافتين عليهما ، وزجرهم المعلم زهير .

— لا حول ولا قوة الا بالله .. ربنا يهدى .

وتأبط ذراعه متجهين الى الدار من الشوارع الجانبية البعيدة عن
عيون الناس ، وسار يسرى بخطوات عسكرية حازمة ، وياسر يحاول
ألا يفلت يده ذراعه الذى يتحرك الى أعلى وإلى أسفل بانتظام .
واختار شارعا ضيقا يتصل بشارع الطاحونة ، فشد يسرى ذراعه
بشدة صارخا : لا أمر على الحاج « قرد » أبدا . . هذا بورجوازي آخر
ياكل أموال اليتامى خذنى الى المقهى .

— حاضر . . بس اهدأ . . وبلاش زعيق .
وأخيرا وصلوا الى الدار خفية ، وادخله ياسر الحجرة الاخيرة ،
وعاونه فى تغيير ملابسه ، ومدده على السرير .
— أنا لا أريد النوم . . لازم اشارك فى المهرجانات ، لن تسهروا
وحدكم ، ساكون الى جانبك .

— نام شوية . . سأعمل لك قهوة مضبوطة ، بعدين نروح معا .
— لن تنسى نصيبى . . آ . . أنا قريبك ، لا أريد شيئا لنفسى ، أنا
أريد للناس . . كل الناس ، فقط أريد سيارة ، اعمل بها بين المدن ،
وسأنقل الفقراء أسبوعا كاملا ، هدية للثورة .
— ماشى . . ماشى .

وخرج ياسر الى المطبخ ، وضع الماء فى الكنكة الصغيرة ، وضع
عليه قليلا من السكر وملعقة من البن ، وقلب الماء فوق نار هادئة ، ولما
اقترب الوش من الحافة ، صبه فى كوب صغير ، وحين عاد الى الحجرة ،
وجد يسرى تحت الغطاء ، يردد غطيظا عاليا ، والنفخة التى تخرج من
جانب فمه ، تملأ فراغ الحجرة المظلمة ، فركن الكوب على « الكوميدينو »
وجلس فوق الكنبة الى جواره يتأمل وجهه المرهق الذى يسيل منه عرق
غزير .

القسم الثالث

زوجى العزيز / كمال

عدت من فترة قليلة الى البيت ، بعد أن قضيت عدة أيام مع الحاجة أنيسة ابنة عمى ، وقد استقبلتنى استقبالا حسنا ، وسألت عليك كثيرا ، وتقول انك لم تدخل بيتها من قبل سفرنا الى ليبيا ، ووعدتها بأن اكرر الزيارة بصحبتك حين تعود فى اجازة آخر العام .

وكان سبب قضائى هذه الأيام معها حاجتى الى التردد على عيادة الدكتور ، ولكن صحتى تدهورت بشدة ، والمسكينة لا تقوى على خدمتى ، ففضلت العودة الى البلد لآكون بين أهلى حيث ساجد أكثر من واحدة لتقوم على خدمتى ، فلا تشغل بالك ، وإن كان لى رجاء ، أن ترفع المبلغ الذى ترسله قليلا ، فقد كتب الدكتور أدوية جديدة وطالبنى بنظام فى الاكل ، ألفى منه كل النشويات وخلافه ، وأكد على تناول اللحم بشكل مستمر ، وأنا لا اريد ارهاق أخى ، وعلى العموم « كتر ألف خير » فهو الآن يراعىنى بأقصى ما يستطيع ، ويضطر مرات كثيرة لترك عمله ، ليكون الى جانبى ولا يتركنى وحيدة أبدا .

ارجو أن تمر الايام القليلة القادمة بأقصى سرعة ممكنة ، حيث تأتى الى ، ونقضى بعض الايام هنا ، فتخفف حمل أعصابك المرهقة بجو الريف الجميل ، ثم نعود الى شقتنا التى اشتقت اليها كثيرا ، اهتم بنفسك ، وراع صحتك ، ولا تشغل بالك بمرضى ، على أن ترسل المبلغ المذكور فى أقرب فرصة .

زوجتك المخلصة

زبيدة

الجزيرة البيضاء - يونيه

سيد « تعال كلم » :

سمع الطرقات بينما هو جالس على الكنبه أمام أخته يمسك كوب الماء بانتظار أن تفض يدها المرتعشة الورقة عن علب الدواء ، ولما كانت الطريقة القوية داخله عليهما بعنف من الضلفة المفتوحة ، هبىء لهماان الريح الصرصر انطلقت من مكانها وزوبعت فجأة بين جدران الحجرة المرتفعة الجدران ، وتناثرت علب الدواء فوق اللحاف المطوى على سيقان زبيدة ، فتفلت في عبها مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم ، وقال يسرى : حمار من هذا المستعفى على السقاطة .

وخرج من ظلام الحجرة منخلعا من سكونها ومن رائحة الادوية المنتشرة ، الى صخب النور فى المشى لتحوم حوله هذه التكتكات الازلية المقبلة من وراء الباب الكبير ، وتلمس عيناه شبح الواقف وراء الشراعة ، انه لشخص لا يعرفه ، لهذه الشراعة لغة معه ، يفك طلاسمها منذ كان يحبو على ارض الصالة يعرف دون حاجة للعين السحرية ملامح الشخص الواقف ، فيفتح له ان كان فى حاجة اليه ، أو يعود على أمشاط قدميه عائدا الى دفء الغطاء كاتما أنفاسه فلا يعلن وجوده ، أو يرفع سبابته الى أنفه بـ « هوووس » خافتة ، زاجرا سعدية أيام كانت تقبل من الحوش نصف عارية ومبتلة ، ثم يشير الى لحمها المندلق من مزق الثوب ، ويشدها من ذراعها ليرجعها الى مكانها : اخزى على دمك .

ادار المسمار النائم على ضلفة الشراعة فى نصف الدائرة المحفور كمجرى له فبان وجه سيد امام خفير المأمور ، والمستول عن جر الخلق الى مكتب سيادته اذا كان الواحد منهم طرفا فى قضية أو مرفوعا عليه البلاغ من خصم .

وقف سيد بكتفيه العريضتين يتلمظ بفمه المختفى تحت كثافة الشارب المبروم من طرفيه ، يرفع يده الى فتحة الجلباب البلدى الذى ابرز اكناز الصدر والكرش الكبير ، فهو لا يرتدى - منذ عين فى هذا المنصب - البدلة الميرى الا حين يلجأ الى الطابور الاسبوعى حيث ينضم لباقي الخفراء ، يتم عليهم الشاويش ، ويدورون فى خطوات منتظمة بين أسوار السوق ، ويقضون نصف النهار فى « سلام سلاح » و « كتفا سلاح » وغيرها من التدريبات للحفاظ على اللياقة الواجبة .

و سيد ليس كالآخرين ، يعود من طابوره ليراعى الأرض ، أو يلتحق
بفواعلية المعمار ، وفى آخر الليل يرفع لبدته وسلاحه الى « النبطشجية »
على المستشفى أو على المدرسة الثانوى أو على المحكمة وغيرها من الأماكن
الواجب حراستها ، فهو قد ترك الأرض لولده يرعاها ، لأن عمله لا ينتهى
أبداً ، بالنهار أمام مكتب المأمور مهياً لسماع الأمر باستدعاء من يشاء ،
وبالليل يأخذ مكانه فى الخصى بجوار البوابة الحديد الكبيرة التى تغلق
على « فيلا ، المأمور » .

— نعم .

— تعال كلم .

سيد لا يقسول أكثر من هذا ، وعلى من سسمع هاتين الكلمتين
الاستجابة فى الحال فهو لن يتعتق قدميه عن الأرض حتى يصحبه معه .
وعلى يسرى أن يعود بظهره ليرتدى القميص والبنطلون ، أو يضع على
بدنه الجلباب المكوى النظيف ليدرا عن نفسه اهانة المأمور ، فالهدوم
تصنع من الرجال مظهرها ، وفى مثل هذه الحال يمكنها أن ترفع الى أعلى
أو تسفل الى أبعد درك .

رأته زبيدة يعود الى الحجرة بوجه تكائف عليه الظلام قبل حلوله ،
فسألته عن الطارق ، فاخفى وجهه فى ناحية بعيدة ، وجاءها صوته
تائها لا وضوح فيه : مشوار للمركز .

ضربت صدرها ، وازاحت علب الدواء بعيدا : خير !
وانحنى عليها يهدى روعها ، ويمد اليها يده بكوب الماء تبتلع
الحبات .

— لا تقلقى خمس دقائق واعدود .

— عملت حادثة ؟

— أبداً ثم اننى سليم قدامك . . كما ترين .

ورفعها الى وراء ليسند ظهرها على الوسادة ، وعاد ليقف بين
السريير والنملية ليدخل ساقيه فى البنطلون من تحت الجلباب وليسحب
حذاء المناسبات المكون بين النملية والحائط ، نفخ فيه نفخة اطارت
خيوط العنكبوت الواهنة المنسوجة بداخله فطار الغبار نحو السريير
فسعلت أخته وسحبت المنديل من صدرها لتضعه تحت فمها وامتدت
السعلة طويلا ، وانقلبت سحنتها ، وصارت حمراء كراس الديك
الرومى وخرج من الحجرة يتلوى بداخله ذنب فعلته ، وشعور بالاشفاق
على الأخت التى سيتركها وحيدة .

وقام سيد عن طاولة الميزان ، وقطع حديثه مع الحاج على ناصبها طوله ليسير مع يسرى فى الحوارى الضيقة ليتفاديا السير فى الشارع العمومى ، فلا يتعرض يسرى لكل من هب ودب ، يسأل عن السبب ، وهو يجهله حتى هذه اللحظة وان كان لديه شك بعيد بان الموضوع يتعلق بمخالفات المرور المتراكمة .



قال يسرى لاخته وابن عمه : قبل أن اخرج من دارى ظننت انى مطلوب لسداد مخالفات مرور محسوبة على من سنوات ، ولما خطوت فوق العتبة ورأيت الخفير يحادث الحاج « قرد » حسبت انها دسياسة من هذا اللعين ، وكدت ان ابصق على وجهه قبل السير مع الخفير ، وقلت ان فعلتها ستحسب من الاخطاء ، وسيشهد على الخفير امام المأمور ، فلأتماسك ، وعلى طول المسافة من الدار الى المركز حاولت ان اخلع شيئا من الرجل غير انه ظل محتفظا بالسرا ، ولا يبغى البوح ، قلت لنفسي فلأنحنى على حجر كبير من هذه الحجارة الملقاة فى الطريق واهشم رأس هذا البغل الكتوم الذى يفضحنى بمسيرى معه ، ومرة أخرى تماكنت أعصابى ، وسرت متواريا ، ادور حوله ، مرة اسبقه فاكون أمامه ، ومرة اتخلف عنه فاكون وراءه ، ولا اكون بمنحاذاته أبدا ، ابتعت له علبة السجائر عله ينطق ، ولكن المجرم اخفاها فى جيب صدره وكأنما حصل على حق شرعى له ، وطوى فمه تحت شاربته ، ولم يبع ، فقلت اسلم امرى الى ربى ، فركة كعب واعرف كل شيء ، كان قلقى من المفاجأة ، لاغير قلت : يا سيد رسينى حتى لا اوخذ على غفلة . ولم يزد عن : والله ما فى حاجة موضوع بسيط لا يستحق الدوشة ، فقلت : يا سيد لا تحاول الخروج بى الى شارع كبير مزدحم بالناس ، اختر معى الشوارع الصغيرة البعيدة عن الزحام . قال : أمرك وسرنا نتشمم روائح البطيخ الفاتحة من الدور المدفوسة فى ظلمات الأزقة ، نحاذر الدحرجة فى فتحات الابواب الهابطة الى أسفل ، واحمى حذائى النظيف من الماء المدلوق ومن « جلة » الماشية وفضلات العيال المرصوفة تحت الحوائط ، حتى خرجنا الى الشارع المسفلت ، وراينا جدران المركز السميكة وقضبان نوافذ المرتفعة واسطبل الخيل المفتوح من خلف ، ودرنا حول هذه الجدران لنصعد المرتفع الهابط علينا من جهة النهر ، وتركنا الحديقة الصغيرة الى يميننا ، ودخلنا من البوابة الواسعة التى يقف تحت مظلتها عسكري بزي خشن يرفع سلاحا فى وجه الداخل عليه .

اضطرب قلبي ، وانقلبت معدتي ، فأنا لا أحب هذا المكان ، واعمل
جهدي الا ادخله أبدا ولم تخط قدمي هذه البوابة منذ اليوم الذي عدت
فيه من الصعيد بجرار « أبو عيشة » يشيل حمولة العدس ، قضيت في
الرحلة ثلاث ليال في جو الشتاء الكافر ، دخلت به شونة البلد ، ورفع
الخمалون الأجولة الى الميزان ، ورحلت اترقب النهاية لأعود الى داري ،
الم عظامي في دفء الغطاء ، واستسلم لنوم عز على عيني لأيام ، ولكن
هذا الافندي عديم النظر ينظر الى في الختام ليقول : الحمولة ناقصة
عشرة كيلو .

قلت في نفسي : نهارك أسود . وقلت له : يا افندي اعتبرها خطأ
في الميزان .

قال : يدي تزن الذهب . قلت : اعتبرها فاقد طريق . قال : لازم
تحسب عليك فلم أع كيف رفعت يدي اليه ، وأمسكت بياقة قميصه
لاضرب رأسه في الحائط حتى سال منه الدم ، وسبقته الى المركز لأقدم
الشكوى ، وكان المأمور ابن حلال بحق ، ضغط على الافندي ليوقع
بالاستلام استجابة لرغبة أبو عيشة وهو صديق له يقضي معه السهرة
في داره .

ولكنني خائف من هذا المأمور الجديد ، و « أبو عيشة » بالتأكيد
ليس طرفا في هذا الموضوع الذي طلبني من أجله .
واتجه بي سيد نحو الحجرة المكتوب على نحاسة بابها المأمور ارتقيننا
الدرجات الثلاث ، وعبرنا بين الدرايزين الساقط عليه ثوب أصفر
شفيف نشرته الشمس الغاربة .

ورأيتهما على الكرسي العريض في جانب الحجرة ، والمأمور يميل على
أوراقه مشغولا بها ، فارتاح قلبي ، انحرفا بوجهيهما بعيدا لا يريدان
النظر الى ، بعد أن حدجاني بنظرة الاحتقار التي تليق بفعلتي مع
ابنتهما ، ضرب سيد بلفته على خشب الأرضية ، ورفع كفه المفرطحة
الى اعلى ذوائب عمامته « تمام يا افندي » فانتفض المأمور المستغرق في
أوراقه ، وألقى نظرة موبخة لهذا الجلف الذي دخل عليه كالقضاء
المستعجل . وأشار اليه بظاهر كفه كمن يطرد عن وجهه ذبابة ملحاحة ،
فعاد سيد بظهره ، وتقدمت أنا لاقف في مواجهة سيادته ، ولم يعزم على
الجلوس ، سألتني عن اسمي وسنى ومهنتي ، فأجبته بأحسن لسان ،
وبمنطوق واضح لا خلل فيه ، ولا اضطراب ، بعد استعادتي ثقتي
لنفسى ، وبعد أن الجمتم القلب الخائف ، وادركت تفاهة الأمر ،

وانحرفت بدانة المأمور نحوهما وسألتهما وهو يدفع قلمه الطويل جهتي، هو الشخص المذكور؟ وانحشر الرد في البلغم المخزون، فتنحنحنا في آن معا، وقال في نفس واحد: أيوه هو يا أفندم.

فاستدارت البدانة المحشورة في الكرسي العتيق الى، وارتكز المأمور بوعيه على الورق المفرد أمامه. واندفع النسران المحبوسان على الكتفين ليبرقا في نور اللبنة المدلاة من السقف: يا اسطى يسرى لهذين الرجلين حقوقا عندك فلماذا لا تدفعها؟ قلت له: يا أفندم لم يأت أحد من قبل ليخبط على داري ويطالبني بها، ثم اننى لم أنكرها من قبل، وعليهما اثبات ذلك، ثم كان من الأولى أن يحضرا الى قبل القدوم الى هنا ويزعجا سيادتك.

فطافت بسمة على سمرة وجهه، وصر الكرسي تحته حين عدل ظهره الى الوراء قائلا: ياسيدى لم نخسر شيئا، كانت فرصة لنراك ونرى الرجلين الطيبين يعنى انت معترف بحقهما؟ قلت: ياسيادة المأمور هذا ليس بحقهما انه حق الله ولا يجوز النكران، بينى وبينهما القسيمة ليأخذا كل ما هو مسجل فيها. فزمجر الرجلان، وطرقت أذنى كلمات مثل « المؤخر » و « النفقة » غطت عليها كلمة المأمور: عداك العيب، وأشار الى بالجلوس، فأخرجت المحفظة من جيبى وسحبت الورقة المطوية، وفردتها أمام عينيه، فقال للرجلين: هنا بيان بالأثاث والمصوغات، والجملة ١٥٠ جنيها. فزاما مرة أخرى، وتحركا من موضعهما ليرحا جلستهما قليلا، وقال أحدهما: ما تراه سيادتك ولحقه الآخر بقوله: ولكنها « ولية » ولها مثل الأخريات مؤخر متفق عليه من قبل فوجهت كلامى للمأمور: مؤخرها خمسون جنيها، وذلك من خمس عشرة سنة فأجعله مائة على خيرة الله.

فهز المأمور رأسه، وضرب بالقلم على شسفتيه وعلى جبهته العريضة، وسال: ومستعد للدفع؟

فقلت: ياسيادة المأمور اما عن العفش فهو شيء لا يذكر، بقايا خشب اتت عليه القراضة والسوس، فلا يعود ينفع لشيء، وعندى اخت مريضة تنام عليه في الدار، فبدلا من رفعه من تحتها، فتخلو داري من كل اثاث، ادفع المبلغ الموضح بالقسيمة وعليه المؤخر وبالإضافة على.

فاندفع أحدهما ليقول بعصبية: عفش بنتنا ولا ينقص خردلة.

فأشار إليه الأمور بالصمت ، وعاد ليسألني : وهل أنت مستعد للدفع الآن قلت : معى مبلغ قليل أدفعه مقدما ، أما الباقي فيأخذان به ورقة على ضمانه سيادتك . حاولا الرفض والامتناع غير المأمور حسم الأمر وكتب الورقة بيده ، ودفعت ما كان بجيبى ، وقمت من عنده بوعد ألا يمر شهران بدون قضاء هذا الدين ، وخرجت لأسير في هواء الشارع الذى مسح عن جبهتى عرق الحبسة في الحجرة المغلقة ، ورأيتهما يندفعان الى ليبصقا بغل ويرمى كل واحد منهما سبة تريح نار صدره الملتهبة « ياندل يا قليل الأصل » « تأكلها لحما وترميها عظما » « هى بنت أصول وستزوج سيد سيدك » ، وأنا تفاديتهما ، ودخلت الأزقة الضيقة التى يجهلانها ، وتركتهما وراء ظهري فى الشارع المسفلت ، لا يقدران على تجاوزه حتى لا يضلا طريقهما فى البلد الغريب .

وقال يسرى : وبهذا تنتهى حياتى كلية مع سعدية وعلى أن أبدا حياة جديدة .

قالت زبيدة : الحمد لله انك تخلصت منها ، ولا أعرف كيف كنت تحتملها ، أنا نفسى كنت أقرف منها ، ولا استسيغ لقمتها ، يكفى العمر الذى قضيته معها دون فائدة ليصلح الله حالها ويوفقها مع كهل لا يريد منها غير الخدمة . . أما أنت فعليك تعويض ما فات ، أبحث عن بنت شاة تملأ دارك بالذرية ، أما عن خدمتى فلا تهتم . سأخذ الله بيدي ، وبقدر طاقتى سأعمل على خدمة نفسى فلا تشغل بالك ، والبركة فى الخالة سنضغط عليها لتبقى معنا هذين اليومين ، ولا حاجة لابنة العم التى تتأفف حتى من التردد على للسؤال عن صحتى ، ولا حاجة لأحد من القريبات فكلهن يتهربن منى كأنى أحمل الطاعون فى صدرى .

قال حسين : حاشا لله ، أنت تأمرى ، كلنا تحت أمرك ، فأنت أخت لنا ولكن كما تعلمين كلنا مشغولون ، وزبيدة أختى كان الله فى عونها ، لا يمكن لأحد منا تصور قدر معاناتها ، وأنا - يا ولداه - أراها كلما دخلت حجرة « العدة » جالسة فى الشباك سائدة رأسها على خدها أصبح عليها وأمسى فلا أكاد أسمع لها ردا ، وفى مرات كثيرة أرى الدمع يسيل على خدها ، وكلما رأتنى تسرع الى كفكفته ، وفى كل مرة أحاول الاقتراب منها لأطبب على كتفها واسألها : مالك يا زبيدة ؟ فيه حاجة ؟

وتكتفى برد أحس فيه العتاب وفقدان الأمل فينا جميعا كأخوة :
متشكرة . فأرجوكم لا تلومينها ، خالتك أولى الناس بخدمتك ، فهي
لا ضرورة لها في دار أخيها ، عنده زوجة تهد الجبال ، وهنا - سينوبك
من الله الثواب - ستجد اللقمة النظيفة والهدمة النظيفة والنومة
النظيفة .

وقبل كل شيء على يسرى التفكير بجدية في بنت حلال تحي هذه
الدار ، وأنا أعرف أن اليد الآن قصيرة ، ولكني أقول : البركة فيك ،
فكل شيء مرجوعه لشجرة أبيك ، بيدك أنت أحيائها ، ثم اني -
لامؤاخذه - وهذا تطفل مني سمعت أن زوجك لا يدفع لك حقك كما
ينبغي ، ولم أره يهتم بزيارتك منذ اليوم الذي تركك هنا ، وكان
الأولى له أن يرعاك ، ويستطيع - والحمد لله - أن يكتري لك خادمة
تهتم بشئونك .

فأنا أقول - والأعمار بيده وحده - بعد عمر طويل لا يستحق أن
ياتي لينافس أخاك في أرض أبيك ودار أمك ، ونصيبك من الطاحونة ،
فأسمح لي بمزيد من التطفل لأقول : عليك من الآن تسجيل كل
هذا في عقود رسمية باسم أخيك ، وأنت عاقلة ولله الحمد ولا ترضى
أن يؤول خير أبيك إلى غريب ، أنا أعلم أنني أتكلم في موضوع حساس ،
ولكني أعتقد أنني أقول الحق ، والرأي رأيك في النهاية ، وكلنا
يتردد في صدره النفس ، والروح ملك صاحبها ، ولا ندرى ما مصيرنا
غدا « ولا تعلم نفس بأى أرض تموت .. »

وعلى كل حال منظر هذه الدار لا يعجبني ، واذ كنت تخشين يسرى
ليغدر بك بعد أن تكتبي له انصبتك ، بإمكاننا كتابة ورقة مضادة
نوضح بها أنه لا يجوز التصرف في هذه الملكية إلا بعد عمر طويل ،
وأنا مستعد للتوقيع عليها وأترككم الآن بعافية لأنى جوعان ومازلت
كما ترون بهدوم الشغل على أن أزيلها عن بدنى ، واشطف جسمي
وأكل لقمة وأريح دماغى قليلا من دوشة الطاحونة ، ولا تنسى
يا يسرى مشوار الغد ، سأجمع كل البنات في الدار الكبيرة ، وسأمر
على الدار لأسأل عما إذا كان ياسر قد جاء سفره ، والخوف من أن
« يطنش » ، ويستهر بهذا المشوار ، فحضوره واجب وإن لم يأت
سأضطر المرور على السنترال لأشد له « تلفراف » ، ربنا يهد
حيل حسن كما هد حيلنا .

وفكرى يازبيدة فيما قلت لك ستجدينه عين العقل .. والله .

الخروج الاول :

وقفت العربية « البيجو » الطويلة البيضاء في الجرن ، فخرج على صوتها الصبية من ظلمات الدور الطينية واحاطوا بها ، كانوا يلبسون الهدوم الملهمة ، يقفون بأقدام صغيرة موحلة على القش المتناثر ، يهشون الذباب عن وجوههم ، ويحلقون بشراة في المربة .
انفتحت الابواب من الجانبين ، ونزل منها الاولاد والبنات ، سار الاولاد جهة الجسر والبنات من خلفهم بجلابيبهن السوداء وطرحهن الخفيفة .

التفت حسين ليقول ليسرى : ربع ساعة .
الدور الصغيرة الواطئة تفتح ابوابها المشيئة على التربة الصغيرة ، يسبح في مائها البط ، وينام على طينها وز ابيض .
سالت زينب : حنمشی كثير ؟
رد حسين : بابها المفتوح ده .
مروا على غرزة يجلس على مصطبتها رجال يرتدون الخلع الممزقة تدور بينهم الجوزة
قال الاولاد للرجال : سلام عليكم .
فردوا جماعة : سلام ورحمة الله وبركاته .
ولم يعودوا الى الجوزة حتى ساروا مسافة طويلة ، ودار بينهم الهمس .

قالت زينبات : ببصوا قوى .
قالت زبيدة : زمانهم ببسالوا رايحين فين ؟
قال حسين : فيه حاجة خافية .
قال حسان : اكيد عارفين .
دخل حسين من الباب المفتوح ، ووقف حسان مع البنات بالخارج كن ينظرن من تحت الطرح الى المكان ، وشاهدن الرجلين يجلسان على المكتب القديم المرتفع بخشب حبيبي ، فوقهما كانت صورة عبد الناصر والصورة الأخرى كانت لفلاح مع امرأة يضحكان بابتهاج بينهما ولد صغير يظفر السرور من عينيه السعيدتين ، وعلى

يد المرأة رضيع ترك الثدي الكبير الممتلئ لينظر الى الامام ، وقرا
حسان أسفل الرسم « محصول وفير = حياة سعيدة »

سألت زينب : هو كذا بس ؟

قال حسان : انت فاكركه ايه ؟

قالت زبيدة : حرام والله .

قالت زينات : يتعلموا ويتعبوا والاخر يقعدوا على مكتب زى

دا .

قال حسان : بيتعاملوا مع فلاحين .

سمعوا اخاهم الاكبر ينادى عليهم من الداخل : تعالوا .

فدخلوا المكان المظلم ، لا تضيئه غير نافذة وحيدة بقضبان

حديد ، تكس تحتها صناديق مرسوم عليها جمجمة وعظمتان

متقاطعتان ، قام لهم الرجلان فمدوا لهما الايدي من فوق رأس

حسين الذى جلس على الكرسي المواجه للمكتب ، قال احد الرجلين :

تفضلوا ونادى الآخر بأعلى صوته : يا عبده .. هات كراسي

ظهر وجه عبده وراء قضبان النافذة ، وسأل : منين ؟

قال له : تصرف .. من اى مكان ، شوف فى المخزن .

قالت زينب : ومفيش كراسي كمان ؟

قال الرجل الذى يرتدى بدلة كاملة : معلىش .. الناس هنا

واخده على الحصر .

قال حسان : مش مهم .. نخلص على طول .

قال الرجل الذى يرتدى القميص الابيض : لسه حناخد

وندى .

قال حسين : معنا عربية ، والسواق ليقلق .

قال الرجل الذى يرتدى البدلة الكاملة : الدنيا ما طرتش .

دخل « عبده » بكرسيين ضعيفين ثبتت مسنديهما خشبتان

غليظتان ، قام حسين عن كرسيه وقدمه ل زبيدة ، وظل هو

و حسان واقفين ، ثم اكتشف حسان انه بالامكان الجلوس على

طرف المكتب المترب المكون فى الركن ، واكتشف حين الصناديق

فجلس على واحد منها ، وسأل : خير ؟

قال الرجل الذى يرتدى البدلة الكاملة : انا « عبد الواحد » .

قال حسين : حضرتك المشرف . قال عبد الواحد : والمكلف بموضوعكم .

وطلب من زميله فتح الدفتر ليسجل الاقوال .
تهامست البنات بصوت مبهم ، فنظر اليهن وقال : ماتخافوش .
قالت زينب : الله يجازيه .

وقالت زينات : مخرجرنا في كل حنة .
قال الرجل الذي فتح الدفتر : مفيش ميراث بالسهل
قالت زبيدة : انا شفت الرجل دا .

سألت زينات : فين ؟

قالت زبيدة : الصبح كان على القهوة معاه .

سألت زينات : قهوة مين ؟

قالت زبيدة : القهوة اللي قدام « السنترال » لما التاني لمحنى

زغده فدور وشه

قالت زينب : ماتنسيش ان التاني عضو في جمعية زراعية

قال عبد الواحد : المساحة سبعة فدانين .

قال حسين : ايوه .. وبيدعى انه له اتنين .

صرخت زبيدة : فدانين أمه .. لامؤاخدة يا حسين .

قال عبد الواحد : ياست حطك شوية ، ومعاه اثبات ؟

قال حسان : سرق العقد المسجل من دولاب المرحوم .

همس عبد الواحد بكلمة في اذن زميله ، وسأل . وانتم معاكم

ما يثبت ؟

قال حسين : المرحوم كتب عقد ابتدائي بالفدانين مع أمى بيع

وشراء ولو كان ما يطلبه حق شرعى كنت من باب أولى أطالب به

انا راخر ، ولانى اعرف ان الحاج كتب عقد اجمالى بخمسة فدادين

باسم أمى ايام شرا الارض ، لانهم ماكانوش يسمحوا باكثر من

خمسة ، كان له اتنين منها وثلاثة للحاجة أختى ، وهى سرعت

بتسجيل نصيبها والحاج أهمل التسجيل واعتمد على العقد

الابتدائي .. انما تقول ايه في الطمع !

قال عبد الواحد : بدل الجرى في المحاكم قعدة المصطبة

أحسن .

قالت زينات : هو الى عاصى

قال عبد الواحد : احنا جهة غير تنفيذية ، ولا نقدر نعمل حاجة الا بموافقة الورثة .

وقال الآخر الذى يرتدى القميص الأبيض : علينا تثبيت الوضع على ما هو عليه فى اعلام الوراثة ، وان رفض حد من الورثة القسمة منقدرش نقسم الا بحكم محكمة .

قالت « زينب » : محكمة ايه ؟ يخطط راسه فى الحيط .
ظهر راس عبده من النافذة ، تعلق بيده فى القضبان ، وظل ينقل نظره بين الجالسين ، لمح عبد الواحد فصاح : بدل وقفتك رح هات شاي للجماعة .

قال حسين : لا شاي ولا حاجة .. عايزين نخلص .

قالت زينب : شاي ايه !

سأل عبد الواحد : وانتم كل الورثة ؟

قال حسين : ينقصنا واحد بس مسافر ، والحاجة طبعاً منحازة معه .

قال عبد الواحد : هو بس المدعى .

امالت زبيدة راسها فى اذن اختها وهى تنظر الى الجدار اعلى راس الرجل الذى يكتب ، ابتسمت اختها ، وسالت زينب : فيه ايه ؟

قالت زينات : ابدأ .. بتقول لسه معلقين صورة عبد الناصر؟

ادارت زينب راسها الى الجدار ، ونظرت الى الصورة ،

قالت : ٢ .. والنبي .

قالت زبيدة : انا شفته على القهوة .

سالت زبيدة : والتانى كان معاه ؟

قالت زبيدة : بقولك زغده فى جنبه .

قالت زينب : والنبي لاساله .

قالت زينات : بلاش احراج .

مشوار المدينة :

قالت له : اذكر يا ياسر يوم كتبت لى الرسالة بالقلم الرصاص ؟ لكم كبرت .. لو كنت انجبت لصار لى ولد فى سنك ، أو أصفر منك قليلا ، ضحكنا للهجتك ، وعلى خطك المنعكش ، كان كل سطر نازلا من أول الصفحة الى آخرها ، وقال كمال يومها أن خطه عطشان جدا فهو ينزل البحر جريا ، وطلبت أمى سماع الرسالة ، كم كان سنك يومها ؟

— كنت فى السنة الرابعة الابتدائية ؟

— وأنا يابلة أحبك جدا ، وانتظر زيارتك الصيفية بفارغ الصبر ، حصلت على أجازة آخر العام ، ولا أجد ما أفعله ، كل أصحابى هنا عندهم كرة من الجلد يلعبون بها ، وأنا لا أملك كرة مثلهم ، وأبى يرفض أن يشتري لى واحدة ، فأرجو أن تشتري لى واحدة من الاسكندرية الحلوة ، وترسلينها مع خالتى ، أو تحضرينها عند الزيارة .. وأرسلت لك واحدة كبيرة .

— قضيت المدة انتظر عودة الخالة ، وحين سمعت أنها جاءت من زيارتك ، عملت انى أزور أبى الذى كان يقضى مدته على ميزان الطاحونة ، قعدت امامه أرقب بابكم ، رغم اننى فى مثل هذه الزيارات احاذر الا ترانى الخالة ، لأنها دوما تفتش جيوبى لترمى ما جمعت من مسامير وأغطية الكاروزة وحببات النوى ، وتطلق السباب لأمى لاهمالها لى وعدم عنايتها بنظافتى ، ولمحت الخالة من بين زجاج الشراعة ، وبقيت على قلقي حتى اشارت الى ، وذهبت اليها ، وهى — رحمها الله — جعلتنى أترقب فترة طويلة ، لترصد ملامح وجهى حتى رفعت السلة التى كانت تشيل فيها الزيارة لتخرج كرة خضراء كبيرة ، وأخى « حسان » — جزاه الله — طلب أن الالعبه بها ، ولكنى رفضت ، لأنى ألعب مع زملاء المدرسة ، وهو الكبير عليه بالبحث عن أصدقاء من سنه : وحشر ابرة الخياطة فى بوز حذائه ، وعاد ليطلب أن يشوط بها مرة واحدة ، وكانت هذه الشوطة هى

نهاية الكرة وصارت تحمل رقعة حمراء كبير من غير لونها فشوهت ، ولم تعد كرة جديرة بالفخر أمام زملاء .
- أنا اذكر زيارتك لنا مع أمك ، كنت صغيرا ، اعتقد أنك لم تكن قد دخلت المدرسة بعد .

- كنت في الاجازة ما بين السنة الاولى والثانية ابتدائي .
- وكنت تجيد تقليد الأشخاص ، لقد قضينا حولك سهرة ممتعة ، ضحك فيها كمال كما لم يضحك ابدا ، نقلت الينا شخصيات البلد بحذافيرها ، قلدت الخالة ، وزوجة أبيك ، وشحاته الخياط ، وكامل القهوجى .. وغيرهم .
أتذكر يوم تشبثت بتلك البجعة الزجاجية المثلثة بالصبيغة الحمراء ؟

- كانت أمنيته الجميلة .
- تعلقت بها . وزجرتك أمك ، غير أن أمي قالت سأشتريها أنا من مالى ، وانحرفنا الى الرجل الذى يصف البجعات الرقيقة على صندوق فوق طاولة بشارع صفية وسألت أمي . بكم ياعم ؟ فرد : بخمسة قروش للواحدة ، ورفعت أمي واحدة من منقارها الرفيع لتقول : كم يا خويا ؟ فأجابها الرجل بأشمزاز . قلت بخمسة قروش ، قالت : ولكنها غالية جدا .. نأخذها بقروش ؟ وهووب ، انقصت رقبة البجعة ، وسقطت على الأخريات فحطمت خمسة منها ، وسألت صبيغتها كأنها الدم ، وجرينا جميعا ، أنا أجرك من يدك ، وأنت مصر على النظر الى البجعات باكيا مصمما على امتلاك واحدة ، وأمى وخالتى يهرعان بالجلابيب السود يجمعان الطرح التى نشرها الهواء ، والرجل من ورائنا : يا فلاحين يا بهائم ... حقى يا أولاد الكلب ويقف زحام الشارع ليتفرج علينا ، ولم ينقلنا الا الاتوبيس الذى انحسرننا فيه على عجل .

- ويوم زرنا صديقتك التى تسكن الشقة بالدور الرابع فى عمارة تطل على البحر ، دخلتم انتم حجرة الصالون التى بهرتنى نجفتها الكبيرة واثائها اللامع الذى يملأ مساحات الشقة الفخمة ، كانت أفخم شقة دخلتها فى حياتي ، ولا انسى المرايا التى تمتد بطول السلم من الدور الاول حتى اخر المماره ، كل هذا بهرتنى ، وانتم أجبرتوني على الدخول مع أطفال صديقتك لتفريج على التلفزيون وكنت حديث المصممة به ، لم أره الا فى زيارة لاختي

الحاجة ، ورفضت مصاحبة العيال لأنى مرتك وخائف من كشف
لهجتى الفلاحى وتفاهة ملىسى الذى شكلتنا مى ، قميص من هنا
وينطلون من هناك وحذاء عثرت عليه عرضا ، فكان لابد أن أصرح
حين أرى البحر وأنا على هذا الارتفاع ، كانت الشرفة مفتوحة ،
وانوار الاسكندرية تتماوج مع ماء البحر السوداء ، فصرخت
الحقونى .. الحقونى .. الدار بتقع .

فضحك الأطفال للهجتى ، وسخروا من رعبى ، وواصلت
الدق على الباب ، وجاءت صديقتك لترفعنى اليكم فى الصالون ،
بوجهى الذى هرب منه الدم

- كانت خالتى - الله يرحمها - تعزك جدا ، مرة جاءتنى فى
زياره مع امى ، ونزلنا محطة « الرمل » ، أبحث عن خالتى التى
كانت تجلس خلفنا مع امرأة اشتبكت معها فى حوار كأنما تعرفها
من ألف سنة ، ولم أجدها ، ورحت أنا وامى نبحث عنها ما بين
محطة الرمل والمحطة السابقة ، وأخيرا عثرنا عليها تخرج من محل
يبيع الكتب ويبيدها كتاب لتوفيق الحكيم ، ما هذا يا خالة ؟ وترد
على معنى اسكندرية حتكنى .. ناسها عرب زينا . وما هذا
الذى بيدك ياخالة ؟ قالت : شفت الكتب فى « الفاترينة » قلت لنفسى
لابد من هدية لياسر وهو لا يحب شيئا فى الدنيا حبه للكتب ،
وتاهت منى الاسماء التى يرددوها امامى ولكنى تذكرت اسما منها
فقلت للرجل : ما لقاش عندك يا اخويا كتاب لطفه الحكيم ، وظلم
الرجل ابن حلال عرف انى ...

ودخل يسرى ليقطع سيل الذكريات ، ويفرك يده ، ويقول
لياسر : خلصتم حكايات ، بنا تقضى ساعتين « روقان » مزاج .
واستاذن ياسر من زبيدة ودخل مع أخيها الحجرة الأخرى ،
فوجد يسرى قد أعد الطبخة على سنجة عشرة ، النار مدفونة
بالموقد ، والحجارة مصعوفة مدعمة بالمسل وقطع الحشيش
الصغيرة ، والجوزة نظيفة ينضج ماؤها البارد على ورقة الجريدة
المفروشة ، واختار ياسر الشلثة بين السرير والكنبة ، وسحب
اللغة التى كان قد أعطاها ليسرى ونض عنها الورقة .

- من مصر ؟ أكيد .

- أبدا من هنا

- أعوذ بالله .. لا نصيب لى فيها

- أنا لا أفهم في الخمر واحضرتها خصيصا لك .
- لا يا عم توبة ، لن أضع على لساني قطرة من خمر هذه المخروبة .. اشرب وحلك .
- أنا أعرف انها كمية من السبرتو .
- توكل انت على الله .. الكباية قدامك .
- وبدا يحرك النار المدفونة ، ويسحب الجذوات المصهولة الى المصفاة ليهشمها بيد الماشة وينفخها فتصحو حباتها الياقوتية ، وينقلها الى الحجر تلو الحجر ، متنقلا بالغابة بينه وبين ياسر الذي جرع من الزجاجة دون حاجة للكوب .
- عرفت ان المركز طلبنى ؟
- خير !
- ألسنت سعدية بعثت رجالها ليطالبوا بحقوقها .
- وكيف تصرفت ؟
- ولا حاجة ، وقعت لهم على ورقة بالمبلغ المطلوب .. تصدق ان أخاك حسين ولد شهم .
- أول مرة تعترف
- صحيح .. استطاع مواجهة زبيدة ليطلب منها كتابة الدار ونصيبها في الأرض والطاحونة باسمى .
- شجاعة يحسد عليها ، وكيف كان جوابها ؟
- نزل عليها سهم الله ، وهو قال الكلمتين وجرى .
- ألهم التنفيذ .
- يتها لى أنها ستفعل .. لكنها بحاجة لدفعة أخرى .
- تعرف أن علاقتي بسامية انتهت تماما .
- تقلبات عاطفية .
- لا .. هذه المرة يجد ، بعثت لها زبيدة برسالة في الزيارة الماضية أقول لها ان ما بيننا انتهى الى الأبد .
- واشتريت الزجاجة لتنسى ؟
- أنسى هم الدنيا كلها ، وهم العائلة التي دخلت دواماتها .
- وهم مشوار المحكمة في الغد .
- دعك من المحكمة .. أظن القطيعة تكررت بينكما ؟
- هذه المرة هي النهاية ، فهي ترى الطريق مفروشا بالورود ، وأنا أراه مسدودا تماما هي ساذجة لا تعرف شيئا ، وأسوأ من

هذا ترانى فارسا مغوارا ساصحبها الى الفردوس الحقيقى ، وهذه مسئولية ، المستقبل الذى اراه لا موضع فيه لاقدامنا لانه سيدوس بوحشية على احلامنا الخضراء .

— وانا اؤكد ان هناك عودة .

— انت لا تعرف شيئا .. هل اعيد عليك ما قلت الف مرة العدو فى الدار .. العدو فى الدار وخنجره مسلطا على الرقاب والذبيحة مشلولة اليد .

— قلت لى مرة ان احدهما لا اذكر اسمه قد ضرب الارض بقدمه ، وصاح فى المحكمة بعد ان تظاهر بالتراجع عن افكاره « لكنها تدور » وانا اقول لك بعد هذا الكلام « ولكنك تحبها » .. مساء الورد .

— اليوم نلبد فى جحورنا ، نعانى صراع الكابوس الذى نراه بوضوح ولا نملك الخروج منه بمجرد حركة من اجسادنا .
— معنى هذا ان ابحث لنفسي عن حفرة وادفن ..

— لا تسخر ارجوك ، فاكّر زمان لما كنت أشكى لك انى لا اقدر اقول لها « بحبك » فاكّر لما كنت اكلمك عن حلمى بمساحبتها فى مشاويرى بين الفيضان ، اقطف لها وردة حمراء ، ازرعها على صدرها ، وانا م عليه احرصها .

— مساء النور على البنور .

— خربشتنا الدنيا ، زمان قدرت اقول لها بالعافية : عاوز اشوفك ، ولما حدث ذلك ، قعدنا لا عارفين نبدا ، ولا عارفين نتكلم ، كل واحد منا ساكت يسمع صوت قلبه الخائف ، وقلت كلاما كثيرا لا صلة له بالموضوع ، وكانت تنصت وتبتسم ، ولما افكر انى ارفع يدي احطها على يدها ، كان جسمي كله يترجرج وادوخ ، كلمتها عما قرأت من كتب ، ولمحت من بعيد لقصة العاشق فى الام فرتر وابتسمت ، وسالت : معقول !! فيه عاشق ينتحر علشان حبيبته ؟ وقلت لها : وفيه اكثر . وكلمتها عن جنون « قيس » وقسرات لها من اشعار « جميل » و « كثير » .

— كنت « روميو » ولا اعرف .

— فى قطعة قبل هذه كتبت لها رسالة انهى فيها العلاقة ، لم يمر اسبوع وكنت ادور حول بيتها كالمجنون ، وكنت أمر على

شارعها المظلم ، وأشوفها من شراة الباب في نور الصالة ،
تقص قماشة . أو قاعدة على الماكينة تخطط هدم الصيف ، وكل
مرة كنت أمنع نفسي من الخط على الباب ، وكنت أمنع نفسي من
الكتابة إليها وأقول : سامحيني .

- وفي هذه المرة مستقول سامحيني .. اشرب .

- اسمع .. ولاتقاطعني .

- طيب .. أغبر الجوزة .

- غيرها من ماء القلة ، بعد ذلك تجرات وحصلت على موعد
في القاهرة ، انتظرتها على المحطة . ولما القطار دخل بين الرصيفين ،
رأيتها نازلة في زحمة الركاب ، ضحكت لي من بعيد ، وقربت أنا
منها ، أمسكت يدها ، وأخذتها الى « الكافتيريا » كانت ممثلة
برائحة الدخان والقهوة ، وقعدنا تحت الشباك نبص على الميدان ،
ونتأمل رمسيس وهو يرش الماء من قدميه في الحوض الواسع ،
ولم أصدق أني أجلس معها على نفس الطاولة التي التقى عليها
بالصديق الذي يمدني بالورق السرى ، ولما الشمس لسعتنا ، قلت
لها : نمشي .

قالت : نروح فين ؟ قلت لها : الشقة ، ابتسمت مخرجة ،

وقالت : نتمشي في الشوارع أحسن ، قلت لها ، الدنيا حر .

وسألت : صاحبك في الشقة ؟ قلت لها : في الشغل .

- تحت السواهي دواهي .

- ومشينا في الشارع الطويل الضيق ، نخط في اكتاف

الناس ، وهم يخطون في اكتافنا وأنا ممسك بيدها المرقانة ، مرة

نمشي بجانب ، ومرة تغلت اليد ، وأرجع فأمسكها كنت أريد تحويط

وسطها بيدي ، لكنني خجلت ، وقلت لنفسى : هي كمان حتكون

مكسوفة ، ووقفت اشتري سجائر من الدكان ، كانت هي سبقتني

بكم خطوة ، وشفتها من ظهرها في الجيب الخفيف والقميص نصف

الكم ، وكان شعرها يلمع بالفازلين وينزل على اكتافها التي ظهرت

منها ملامح باهتة لحالة « الستيان » وكان عرقوب رجلها ناشفا ،

ويضرب بشدة مع الجزمة على الأرض . المبلطة بطوب أسود ،

وأشفقت عليها ، وساعتها ماتت الرغبة العنيدة ، وساعتها تمنيت

الفرار منها ، لادخل أول عطفة على يميني ، ولكنها نظرت ورائها ،

وركنت على جنب بانتظاري ، ومدت يدها لتأخذ كفي ، ومشينا

في الحارة ، ملت بوجهي على الأرض ، وقلت يارب ما حد ياخذ باله ،
وتشجعت ، وقلت : يارب ماتاخذ بالها اننى مهزوز ومتردد .
— خد نفسا .. الله يجازيك علقت أنفاسي .

— وفي الشقة .

— كفاية وقف .

كان نور الشمس القوي يتسرب من الشبابيك ، ومفروش
على الحيطان ، وفوق السرير على شكل خطوط ، فخففت من
هدومي ، وقلت لها : اجيب لك بيجامة من بتوعى ؟ ضحكت ،
وقالت : كدا أحسن .

— كفاية خلصت الزجاجة .

— ارتعشت أصابعها وهي نائمة في كفى ، ونفض عرق في رقبتها
لما مشى عليه أصبعي ، وشفافيتها فلفصت لما أردت لها في قبلة .

— بووب .. بووب .. بووب .

— دفعتنى بحنان على كتفى ، وقالت : لا... وانشغلت أنا بفك
زراير قميصها وانفرط منها نهد صغير ظل من ظلمته ووصـوص
بخوف لرأى ، وعيناه بربشت كأنما لم ير نورا في حياته ، وقالت :
لا .. ودفعتنى بحنان على كتفى ، ونزلت بالراحة على ظهرها
المحبوس في ذراعى .

— وتقول أقدر أنسى .. أقطع ذراعى أن مارميت التماسي قبل
ما تدخل دارك .

— أنا أدري بنفسى

— لو كنت تدري ما اشتريت خمرة فاسدة من هذه المخروبة .

— حاجة تلطش الدماغ والسلام .

— ما حكيته هذا ليس شيئا ، أنا أقص عليك حكايتين من

تجربتي .. وأخذتها في آية شقة ؟

— شقة شارع « الفلكي » .

— فإكر أيامها .. في أول أيامك بالقاهرة جئت الى مسكنى ،

وذهبت معنا الى المطار لنودع زبيدة حيث تلحق بزوجها ويومها ،

كنت تنفخ من الفيظ ، وتعانى الاحساس بالغربة ، وأنا قلت لك

اصبر ، غدا تقطعها ثلثا ، ولا تقدر على لك من شوارعها ..

وحصل .

— حصل بعد مجاهدة شديدة .

— بعد أن تركت السكن في هذه الحجرة الوحيدة فوق السطح ،
في شارع الفلكي كنت قريبا مني ، أمر عليك مساء كل خميس
لاجلس الى جوارى في التاكسي ، ونقطع القاهرة طولا وعرضا ،
وأعود بك الى مسكني ، نتعشى ، وندخن الانفاس ، وتنزل انت
آخر الليل متسلطنا .

— وكانت سعيدة تجلس في مواجهتنا ، وانت من حين لآخر تقول
لها : قومي من امامنا يا امرأة . وهي ترد عليك واللبانة تحت
لسانها : ايه يايسري انا قاعدة واخيرا تقوم بعد ان تقول لها :
سنتكلم في قلة الادب .

— وذات صبح نزلت من الشقة لاجد عمال حلوان يسعدون
الشوارع من اول محطة باب اللوق حتى دخلوا علينا شارعنا بحى
« الشقافة » وخفت عليك ، وظننت أنك ستلحق بهم ، وذهبت الى
شقتك لاجدك مستغرقا في النوم وقلت لك : اصحى ياعم انت نائم
هنا بينما الثورة هاجت في الشوارع . وصحت وانت تدعك عينيك .
فين ؟ فين ؟ واخذتك من يدك الى بوابة العمارة واشرت الى زحام
العمال الذى يملأ الشارع ، وقلت لك : اليس هؤلاء هم الطبقة
التي تتحدث عنها كتبك ؟ وعدت بظهورك لترتدى هدومك على عجل ،
حاولت منعك لانى اول من سيسأل عنك في البلد ، ولكنك رميت
بنفسك في الزحام ايامها كان من السهل تصديق كتبك لان الأمور
كانت عيانا بيانا في الشوارع كان لا يمر شهر دون مظاهرة او
اضراب ، أنت لم تحضر مظاهرات الطلبة ؟

— جئت الى القاهرة على حسها ، وكانت الجامعة تعيش على
ذكرها ، ولكن ما الحكايتان اللتان تقصهما على ؟ .

— حكايتان داعرتان .. ولكنك أنت الذى بدأ .

— ماشى .

— السر طبعا في بشر .

— طبعا .

— أبدا بحكاية البلد أم بحكاية القاهرة ؟

— أبدا بآية واحدة وخطصنى .

— أبدا من هنا الاول .. بعد وفاة أبى أجرت الأرض لعبد الهادى

ذلك الرجل الذى تراه يرعى الغنم الآن . وكان المفروض أن أمر
عليه قبل الفجر ليلحق دورنا في رى الأرض ، وقضيت ليلتى في غرزة
« الجعان » وضيمت بعض الوقت في دفء الدار ، لا يغمض لى

جفن حتى أنى بوعدى فاوقف الرجل ، وسرت فى جليطة الفجر
تحوطنى الشبورة من كل جانب ، وأنفخ البخار من فمى ، ولم تفلح
الكوفية والطاقيه والجاكته فى منعى الدفء ، ووجدتنى أعطس فى
دفعات مفاجئة ، وطرقت على الرجل داره ، فهب الدفء من
داخلها ، وكانت زوجته قد قامت لتفتح وهى مبلولة الشعر ،
وفهمت أنها خارجة لتوها من الطشت ، فمازالت بقع الماء مرشوشة
على ثوبها ، وسمعت فى قاعة الفرن ينزح الماء الى جسده ، كانت
ليلة جمعة ، لا اكتمك كانت المرأة شهية للغاية ، ويبدو أن أخانا
لم يشبعها ، وهى المرأة الشابة الريانة التى يحدد ثوبها فلقتنى
مؤخرتها الرجراية ، رمت لى النظرة فقلت فى نفسى : أنا قتيلك هذا
الصباح .

وخرج عبد الهادى خجلا ، يللم طاقيته على شعره المبلل
ليجدنى أعانى رعشة شديدة ، تهز كل بدنى ، وضاعفت دفعات
العطس ، وشكلت وجهى بسحنة الأعياء ، قلت : يا عبد الهادى
يبدو أنى لا أقدر على مصاحبتك . قال : أخذت برد ياحلو .. اعملى
له شايًا يا فتحية واعصرى ليمونة .

قلت له : أنا أروح أحسن ، وقال الرجل : لم جسدتك فى
البطانية الصوف وخذ لك غفلة ، ستقوم كالحصان .
وذهب هو ، وتركنى مع المرأة ، وقمت فعلا كالحصان ، وكانت
المرأة عطشى ومشبقة ، تصدق بالله ، قالت لى : أنا ماشفت كذا فى
حياتى .

— والثانية ؟

— طقطق النار والعة .

— أنا أعرف كيف أتعامل مع الجوزة .. والثانية ؟

— عملت مرة على تاكسى لرجل قبلى من غمرة ، كان — الله
يقدر روحه — غنيا جدا ، ومن نشاطه المتعدد فى السوق سرح
سبع تاكسيات فى البلد ، وكنت دون كل السائقين مقربا منه جدا ،
لأنه — الله يقدر روحه — ابن حظ ، أنهى عملى ، وأذهب إليه
للحساب ، فأجد القعدة منصوبة ، الخمر والحشيش وكل ما يحبه
قلبك من أنواع الطعام .

وكان هذا الرجل معتادا على قضاء الصيف فى رأس البر ، يأخذ
الأسرة بكامل العدد الى العشة الرائعة التى يمتلكها هناك ، وفى هذه

السنة كان له بنت تقضى امتحان الثانوية العامة ، فتأخرت ريثما تنهى الامتحان ، وأمرنى بأن أصحبها الى الأسرة أخسر يوم من الامتحان مباشرة ، وبالفعل أخذتها من مدرستها بزيها ، وكانت - والحق يقال - فى هذا الزى تبدو ملكة جمال حقيقية ، انفخاز محشورة فى سروال ضيق ، ومؤخرة - ماشاء الله - بارزة الى أعلى تتفنن فى تحريكها بآثارة ، ونهدان كجملين عنيدين فى حاجة لجمال يشكم عنادهما ، الحقيقة أنا لم اكن أهتم بها من قبل مجرد تلميذة ، صحيح مشاكسة وشايفة نفسها شوية ، وهى أمور كنت أحسبها على المراهقة فحسب .

وركبت التاكسى الى جوارى ، فى البداية بدت مؤدبة . ومتشافلة عنى بالنظر الى الشوارع ، ومرة تخرج « لبانة » لتعرض على ، ومرة « ساندوتش » ثم حينما انفردنا فى الطريق الزراعى الطويل ، طلبت منى ان اعلمها السياقة ، قلت لها : فى وقت آخر .. أو فى رأس البر نبحث عن مكان خالى ، أما فى هذا الطريق الذى لا تنقطع عنه السيارات نعرض نفسينا للخطر ، ولكنها أصرت ، واقتربت منى جدا ، ومدت يدها الى عجلة القيادة ، قلت لها : يا « نانى » تلخبطينى دعينى أشوف السكة . قالت : لا .. وركبها العناد ، قلت لها : اقول لك شوية كلام نظرى ، قالت : عاوزه اتعلم عملى ، ودلوقت ، أنا عارفة كل الكلام النظرى ، عاوزه ادخل على بابا وأنا سايقة العربية .

واحتك الفخذ بالفخذ ، وضرب النهد الكتف ، وتناثر الشعر على الخد ، وحومت الانفاس المعطرة فى الخيشوم ، وفجأة وجدتها تقعد على حجرى ، قلت : الله يهديك يا شيطان ، فركنت السيارة على مدار ساقية مهجورة ، ووجدتنى أطبع على خديها قبلة خاطفة فلم تمنع ، ووجدت يدي تغور دون وعى منى فى فتحة القميص وتتجول فى قنصة النهدين ، فزفرت نارا من فمها ، ولم تمنع ، بل أكثر من هذا ، وجدتها تقول : نرجع فى الكرسى الورائى أحسن

واخوك ما صدق خبرا ، على ما نزلت لافتح الباب الخلفى وجدتها مهياة تماما ، زيتها ملقى فى الدواسة ، وهى مرفوعة الساقين على آخرهما ، وقالت لى : أدخل الدار أمان .
وعليها ياعم ، قضيت أسبوعا فى رأس البر أمضى السهر

فوق سطح المشة مع أبيها وعمها وأخوتها الكبار نكرع زجساجات
البيرة الثلجة وندخن كراسي الحشيش من أغلى صنف ، واخترت
نومتى على السطح ، قلت لهم : الهواء هنا منعش وجميل ، هم
ينزلون آخر السهرة ليناموا في غرفتهم ، وهى تصعد الى بقميص
النوم الذى لا أراك الله مثيله أبدا ، وخذ عندك حتى نرى الخيط
الأبيض من الخيط الأسود .

الخروج الثانى :

عبروا بوابة السكة الحديد ، واتجهوا نحو موقف السيارات .
كان يسرى هناك بانتظارهم ، قالوا له : صباح الخير ، ففتح لهم
باب السيارة ، ركب البنات فى الكراسى الخلفية ، وركب الأولاد
بجوار يسرى .

قال حسان : لسه بدرى .

قال يسرى : انتظرتكم كثير .

قال حسان : أبدا .. دا معادنا .

قال يسرى : قعدت على القهوة وحسين كان هناك وطلب لى

« بورى » .

سألت زبيدة : لسه مارحش الطاحونة ؟

قال يسرى : سألته مفيش شغل ولا ايه ؟ فقال لى واصل مشوار

أشترى غرابيل للفراكة

سأل ياسر : انزل انده له ؟

قالت زينب : يجى معنا .

قال حسان : لا .. دا مشاور ودا مشاور .

قالت زينبات : والنبي تنزل تنده له .

فتح الاخ الصغير باب السيارة ، وقال يسرى : أركن اننا على

جنب .

خرج يسرى بعربته من تحت مظلة الموقف ، عبر طريق الاسفلت ،

وحضن جنب الرصيف ، أمام محل الكاوتش المفتوح .

عاد ياسر ومال براسه من نافذة السيارة ، قال : مش موجود .

قال يسرى : يمكن مشى .

قال حسان : بينا ياعم نلحق مشوارنا .

لما دخلت السيارة المدينة من الطريق الخارجى ظلت تسير حتى

عبرت الزلقان ، والميدان الذى يقف تحت مظلته عسكرى مرور ،

أشار لهم بيده المخططة ، فدخلوا الشارع الكبير الذى يقسم المدينة

نصفين ، عبرت السيارة المزلقان الآخر ، ولما انحدرت منه ظهر
المبنى القديم للمديرية ، كان المبنى أصفر متهالكا ، يقف على بوابته
الواسعة جنديان بين أيديهما سلاح ، أشار واحد منهما للسيارة ،
وقال : ممنوع .

قال يسرى : المحكمة .

أشار له الجندي : المدخل من الباب الصغير .
عادت السيارة لتتجه نحو الباب الصغير ، قالت زبيدة : مش
حسن اللي هناك ده ؟

تلقت الأولاد حيث أشارت ، قال ياسر : هو .
كان تحت ظلة الشجرة ، يسند يده على جذعها ، وباليدي الأخرى
سيجارة .

قال حسان : والعمل ؟

قالت زينب : نسلم عليه عادى .

قالت زينبات : وكل واحد فى حاله .

قالت زبيدة : واحنا عاوزينه فى حاجة ؟

نزل يسرى وفتح لهم الأبواب ، رآهم حسن فأدار للسيارة
ظهره ، وراقب آخر الطريق كمن ينتظر أحدا .
اندفع ياسر اليه ومد له يده : ازيك .

فوجيء به فسلم عليه ، وغمغم بكلام غامض ، ثم جاءت البنات
الواحدة بعد الأخرى ومددن له الأيدي ، فسلم عابسا ، كأنه لا يعبأ ،
تراخت أياديهن إلى حبوبهن وتخبطن فى حلقة ، ثم نظرت كل واحدة فى
وجه الأخرى مأخوذة . حتى استفقن على صوت حسان يشير إلى
الباب الصغير ، سرن وراءه صفا ، ولم ينظرن خلفهن أبدا ، والبنت
الكبيرة حامت فى عينيها دمة ، مسحتها بطرف الشاش لما دخلت فى
ظلمة المدخل الضيق لمحها حسان فاقترب منها ، أخذها تحت جناحه
وضمها بحنان ، قال : ولا يهملك .

انفجرت باكية : ما كنتش فاكدة قلبه جحود كدا .

قال حسان : كله عند الله .

عند الدرج التقوا بالمحامى واقفا تحت ابطه حقيبتة السوداء
يحادث فلاحين عجوزين ، اقترب منه « حسان » وقال : صباح الخير
بابيه .

بوغت المحامى : صباح النور .. جيت ؟

قال : لسه واصل .

سأل المحامى : وباقى الورثة ؟

قال : كلهم وصلوا . وأشار اليهم مكومين تحت الدرج ينظرون الى الصاعدين والنازلين بخوف .

قال المحامى : انتظروا شوية لأن الجلسة لسه .

عاد حسان اليهم ووقف يحملق فى المدخل الطويل المظلم ، كان جذع الشجرة ينتصب فى منتصف الباب ، وحسن مازال مساندا يده عليه يدخن بقايا سيجارته ، همس فى نفسه : تايب نفسه على الفاضى .

قالت زبيدة : الله يرحمك يا آبا .

قال حسان : بلاط المحكمة أكل من رجله راقه .

قالت زبيدة : تعب كثير .

قال ياسر : واحنا ولا هنا .

أمال حسان رأسه ألى ياسر وهمس فى أذنه : خد البنات يستريحوا فى « الكافتيريا » وأنا أطلع انتظر لما تبتدى الجلسة أنادى عليكم .

قال ياسر : تعالوا نقعد هنا شوية .

هتفت زينب : نقعد وسط الرجال !

قال حسان : وماله .. دى محكمة .

رأوه يقبل عليهم من جهة المدخل ومعه الحاجة أنيسة لما أقتربا من السلم ، أرتبكت البنات ، وصمتن بانتظار لحيتها ، لكنها خطت الدرجات دون كلام ، مكثن واقفات يراقبنها بطرف خفى حتى برز رأسه ورأسها من سور الدور الثانى ، قلن فيما بينهن : ذا ماكنش عيش وملح .

وقالت زينب بصوت عال : مرة وسخة ماشية على هواه .

جلسن فى ركن « الكافتيريا » بين العمود والباب ، وانكمشن على

بعضهن وسحبن أغطية الرأس على وجوههن ، ورحن يرقبن المكان بنظرات خفية بينما ياسر كان قد دخل الحجرة الصغيرة يطلب الجرسون .

لما جاءهم الجرسون يسأل عن طلباتهن سألنه : عندك ايه ؟

قال : كل حاجة .. شاي وقهوة وحلوة وكاكاو وحاجات ساقعة .

قال ياسر : هات لهم بيبي .
قالت زينب : أحسن .
قالت زينبات : تلاقيه بعمل طلبات اى كلام .
وقالت زبيدة : شكله أصفر الظاهر عنده سل .
فتح لهم الجرسون الزجاجات ، ففرقت وطارت سداداتها بعيدا
فى الهواء ، وسالت من حوافها رغاوى فواره .
نظرن الى الدور الثانى بحرص ، وقالت زبيدة : تلاقيه واقفين
يبصوا علينا

قالت زينب : ربنا يعميهم .
قالت زينبات : بصوا للترابيزة اللى جنبنا .
كان الجالس كهلا بوجه شاحب يرتدى معطفا واسعا يخرج منه
عنق نحيل معروق ينتفخ لانفاسه الواهنة ، وعلى رأسه غطاء ثقيل
من الفرو ، كان يزحزحه الى الوراء بيده المرتعشة ليهرش مقدم
رأسه ، بعد أن ضبط الغطاء مكانه ، عاد بنظرته التائهة الى الأوراق
المنشورة أمامه .

قالت زبيدة : يفكرنى بأبويا .. الله يرحمه .
قالت زبيدة : ياعينى نفسه مقطوع .
قالت زينبات : يمكن ما يروحش النهارده .
لما انتهين من الشراب ، ركن الزجاجات الفارغة تحت كرسى
الخشب الطويل

قال ياسر : إطلع أشوفهم عملوا ايه حنده لكم من فوق .
قالت زبيدة : الرجل نام على الترابيزة .
قالت زينب : شفت رأسهم بتطل علينا من ورا العمود .
سالت زينبات : فين ؟
قالت زينب : فوق .

النبا العظيم :

قالت الخالة لبنات الأخت : لم تكن مفاجأة لما علمت برحيله ،
كان يبين على وجهه أنه عمل عملة كبيرة ، لكنها المسكينة لم تصدق
نفسها حين وجدته أمامها فجأة يسد فراغ حجرتها المفتوحة ، على
بدنه القميص الأبيض الخفيف ، وبيده حقيبة السفر ، وسمعت من
مكاني أصوات الحياة تصخب في دمها ، بل أحسست بسريره الحار
على وجهها ، وكنت أظن أن دمها قد فسد ، وعروقها صارت سلوكا
مصمتة ، لا شيء فيها « أزيك يازبيدة » ولم يقترب منها وقعد على
الكنبة الى جوارى ، وكنت مشغولة بعصر البرتقال في دورق كبير ،
أخرجت منه ولممت بعشرة خلقاتي : حمد الله بالسلامة يا أخوى .
ونزلت افترش الأرض ، وهي حبست دمعها ، وراحت ترنو اليه ،
وتجمع ملامحه ، وهو ظل منكسا رأسه الى الأرض يدوس سيجارته
المطفأة ، يفركها بعنف كأنما يتخلص من حشرة مؤذية ، ولامته على
قدومه المفاجيء : كنت ترسل الى لتعلمني بمجيئك لأهبيء لك المكان
فأنت كما ترى فوضى .

وكانت تريد أن تقول : لم يكن من المفروض أن يرانى على هذه
الصورة .

ورأيت يدها تسبقها الى بقايا المراة المكونة على أرض النافذة ،
واعتقلت رغبتها فهي تدرى أن شعرها منشور ، لم تمرر عليه مشطا
من وقت طويل ، ولونها شاحب يعلوه الاصفرار ، وفي هذه اللحظة
صارت قوية ، استطاعت النزول عن السرير لتكون الى جواره ، من
أين وأنتها هذه القوة ؟ ورفعت الفطاء عن ساقها ، ونهضت اليها :
قولى عاوزه ايه ولا تنزلى عن سريرك . وصرخت في وجهي : أنا مش
عليلة ، ليه مصرّة تعامليني كأنى قعبدة . وأردت الخروج بظهري الى
الصالة ، فمالت على لتقول بحنية : يا خالة أنا لا أقصد اهانتك ،
أنت تدلّمينى زيادة عن اللزوم ، بصى .. خدى .. ارسلنى امرأة من
الطاحونة لتشتري لنا جوز فراخ كمال يحب طبيخك ودائما يشكر
فيه ، مش كده ياكمال ؟ وهز رأسه دون عناية ، وقال كالهمس :
لا تتعبى نفسك ، ولا تتعبى خالتك معك .

ودخلت زبيدة حجرة الجلوس ، فتحت النافذة لتدخل شمس الصباح التي تتراقص في الشارع على أيقاع الوابور ، ونفضت « الكليمات » المفروشة على الكنب وأزالت الغبار المتراكم على حافة المساند البيضاء ، وجعلت الطاولة وسط الحجرة تماما ونظفت منضدة السجائر بذيل الروب .

قلت لها : لا تتعبى انت نفسك ، أقعدى مع جوزك وأنا أعمل كل حاجة .

وندهت على كمال : تيجى هنا أحسن ؟
كانت تريد تخليصه من ظلمة الحجرة ومن روائعها المريضة ، ولكنه لم يجب نداءها ، فذهبت اليه ، ردت الباب وراءها ، وسمعتها تقول له : غير هدمك الأول : معك بيجامة والا أجيب لك جلابية من بتوع يسرى ؟ قال : معى بيجامة .

وسمعتها تتكلم بلهجة : ما أخبار اسكندرية ؟ عاملين ايه الجيران ؟ أظنك تعبت شوية ؟ معلى يا حبيبى ، تصدق ممكن أرجع معك .

وهو لم يجب ، ويبدو أنه ظل منشغلا بتغيير ملابسه ، لأنى سمعته يصيح فجأة : أعلق الهدوم دى فى ؟
ورأيت سمرته تتضح مع بياض البيجامة ، ولمعت هذه السمرة على ضوء الضلفة المفتوحة واستأذن فى دخول الحمام ، وانتهزت هى الفرصة لتبحث عن حقيبتها ومراآتها ، وأخرجت صباغ « الروج » ، ودهنت منه خفيفا على شفتيها ، ومررت البودرة على وجنتيها ، وعلى عجل شدت شعرها الى الوراء ، وعقدته بشريط أحمر ، وسحبت الجلاب ذى الورد الصغير المنقوش على الصدر ، وارتدته بسرعة ، وسألتنى ايه رأيك ياخالة ؟ قلت لها : وردة مفتحة ، قالت : هذا لا ينفع لابد من حمام ساخن ، وقالت : شكرا ياربى على هذه القوة التى بعثتها فى بدنى .

وسمعت كحته مقبلا من جهة الحمام ، فخرجت من الحجرة لأعد وجبة الفداء المطلوبة وأعود الى دارى لأخلى للزوجين المكان .



وفى الصبح بعد أن غادر الدار قالت زبيدة لنفسها : لم أكن أدري أن هذا الخائن يحمل لى جرعة السم هذه فى جيب خفى ، ويظل متآمرا طول النهار ، ويتهرب من أسئلتي ، ويوارى وجهه على

منغلقا على سره ، ويتركني اعد له نفسي ، وافتح له احضاني ليصب
جرعته بلا رحمة ، ويبد غمياء طائشة في قلبي مباشرة ، ليخمد دمي ،
ويعود ليبوسته الأولى ، وكنت لما رأيته في بيجامته البيضاء يتحرك
فوق « القذوذة » الخفيفة في ردهات الدار ، قلت : ها هو يعيد
أيامه الماضية ... بعد المغرب سيجلس على احدى الكنبات ، تحت
بريق المصباح واضعا منديله الأبيض المكوي على فخذه ، يدخن
السيجارة تلو السيجارة ، ويستقبل القريب أثر القريب ، هذا
عمى ، وهذا خالى ، وهذه خالتي ، ويحوط به الجميع ، وبعد
الزيارات يشعل النار في المنقد الصغير ، يرص الحجارة ، يدخن وحده
خمسة ، عشرة ، عشرين ، حتى يستكفى ، وأنا وامى حوله ، نقشر
البرتقال ، او نراعى القهوة على وأبور السبرتو .

وندخل حجرتنا ، وتدخل امى حجرتها .
وحين يصادف وجود يسرى يهمل لمراه ، ويجلسان حول النار ،
لا يكفان عن ترديد النكات ، هذه نكتة قاهرية ، وخذ عندك نكتة
اسكندرانية ، ويضحكان واضحك معهما ، وتبتسم امى وتقول :
والله ما انا فاهمة حاحة .. رينا يروق بالكم .

ويقول يسرى : مش مهم تفهمى المهم تضحكى .
لكنه هذه المرة . وبعد ما عاد يسرى من عمله ، جاسول ان
بتفاداه ، اكل لقمة سريعة ، وادعى انه يريد ان يمدد جسمه قليلا ،
قلت له : السرير معد فقد غيرت الملاءات واكياس المخدات ، قال
انه لا يريد النوم ، مجرد فرد طوله قليلا ليريح جسده المرهق ، وعزم
عليه يسرى بان يغلق عليه حجرته الاخرانية ، حيث لا حس ولا خبر ،
ولا شيء البتة يمكنه ان يقلق منامه ، وأصر على النوم في حجرة
الكنب .

وفي الليل اعد له « يسرى » الجوزة والنار ، وعزم عليه بنفسين ،
وادعى انه مقاطع الحشيش ، ولم يعد يخطر له على بال ، وأنا كنت
عشرت على القطعة الملفوفة بورقة « السوليفان » في جيب البنطلون ،
ودفعنى هذا للتفكير « ماذا جرى له ؟ انه على غير عادته ! »

وارجعت هذا لقلقه على ، وللمدة الطويلة التى قضاه وحيدا وأنا
بعنده عنه ، فلاند ان يكون مرهق الأعصاب جدا ، وقلت ربما يعجل
الاختلاء بى ، وسعيت الى السرير تتداعبنى البهجة ، وأنادى جسمى
ليسعفى على احتمال هذه المتعة المنتظرة ، وانطلق علينا الباب ،

وتمددت على حافة الفراش ، وهو ظل على طرف الكنبه يمتص دخان
السيجارة ، قلت له : اطفىء النور ، وتعال لتسترح ويكفيك السجائر
التي دخنتها طول النهار .

وفوجئت بقوله : نامى أنت .. وأعطنى مخدة من عندك .
وقلت مستهولة : اياك بتفكر انك تنام وحدك على الكنية .
ولم يجب ، فعاجلته والدموع تطفر من عيني : قلها بصراحة أنت
الآن تقرف منى . وأشعل سيجارة أخرى ، وقال : يازبيدة لا تهولى
الامر ، أنا أعصابى متوترة . قلت له : أبدا الموضوع فيه سر ، بح به
وريح أعصابك .

— لا سر ولا يحزنون .. نامى .. نامى .
وغطست تحت اللحاف انهنه . وجسمى كله ينتفض . والدمع
ساح من عيني وغرق الوسادة ، ولم يتحرك من مكانه ، وبعد فترة
سمعته يقوم ليطفىء النور وسمعت صرير الكنبه تحته ، وهو يفرد
جسمه عليها .

وكتمت أنفاسى مدعية الاستغراق فى النوم ، وكنت أسمع
زفراته وهو يتقلب كأنما ينام على بصايص نار مشتعلة ، ثم سمعته
يحك عود الثقاب ، ويشعل سيجارة ينفخ دخانها مع تنهدات يجمعها
من أعصابه المشدودة ، وسمعته يدوسها تحت قدميه بحدة ، وأخيرا
شعرت بأصابعه ترفع شعري المبلل بالعرق ، وينادى بصوت ضائع
راشح بالدموع : زبيدة .. زبيدة .

وتصانعت النوم العميق ، وهو أصر على ندائه ، ولما وجدنى
لا أستجيب ، أدار وجهى بيده القلقة نحو وجهه ، وفتحت عيني لأجده
راكما على بلاط الأرض مائلا على قلت : ها قد ندم واشتاق كما كان
يفعل فى الأيام الفائتة .

ولكن ياللهول وجدت دموعا تسح من عينيهِ فانثقلت جالسة ،
وأخذت رأسه الى صدرى : مالك يا كمال ؟

— أرجوك تكونى شجاعة ، وتقدرى موقفى .
وصرخ قلبى فى صدرى : وسمعته يضرب بقوة فوق الضلوع ،
وانحلت عقدة يدي حول صدغيه .

— انت عارفة احساس الرجل منا لازم يكون له ابن يحمل اسمه .
ونكأ جرحى القديم ، ذلك الجرح الذى دفناه معا بعد أن أعلن
الطبيب أن قدرتى على الانجاب منعدمة ، وتحمل هو ذلك ، وقال :

ان حبنا لا دخل له بالانجاب والعيال وخلافه ، المهم أن نكون معا ، ولم
 يعد ينبش الجرح المدفون أبدا .
 - صحيح اتفقنا زمان على ...
 - يعنى عاوز تتجوز ؟
 - تجوزت فعلا .
 - وجئت لتنعاني .. ومن سعيدة الحظ ؟
 - « توحة » البنت الوسطى لام « توتو » .
 - اعز صديقاتى .
 - لم تفعلها من باب الخيانة وانما دفعتها شهامتها لا حياء ...
 لا تقل شيئا آخر .. عد الى مكانك ، ومن الفد ترحل ،
 ولا ترينى وجهك .
 وعاد ذليلا ، يتسلق الكنبه ، ويتنهد كمن القى عن كاهله الحجر
 الثقيل ، وانا عدت لاغطس فى اللحاف ، ولا قدرة لى على دفع السد
 الذى انهار فى عينى ، فيضان من الدموع ، أردت امساكها لابسدو
 شجاعة ، ولم اقدر ، وتلفت اليه بعد هنيهة لاسأله : وانا ماذا قررت
 بشأنى ؟
 - أنت الكل فى الكل ، مازلت زوجتى .. و .. و .. وحبيبتى .
 - وهل تريد للزوجتين العيش معا فى الشقة ، أم ستؤجر لها
 واحدة ؟
 - ولماذا تؤجر يا حبيبتى ؟ أنت هنا فى بيتك وبين أهلك ، وانا
 انزل اليك بين الحين والآخر .
 وبصقت فى وجهه بقرف ، وصرخت . وانا أجهد الا يصل صوتى
 لأخى فى الحجرة المجاورة .
 - اتخمد .. وكما قلت لك تعود من سسكات دون أن ترينى
 وجهك .
 وفى الصباح الباكر لم أجده فى مكانه ، وأسرعت الى الباب لانادى
 على حسين الذى جاءنى مهرولا من داخل « فراكة » الرز ، وقلت
 له : هات الكاتب لأنى سأنفذ ما طلبت منى تلك الليلة .
 قال : حاضر بعد الغداء نتفق .

حان وقت الموت :

ترك حسين الطاحونة بعد اذان المغرب بقليل ، واتجه الى داره ليغير خلعته العمل ويزيل آثار الدقيق عن وجهه وشعره وقفاه ، ورمى في جوفه بقايا طبيخ الفداء ، وخرج مرة أخرى الى الشارع ، ولكن هذه المرة كان يرتدى الجلباب الصوفى الفخيم ، والبلغة اللامعة ، والطاقيّة البيضاء المكوية ، كان ذاهبا الى هذا الحى الذى انشئ حديثا على أطراف البلد بين « الكبانية » والبنك ، هناك كانت الشوارع الجديدة تتقاطع بانتظام ، تقام عليها عمائر من عدة طوابق ، تطل شرفاتها على شوارع رحبة ، تسمح لهذا الهواء المنطلق باللهو بالأوراق الكثيرة المتناثرة .

وانتظر طويلا على ناصية الشارع الفارغ الذى أغلقت أبوابه وانطلقت من نوافذه أصوات التلفزيون ، ثم مل الوقوف ، وقال لنفسه : ربما سبقنى الى هناك .

وطرق حسين على الباب الخشبى القصر المفتوح بوسسط حائط منخفض يسور الحديقة الصغيرة فى مقدمة البيت ، وتتوزع على حوافه قطع الزجاج ، وتنام على ظهره أغصان خضراء ارتفعت من الداخل ، وأنتبه حسين الى الجرس المدق سوق على جانب الباب ، وداس على الزر بسبابته ، فسمع الصوت الواهن ينادى عليه « ادخل » فدفع الباب بحذر وسار فى المشى قليلا حتى رأى النور ينبثق من فرجة باب لحجرة أقيمت وحدها فى المساحة الفارغة أمام « الفراندة » تتسلق أعمدتها أغصان الليف والبلاب ، ورأى صلعة عبده داود تبرى تحت نور المصباح .

— مساء الخير يا عم « عبده »

— أهلا . . مساء النور .

وقام عبده داود من مكتبه يضبط معطفه الكالج الذى لا يرفعه عن جسده أبدا ويعيد الطاقيّة الى مقدم رأسه العارى .

— تفضل .

— لأمؤخدة عاوزك فى موضوع بسيط .

— تحت أمرك .. تفضل .

وانفرد حسين على كرسى « الانتريه » الواطىء . وعاد عبده داود ليقتصد على « الشملت » الكثيرة التى ترفعه الى أعلى الكرسى فتسمح لطوله بالامتداد بعرض المكتب ، وتجعله يرى الزبون قريبا إليه ، وهو بطل بطرف من رأسه ، ويكون جسمه كله غاطسا فى الكرسى المنخفض ، ورأت عين حسين حين استدارت اليه الخريطة المساحية الكبيرة المعلقة خلف « عبده » ، ورأت — فوقها — صورة المسيح طفلا ترفعه العذراء على ذراع بضة بيضاء وعلى رأس كل منهما «الة من النور .

وأعاد « عبده » الطاقية الى الخلف فبرقت الصلعة مرة أخرى ، وعقد ذراعيه الطويلتين أمام وجهه ، وبدأ ينصت لـ حسين .
— انت، تعرف ان عمى ابراهيم لم يترك وريثا له غير ولد وبنت .

— الله يرحمه .. كان حبيبى .

— البنت عادت من الاسكندرية بعد ان غدر بها زوجها ، وهى الآن قعيدة الفراش ، وأيامها على الدنيا معدودة ، وتريد كتابة كل ما تملك لأخيها الوحيد لترد على زوجها ، الصاع صاعين .
— عندها حق .. لكن لا يجوز الوصية إلا فى الثلث .
— تريد كتابة املاكها بيع وشراء .

— فى هذه الحالة لابد وان يعجل اخوها بتسجيل هذه الاملاك لان حضورها واجب

— بالتأكيد .. وعلى كل سوف تعرف الموضوع بالتفصيل .

— قبل كل شىء تشرب قهوة ؟

— لا داعى لهذا .. تحيتك مردودة .

وظهر يسرى فجأة فى نور الحجره ، ولم يكونا قد انتبها لصوت اقدامه تدوس الورق الجاف فى المشى ، سلم على « عبده » وقال لـ حسين : سمعت صوتك من الخارج ، وقال له حسين معاتبا : انتظرتك طويلا ولكنك تاخرت .

— كنت أبحث عن العقود فهى مدفوسة من زمان بين أوراق كثيرة .

ووقف عبده داود ليدخل رأسه فى النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة وينادى : بت يا تريزة .. ياتريزة .

وسمعا صوتا أنثويا نحىلا يرد من بعيد : نعم يا بابا .

- اعملى قهوة يابنت .

- كم فنجان يا بابا ؟

- اعملى ثلاثة .

وأستدار اليهما ليلعن التلفزيون الذى هرش أدمغة الصبابا
اللائى صرن يتركن ما بأيديهن ليفرغن للفرجة على المسلسلات .

وأجابه حسين : كل البيوت هكذا .

وقال يسرى الشوارع الآن فارغة .. الكل يتفرج .

وجمع « عبده » أطراف معطفه مرة أخرى وقال ساخطا : آخر

زمن .

وأشار حسين الى يسرى الذى يجلس على الكرسي المقابل .

ليخرج العقود حتى يطالعها الكاتب .

وفرد يسرى الأوراق على المكتب ، وراح « عبده » يرفعها

الى عينيه مستعينا بالنظارة التى وضعها على أطراف أنفه ، وقال :

يعنى البيع سيكون فى الدار والطاحونة ، أرض الاصلاح الزراعى

لا يجوز بيعها رسميا .

وقال حسين : سنكتب بها تنازلا حتى اذا وزعت الحكومة

عقود الملكية تصير من نصيب يسرى .

- لا أدري ان كان هذا ينفع أم لا ؟

- سنكتبه من باب الحرص لا غير .

- الحكومة كل يوم فى حال ، مرة تقول اراضى الاصلاح ستوزع

وفقا للتوريث الشرعى ، ومرة تقرر بأنها ستكون للأفراد المذكورين

فى البحث .

وقال يسرى : حسين باع من قبل ، وأنا بعث نصيبى

منها بعقد ابتدائى والحيازة مازالت باسمى ، فمقدار ما ستتنازل عنه

« زبيدة » ١٦ قيراطا فقط .

قال حسين : لا تحاول أن تفهم عمك « عبده » هو يحفظهما

بالمتر .

وابتسم « عبده » وقال مفاخرا : كم مرة قستها بالقبضة أيام

المرحوم . وصمت « عبده » قليلا ، وبدأ يزحزج الطاقة الى الوراء .

ويعمر أصابعه الطويلة على الشعر الخفيف ، واستقرقه أنظر فى

الورقة التى ترتعش أمام عينيه ، ثم سألهما : أظن يا يسرى نصيبك

فى الطاحونة مؤجر لعمك الحاج ؟

— أنا لا أحصل على شيء منه .

وقال حسين : حرام عليك لا تظلم الرجل .. ألم تحصّل على ثلاثين جنيها آخر الشهر

— هو يأكلها من جذورها .. انت على نياتك ولا تعرف شيئا عن الايراد .

— ياسيدي منه لله لن يأخذ شيئا معه الى قبره .

ركن « عبده » الورقة على جنب ، ورفع الأخرى أمام عينيه ، وقال : انا اذكر اني كتبت لك عقد بيع وشراء لاختك في هذه الدار من قبل .

— ستعيد الى ما اشتريت وفقا لعقد جديد .

— انت لا تملك من الدار غير نصيبك من ثمنة امك .

— بالضبط .. فمجل الامتار التي ستذكر في العقد الجديد . ١١ .

امتار نصيب « زبيدة » من أبيها وأما وما اشتريته مني .

وبدا « عبده » يفرد أوراقا بيضاء أمامه ، وأمسك بالقلم وطفق يخط به ناظرا بين الحين والآخر الى العقود المنشورة أمامه أو رافعا رأسه ليسأل يسرى عن شيء غمض عليه ، حتى دخلت البنت الصغيرة ترفع صينية القهوة بين يديها ، كانت ترتدى الجلباب المربوط بحزام الى الوركاء ، وتدلت من رأسها ضفيران رفيعتان من تحت اشراب أصفر عمق شحوبه وجهها النحيل ، وضعت الصينية على الترابيزة القصيرة ، وقالت : عاوز حاجة يا بابا ؟ ولم يرد عليها ابوها الذي انحنى رأسه بشدة على الأوراق ، وتجمدت سحنة وجهه المزموم الفم ، واتخذ ملمح الوقار وكأنما ذهب الى عالم آخر فرض على الحضور قدسية الصمت ، وعادت البنت بظهرها الى الخارج ، ولم تكرر سؤالها ومد حسين يده الى الفنجان ، وأشار بعينه الى يسرى ليرفع فنجانه ، ورشف يسرى الوش بصوت مسموع ، وزغر له حسين لائما ، والرجل سقط منهما تماما ، ونسى وجودهما ، وظلا على كرسيهما مدة طويلة ، يتحرك الكلام بصدريهما ولا يقدران على التلفظ به على اللسنة ، وبردت القهوة في فنجان « عبده » ، ومنع يسرى نفسه أكثر من مرة ، كانت رغبته لتنبيهه الى القهوة قوية جدا ، وأخيرا غامر بالقول : قهوتك بردت يا عم « عبده » . فبحلق اليه الرجل من تحت عويناته ، وعاد الى أوراقه وكأنما لم يسمع شيئا حتى انتهى تماما من الكتابة ، فوجه

الحديث الى الرجلين : بص ياسيدى .. العقد جاهز على التوقيع ،
طبعا كتبت عقدا اجماليا .

وقال يسرى : كنت اريد عقد لكل شىء على حدة .
وقال « عبده » مكشرا : لا فرق .. المهم توقيعها على ما كتبت ثم
الاسراع بالتسجيل .

وتدخل حسين لينبه الكاتب بالطلب الآخر : لو تكلمت تكتب
لنا اقرارا بانه لا يجوز ل يسرى التصرف فى هذه الاشياء الا بعد
وفاة أخته .

وقال يسرى مؤيدا : طبعا لازم تضمن حقها .. اشرب قهوتك
الاول .

ورفع الفئجان الى الرجل الذى اخرج منديله الكبير من جيب
المعطف ، وراح يمسح به حبات العرق التى تجمعت على الصلعة
المضيئة .

رفع « عبده » الفئجان الى فمه مرة واحدة ، وسحب ورقة
اخرى ، واستعاد حالته الاولى ، وساد الصمت فترة طويلة حتى
عاد « عبده » من استغراقه ، ورفع الورقة الى عينيه ليقول : بص
ياسيدى .. انا تركت فراغا على يسرى ان يملأه وفقا لبيانات
بطاقته العائلية .

وطلب حسين ان يقرأ عليهما الرجل صيغة الاقرار ، فرجع
« عبده » بظهره الى الورا ، ونشق الهواء بطاقتى أنفه ، وسسكت
مدة يتأمل الورقة ، ثم قال : بص ياسيدى .

وراح يقرأ الجمل باستمتاع ، يتخلل القراءة وقفات لينشق
من الهواء نشقة طويلة ثم يعاود القراءة ناظرا اليهما من فوق الورقة
ليتأمل وجهيهما ، ويقاطعه حسين ليقول : الله ينور عليك .

ولما اختتم القراءة قال له يسرى : تسلم يذك .

ومد يده خفية الى حسين ليعطيه حق الرجل

وسأل حسين كم ياعم « عبده » ؟

- من غير حاجة .

- خيرك سابق .

ومد يده بالفلوس المطوية ، فردها « عبده » بين أصابعه ، ثم
القاهما باستنكار جهة حسين : والمسيح الحى لا ينفع ... ناس
غيركم أخذ منهم فوق المائة جنيه .

— أفت أخذت على عقود الطاحونة مع اخوتي نفس المبلغ .

— كل يوم الدنيا في حال .

وطلب حسين من يسرى أن يضيف خمس جنيهاً أخرى .
وقاطعه « عبده » وهو يدفع الفلوس بيده المتوترة جهته :
ورحمة أبيك الغالى لا ينفع .. أريد على هذه الفلوس ثلاثين أخرى .
وقام حسين وقام يسرى معه ، وقال « عبده » : خذوا الورق
والفلوس واعتبروها خدمة .

— كتر ألف خيرك .. هات يا يسرى عشرة جنيهاً .. ولا تطلب
أكثر من هذا .
— الأمر لله ..

ودفَس المبلغ في جيب معطفه ، وقام ليسلم عليهما ، ومال برأسه
على يسرى هامساً : اجعلها تمضى هنا في هذه الفراغات ، ومن الصبح
تطلع على الشهر العقارى ، لأنك لو تأخرت وحصل المقدر
كانك يا أبوزيد ماغزيت .
— شكراً يا عم « عبده » .

وغادرا نور الحجرة ، وسبقهما ظلهما في مستطيل النور الساقط
على ممشى الحديقة ، ولفهما ظلام المساحة الفارغة المواجهة لدخل
البيت ، وخرجا الى الشارع النائم يسيران تحت مصابيحها التى
لوزع بقعا باهتة من الضوء .

حلم الاب :

رفع حسين ذيل جلبابه خوف النجاسة ، وركل الحمار الواقف تحت الجدار قبل أن يدس وجهه بين قضبان النافذة المطلّة على الحوش ، نادى بصوت هلوع : يا حسان . ففزعت المرأة الجالسة خلف باب الحجر ، لمت ثديها الكايس على وجه الرضيعة ، وقامت تحملها بذراع واحدة ، وبالأخر فتحت الضلفة المفلقة . وردت : من ؟

ولما تعرفت على شبح الوجه الفارق في ضوء المغرب : قالت : تعال . قال لها : حسان موجود ؟ قالت : نائم . . افتح له الباب ؟ فقال متسرعا : ايقظيه . . عاوزه في كلمة .

رجعت بظهرها لتفتح الباب العريض الذي احتك بالبلاط ، فجعل حسان يتقلب على جنبه تحت الغطاء ، ودخلت الحجر المقدسة بالسرير والتسريحة والدولاب ، انعكست صورتها على مرآة التسريحة المحوطة بصور عرسها ، كأن حموها - قبل وفاته - يجلس مبتسما بين أولاده ، وهي في فستان الزفاف الأبيض بين ذراع حسان الذي غطى بكتفه مساحة كبيرة من صدر الاب المعجوز .

رفعت اللحاف وملست على وجهه المشرقان ، ونادت بصوت خافت : حسان .

فتح عينيه المحمرتين ، وقام بشعره اللاصق بالعجبة ، قال مرعوبا : ايه ؟

وبهتت في عينيه ملامح الاب الذي كان يفر منه فوق سريره العالي فاردا كفيه على ضلعتي الدولاب المحفور في الحائط والذي يحفظ فيه ماله وأوراقه القديمة كان يمنعه من فتحه ، وهو يهجم على الأب بسكين عريض لامع ، وكان الأب يدفع في وجهه كفا نحيلة معروقة متصلة بزنت عظمى ضعيف ، شده منها فأنكفا الأب على وجهه ، وطارت عمامته بعيدا على الأرض ، وهو استطاع أن يتسلق السرير ويصمبج فوقه تماما ، وصار الوجهان متقابلين يبتان حقدا وكراهية .

قالت : أخوك عاوزك .

فلم يهتم وتثأب وهو يريد العودة الى الغطاء ، وتساءل في سره :

معقول ؟ أنا الفعل هذا في أبي !

وظل خفقان قلبه يهزه بعنف . وتساءل من جديد : متى تنزاح عني

هذه الكوابيس المقلقة ؟

قالت له تستحىه حسين واقف على الشباك .
رمى الغطاء بعيدا وقام متكاسلا ، دفع الباب العريض فظل يحتك
بالبلاط حتى ارتاح على ضلفة الدولاب ، وضع يده على عينيه حين واجهه
النور ، واقترب من النافذة ليستند على أرضيتها ، وحسين دفع
وجهه بين القضيبين ، وبدأ يحادثه : صاحبك فتح المية على الأرض
البور .

طار النور من عيني حسان وصرخ : نهاره أسود .
وسأله : الم تكلمه ؟

— عملها بالليل .

وازدادت الحمرة في عيني حسان وسال متحيرا : والعمل ؟
— يبقى الوضع على ما هو عليه .

وتطلع حسان بعينه الى بعيد ، فلم ير غير الشماع الأصفر
الساقط على جدار الدار المقابلة ، وقال : قتله حلال .
وقال حسين : تسكت أو نطلب حراسة على الأرض ؟ .

وتركه حسان واقفا ، ودخل حجرته ، سحب الجلباب المكوى
من الشماعة ، والتقط صورة أبيه بجانب عينه ، فشعر بالخجل ، وأراد
أن يمنع كلاما يحوم في ضميره فلم يقدر ، فقال بصوت سمعته زوجته
الجالسة بالصالة : سابونا للغلب . وكان قد نسي أن يغسل وجهه ،
فعاد الى الصالة ، واصطدم بساق زوجته التي اعادت فتح صدرها
للبنات ، وسألت : خير ؟ فلم يرد عليها . وبدأ يرش الماء على وجهه ،
وكلمت الزوجة نفسها : يارب . . الفرج . . دخلت هذه الدار لم أر
يوما يسر قلبي .

وعاد ليدخل الحجرة واضعا الفوطة على وجهه يجفف بقايا الماء ،
فداس طرف ركبته ، وكاد أن يسقط على جنبه ، فدفعته بذراعها
صائحة : حاسب البنات . فركلها في ظهرها : وسعى .

فتزحزحت الى الحائط ، وواصلت الحديث في سرها : وكلما دخل
على الليل أنام خائفة من سقوط سقفها القديم ، سسيأتني علينا صبح
يرفعوننا من تحت الانقاض جثا ممزقة ، وهو يؤملنى ببيع الأرض لبنى
البيت الجديد الذى لن يبنى أبدا .

ودخل الحجرة يرتدى الجلباب : وقف ينظر فى مرآة التسريحة
متفاديا النظر الى أبيه القاعد بين العروسين ، وكلم نفسه : تعطيل جديد
ربنا رحمه يعلم مداء .

وخرج من الحجرة مندفعاً الى الباب الكبير ، ولم يلتفت الى نداء

زوجته : ماترحلوش ، وشد الباب وراءه ، فاهتزت الحوائط ، وتردد صوت السقطة في خبطة وحيدة زاعقة ، فصرخت البنت فاقعدتها الأم على فخذيها ، ولأن الثدي الخارج من فتحة الصدر انسحب - فجأة - من فمها وظل يقطر اللبن الدافئ على صدغها بكت البنت ، فراحت الأم تربت عليها ، وتهز فخذيها في هدهدة رتيبة تسكت الصراخ الذي ارتفع .

قال حسان لأخواته البنات حين اجتمعن عنده في الدار الكبيرة : خرجت من حجرتي وأنا لا أرى شيئا أمامي ، كل ما يهمني العثور عليه ، وامسك به لأزلق رأسه الى حائط من الحجر ، واظل ادفع به ، ادفع به ، حتى اصفى دمه النجس ، لقد طاش عقلي لما علمت أنه فتح الماء في نصيبنا من الأرض ، وكنت من قبل لا اطيق أن أراكن تتجمعن في قاعات المحاكم خصوما لأخ مات قلبه ، وكما ترون الدار انهالت حوائطها ، وطقت عروق سقفها ، ولا اقدر على بنائها حتى انهي موضوعنا المعلق ، خرجت اليه وأنا اخفي السكين الذي اختطفته خلسة ، وكنت أخشى أن يضطرني لاستعماله ، ولكني قلت : الحرص واجب . . . ولو تطاول معي أكثر من اللازم ، ولو قلت مني الأعصاب لا مانع عندي من ضربه في أي مكان من جسده .

ووجدته - بعد أذان العشاء - عند « الشامي » ظهره الى الشارع ، وينحني بكتلته الكبيرة فوق « البنك » يحادث صاحب المحل . قلت : هذه فرصتي لأخذه على غسلة والقي به من فوق الطوار . وضبطت أعصابي ، وقلت : سيلومونني الناس ويتهمونني بالغدر . . . فلابدأ معه بالتفاهم الهادي . واقتربت منه ، وشددته من ياقة جلبابه ، فانتفض لم رأي وبلغ ريقه ، و « الشامي » وقف متحفزا ومأخوذا ، وسأله : لما فتحت الماء في الأرض يا حسن ؟

واجابني وهو يضغط بشدة على أسنانه ويحاول أن يبدو متماسكا بينما الرعب يطل من حدقتيه متحسبا للضربة المفاجئة تسقط على رأسه ، وهو يعلم أني قادر على فعلها . واجابني : هذه أرض أبي كما هي أرض أبيك .

وقلت له ولكننا يا حسن دعونا أكثر من مرة لتأخذ نصيبك وأنت كل مرة ترفض وتماطل .

واجابني ببجاجة ، وهو في الحقيقة كان يعبر عن اضطرابه وقلة

حيلته فى البحث عن رد مناسب : لا تقسيم الا بعد أن احصل على نصيبى من أمى .

وقلت له : وهل كان لامك نصيب يا حسن ؟

قال وهو يدير لى ظهره : مال حرام وأرضاه على نفسى .

ولم ادر ماذا فعلت بعد ذلك ، حين انتبهت رأبته ملقيا على الأرض والدم يسيل من فوق حاجبه الأيسر ، وأنا بركت عليه و « فى يوجعك » على رأسه وعلى فكه ، وفوق عينيه ، ولا ادرى ماذا كتف يديه ، فانطرح بجسمه مفكوكا كله ، يرفع يده فقط ليمسح قطرات الدم السائلة ، و « الشامى » انحشر بيننا بجرمه القصير يحاول دفعى بعيدا عنه ، والتم الرجال الموزعون على كراسى المقهى القريب ، وهرعت النسوة من الدور المجاورة ، واطلقن الصوات ، وسمعت واحدة تسأل الأخرى عن هذين المتعاركين ، فتجيبها المرأة : اخوه يا ضنايا . ولا ادرى ما الذى دفعنى لمواصلة الشجار مع ابنه الذى جاء من آخر الشارع مصحوبا بأمه التى قدمت حسيرة الرأس تجرجر شاشها وراءها ، وعياله الصغار تجمعوا حوله ، بعد أن اجلسه الرجال على الكرسى الصغير أمام المحل ، حاول الولد الاقتتال معى ، وأنا صرخته فى وجهه : لو رجل تقدم ..

وشدنى الرجال الى الشارع العمومى ، وشده الجيران الى الخلف ليعيدوه الى داره ، وبعضه أن تركنى الرجال ، عدت وحدى ، وجلست منفردا على المقهى المواجه لسكة الحديد ، ادارى وجهى بكمى ، وانفلت منى الدمع الذى تفجر بعنف فى صدرى لما برزت لى صورة الأخ المطروح على الأرض عاجزا عن مقاومتى .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى العزبة لاعاين الماء الذى اطلقه فى الأرض فرأيته هناك تحت التوتة التى يربط تحتها بهائم ، وكنت قد قصفت عودا من صفصافة قابلتنى فى لطريق ، لا لشيء الا الرغبة فى الامساك بعصا بين يدي تؤنس وحدة الطريق .

وهو حين مكنى على رأس الغيط ظلل وجهه المربوط بشاش أبيض ليتأكد من شخصى . فسخرت منه فى سري ، وقلت لنفسى : وما الذى يدفعه لظلم اخوته طالما هو جبان الى هذا الحد .

وسرت بطول القناة التى تفصل ما بين أرضنا وأرض « الحاجه » ، ولما اقتربت منه رأيته ينحنى على المنجل ويقف بانتظارى مرتديا الصديرى على القميص الأبيض الذى يبرز منه السروال الطويل ، ولم يكن فى نيتى أن افعل شيئا على الاطلاق ، وقفت أمامه وهو وقف على

الجهة الأخرى مصدرا المنجل نحوى ، وقال : . والله ان اقتربت لأفضل رأسك عن جسمك وادفنتك هنا بالحياة .

فاطلقت ضحكة السخرية ، وقلت له مستهزئا : ولماذا لم تظهر هذه الشجاعة بالأمس ؟ وتأملت وجهه المربوط والبقع الحمراء الراشحة من الشاش ، وأكلنى قلبى ، ولانت شجاعتى ، واتضح لى أن الشخص الذى أمامى هو أخى ، ابن أبى ، وهو الآن يخشانى ، والرعب ينقص بدنه منى بينما فى صغرى كان يستطيع أن يرفع يده الكبيرة هذه ويصفى على وجهى ، ولا أرد عليه ، ولكنى وجدته يصاعد شجاعته ويبدو أمامى متماسكا وقويا فسبب أمى قائلا : يا ابن أم قملة . فوجدتنى أرد عليه بسبه أقبح منها : لو كانت أمى بقملة ماتزوجها أبى على أمك . وانتبهت الى أنى أسير وهو بمحاذاتى على الجهة الأخرى يتفادى عشرة الحجارة الكبيرة المنشورة بطول القناة ، ووجدته يقول : ابقوا هكذا على عماكم يقودكم حسين وأنتم لا تدرون شيئا .

وسألته : لا ندرى شيئا عن ماذا ؟

فقال : انكم لا تدرون أنه يأكل رزقكم أولا بأول .
واجبته قائلا : طالما أنت تعرف ذلك لماذا لا تجيء من تلقاء نفسك وتنصحننا ؟

- كيف انصحكم وأنا اراكم مسوقين له مسلمين له عقولكم .

- ان لم يكن من أجلى من أجل ياسر أخوك الأصفر من أجل البنات مكسورات الجناح .

- عندى ما يثبت أنه يسرقكم عينى عينك وأنتم لا تدرون .

- وكيف اتأكد من كلامك هذا ؟

ووجدتنى اعبر القناة اليه . ولم يسكن فى الأرض البراح غيرنا وبعض الفلاحين الذين انحنوا بعيدا على أراضيسهم يزرعون أو يقلعون ، وانشغل حسن برفع الطوب الكبير من تحت التوتة ، وقعد مربعا ، وكان قد ألقى المنجل بعيدا فوق كومة القش القريبة من البهائم التى تمددت تحت شمس الضحى تجتر باستسلام وقعدت الى جواره ، وسحبت علبة السجائر من جيبى وعزمت عليه بواحدة ، واخرج هو علبة سجائره وعزم على ، وأخذ كل منا سيجارة الآخر ، وأشار الى الشريط المربوط على رأسه وقال : يعجبك هذا . . تفرج علينا « الى يسوى والى ما يسواش » . قلت له : لأنك تستاهل . . تتسبب فى جرجرة اخواتك البنات الى الجمعيات والمحاكم وتعطل مصالهن .
- انا عملت هذا انتقاما من حسين .

— أنت تنتقم منا نحن لا من حسين . . ثم هل كفر حسين حين اراد شراء نصيب أبيك من الطاحونة ؟
— أنا لم امانع في هذا ، وعلى يدك بعت مثلكم : أنا اقصد ، الفصل ، الذي دفعني للموافقة على البيع بالقوة ويصغرنى أمام أهل البلد وأنا في نظرهم أهم عضو في جمعيتهم الزراعية .
— ليست هذه بالحجة المقنعة ، المهم أنت تقول عندك ما يثبت أنه يسرقنا .

— قايلى الليلة في دار الحاج « أبو سيمكة » وأنا اثبت لك في حضوره لأنه شاهد على ما اقول .
وقمت على هذا الوعد حتى التقيته بعد العشاء في الدار التي حددتها ، ووجدته جالسا على احدى الكنبات في دار الحاج ، ورحب الرجل مستبشرا بالصلح بين الأخوين ، وأمر جماعته بصنع الشاي ثم عاد ليقعد بيننا ، وتحدث حسن قائلا : أنا لن أقول شيئا الحاج هو الذي سيتكلم ، قل له يا حاج ماذا يفعل بهم حسين .
— خلاص يا حسن انس ما فات خيلنا في النهارده .
— وحياء الى زرتك لتتكلم .

— يا حسن يكفي أن أخاك هنا وابدأ معه صفحة جديدة .
— أنا عندي شروط سأعرضها عليه ولكن بعد ما يعرف ما فعله بهم حسين .

— والله يا حسان يا ابني هذه شهادة تدخل معي قبرى وقد سببت في قطع عيش الرجل الذي يعمل معي ، حين علمت أنه يؤجر جملي في حمل محاصيل من أرضكم سألته هل هذه الاحمال يعلم بها باقى الورثة ، قال انها تتبع حسين وحده قلت له أنا لا ادخل دارى لقمة حراما ، وتحرم لقمتك عندي ، وطردته .

— وهل ما حمله كثيرا ؟
— كلام فارغ شوية ذرة ، وشوية قمح ، وكم غبيط تبين .
— ليس هذا كلاما فارغا يا حاج ، أنا لي نصيب فيه لأنى لم احصل على شيء من الأرض من يوم وفاة المرحوم ، وسأطالبهم ببيع هذه الأرض من يومها حتى الآن .

وهذا أول شروطنا يا حسان .
— ماشى . . وبالنسبة للفدانين اللذين تدعى أنهما لامك .
— هذا حق الله ، ولا رجعة فيه ، اذا كان هو لا يريد ، واذا كانت أخته لا تريد ، أنا اريد ، نخصمه من مجمل الأرض ، ثم نبدا التقسيم .

- عرضنا عليك هذا من قبل لماذا البجائنا لدخول المحكمة ؟

- العند يولد الكفر .

وقال الحاج : لعب الشيطان بعقله فترة . . . والمسامح كريم ، يأخذ نصيبه من أمه ويتنازل عن القضية ، وطالما يحلله على نفسه فهو حر امام الله .

فوافقت على هذين الشرطين ، فما قولكن في ذلك ؟

السماة السابعة :

قالت الخالة لبنات أختها فيما بعد : أنا لم اقصر فيها أبدا ، كنت معها لآخر نفس ، سلمتها بيدي هاتين اللتين سلمتا للموت - من قبل - الأم والأب والأختين وهي لم تقاومه ، بل استقبلته بوداعة ، وقد عرفت وجهه من أول الليل ، وحددت ساعتها بنفسها ، وهيات له روحها ، وكان وجهها - وهذه شهادة تدخل معي قبري - مضيئا كالبدر في تمامه .
وكانت الخالة - والحق يقال - معها لحظة بلحظة منذ الساعة التي ذهب اليها يسرى ليستدعيها من دارها لحاجة اخته اليها ، وقال لها : ارجوك يا خالة أن تراعيها فعلى لا يسمح بالعودة الى جوارها .
ولفت الخالة وجهها بالشاش الأسود الكبير ، وارتدت جلبابها الحريري اللامع ، وجرت لحملها الكثير في شوارع البلد متجهة الى دار أختها ، وقد رفعت يدها عن عمل الدار وتركت زوجة أخيها قائلة لها : لا تعتمدى على كثيرا هذه الايام .

وكانت في قلبها تعرف أن هذا الرجل الذي حضر فجأة من الاسكندرية لابد وأن يكون حاملا للنبا الذي سيقضى على ابنة الأخت المسكينة ، عرفت ذلك من سحنته الجبهة ، وعرفت أن في طيات نفسه سرا رهيبا ، ولا يمكن أن يكون حاملا للخير أبدا ، وقد اوسعت له ، ليبوح بسر .

وعلمت من زبيدة كل شيء ، وطمأنت خاطرها .

وقالت لها : لا تهتمى بذلك أبدا .. فهذا لا يعنى شيئا ، كل الرجال يخطئون ثم سرعان ما ينتبهوا لخطئهم ، فهذا أبوك - كما تعلمين - قد غلب أمك في بداية حياتهما وتزوج عليها ، وكلمت أمك طوب الأرض ، كانت تقضى الليل تشد شعرها ، وتمزع ثيابها المطوية في الدولاب حتى انتهت النزوة وعاد اليها خاضعا ، وأنت والحمد لله لا ينقصك شيء ، غدا يشفيك الله ويأتى هو على جدور رقبتك ليستعطفك ويطلب منك العودة ، وتكون الاخرى قد انتهت من حياته .

ولكن زبيدة لم تحتل الصدمة ، ولم تصدق كلام الخالة ، وشجب لون بشرتها وعلا الاصفرار وجهها ، وازدادت خطوط الشيخوخة عليه ، وهزل بدنهما ، واهملت زينتها الحريصة على اتمامها كل صباح ،

ولم تقرب الماء ولو لتشطيف وجهها ولم تنظر في مرآة قط ، ومن حين
لآخر تلتفت الى الخالة فجأة لتسألها : انظري يا خالة .. هل أنا
قبيحة ؟

وترد الخالة باستسلام ، وتقول مجاملة : قبيحة ! قطع لسان من
ينطق بهذا .. أنت قمر .

وتروح زبيدة في سرحات طويلة ممتدة ، ثم تنهد وتفرغ
زفرات صدرها العليل : ملعون أبو الدنيا .. غدارة .. تفووه .

أو تقول في وجه الهواء معاتبة : كذا يا كمال يهون عليك العيش
والملاح ، ولا تجد الخالة ما تقول ، ولكنها تعقب : يا أختي لا تتعبي نفسك
يكفى ما أنت فيه بصي لنفسك ، وانسى .

وتقول زبيدة بألم : انسى .. انسى عشرة العمر معه تهون عليه
في لحظة ويرفسها برجله .

وعافت نفس زبيدة الطعام ، والخالة تقترب منها بالطبق به
قليل من الارز أو بعض الخضار المسلوق أو بفخذ الدجاجة ولا تملك
زبيدة الا ان ترفع يدها لتزيح الطبق بعيدا . لا نفس للطعام .

بـ بائنتي رمى عظمك بهذا الفخذ ، لم يدخل جوفك طعام من يومين .
ولا تجيب زبيدة تظل محملة في النور المندفع اليها من فتحة
الباب ، وتظل على صمتها المهيّب ، تنهت لفورة نفسها التي تغل بمشاعر
الحقد على هذا الغادر الذي القى حجره بصلافة في مائها العكر .

وتقول الخالة لبنات أختها : في اليوم الأخير ذبحت لها الفرخ
الشامورت وطبخت شربة الخضار الخالية من الملح ، وحاولت معها ،
ولكنها اصرت قلت لها : ولو ملعقة شربة واحدة .

احتست من طرف الملعقة ، ثم مجتها في بصقة نثار رداها على
صدرى ، واعقبته بـ « ملعون أبو الدنيا » وأبو من يتعلق بها ، وطلبت
نفسها النوم فنامت ، وكانت لا تشبع منه ، طالت ساعات نومها ،
وأجلس أمامها على الكنبه أسمع لأنفاسها الممزقة وتنهداتها المحشجة
فأنادىها باسمها زبيدة زبيدة فلتفت الى من تحت الفطاء ذاهلة ،
بعيون مضربة لم تعد ترى الدنيا ، فعرفت أنها الخبيرة بأحوال الموت
وتحولاته بأن الساعة قد اقتربت ، زبيدة دخلت الكنبه . هذه
ملائكة أمي . وأختي ، قد ركب عني ميدها ، فعلى أن اكون الى جوارها .
ولا أفارقها ، وقامت لتبعد الغطاء عن ساقيها ، فتعرت أنفاسها الشاحبة ،
ومدت يدا مرتعشة تلملم أطراف الثوب عليها . وتدارى عريها .
وقالت : اسنديني يا خالة . فسحبت الوسادة وجعلتها وراء ظهرها ،

ورفعتها من تحت ابطها ، وزحزحتها الى الورا ، وراحت تبخلق فى وجهى ، وكان شعرها الذى املت غسله قد تناثر على جبهتها ، وسقطت خصلة مبعثرة على الصدغين المبللين ، وانسحب المنديل وسقط الى الخلف وظل متشبثا بأطراف الشعر .

وقالت : يا خالة ساموت الليلة .

— بعد الشر . . لا موت ولا حاجة أنت أشهد منى . . وساموت

قبلك وستحضرى دفنتى ان شاء الله .

فشخطت فى وجهى بقوة ، وقالت : لا تأخذينى على قدر عقلى . .

ساموت الليلة . . الساعة الثالثة بالضبط ، فانصتى الى .

واقتربت منها ، وجعلت ذراعى وراء ظهرها ، ورحت ادلك ساقها

باليد الاخرى ، وقالت : معى مائة جنيه . . جعلتهم فى صرة ، واخفيتهم

فى هذه النملية ، ويسرى لا يعلم عنها شيئا ، فاجعلها لخرجتى ،

واذا لم تكف ، معى هذا الخاتم ، وهذه الدبلة ، اسحبها من أصابعى

وكملى المبلغ المطلوب .

واشارت الى ضلفة النملية ، وقالت : هناك وراء هذه الصناديق

ستجدين حقيبة قديمة سوداء ، هات منها الفلوس .

وقمت لاحضر لها الحقيبة ، وجعلتها على بطنها ، وفتحت غلقها ،

ودست أصابعها تبحث بين الاوراق الكثيرة عن منديل قديم معقود على

لفة من المال ، عشرات كبيرة حمراء ، رفعتها بين أصابعها المهتزة ، وبدأت

تعد عشرة عشرة ، وتمد يدها الى لكرر العد ، وعينها على ثباتهما

وحملتتهما فى دفقة النور ، لا تنظر الى ما بين يديهما لأن الحادقتين

جمدتا ، وانسحب منهما لونهما : وصارتا بيضاويتين .

وقالت : حظى الفلوس فى صدرك ، ولا تعلمى بها أحدا حتى يتم

المقدر .

وقلت لها : حاضر من عيني .

وأعدت الحقيبة فارغة الى النملية ، وكان يسرى يقف وراء ضلفة

الباب ، وأشار الى بيده ، وقال همسا : أنا يا خالة فرفعت له

السبابة الى أنفى ، وقلت له : هوووش .

وكانت لا ترى أخاها المختفى والذى سأل ريقه للعشرات الكبيرة

الحمراء .

وسألتنى : هل أحد معنا فى الحجرة ؟

وكذبت عليها : لا يا اختى . . لا أحد .

واشرت لـ « يسرى بظاهر كفى ليتحرك من مكانه ويدخل الى

حجرته باخر الدار ، فصر من أمام الباب ، وخمقت جمونها لظله .
على العموم هذه الفلوس أمانة ومستألى عنها أمام الله .
وقالت : أنت تكذبين .. يسرى كان يرقبنا من وراء الباب ..
وقلت لها مطمئنة : فى الحفظ والصون .

فى أول الليل دخل يسرى حجرته ومعه النار والجوزة ، وقعد وحيدا بين السرير والدولاب يرص الحجارة ، ويشد الأنفاس ، ويسعل ، ويتردد سعاله بعيدا وخافتا بين الجدران السسميكة فيصل اليهما فى الحجرة الاخرى باهتا وضالا ، كأنه قادم من عابر يعود وحيدا . الى داره بعد انقضاء سهرة الليل وبعد أن عمر رأسه بالدخان ، طرق يسرى باب الحجرة ليسأل الخالة ان كانت تريد شيئا ، وردت عليه زبيدة : اذهب أنت ونم وان احتجنا اليك سنستدعيك . وعاد بظهره دون أن يفتح الباب .

وظلت زبيدة على رجليها بين الغطاء المنشور على بدنها الواهن ، تحت شحوبة المصباح الذى يفرش جدران الحجرة بنور أصفر ، وكان الذباب قد صنع من سلكه عنقودا أسود يتدلى من السقف ، وحام بعضه بين حوائط الحجرة المخلقة ، والخالة قابعة أمامها على الكنبه سائلة رأسها الكبير على يدها تتأمل زبيدة التى تقاوم النوم ، تستسلم له مرة ، ثم تنتفض فجأة لتقعد مربعة ، ظهرها نحو الدولاب المفتوح فى الحائط المقدسة على أرضينه علب الدواء تبحث بعينها التائهة عن الخالة ، فتقوم اليها لتأخذها بين يديها : عاوزه حاجة ؟

- نعمتى ؟

- أنا صاحبة .

- عاوزه اقول لك حاجة .

- نعم

- خصيمك النبى لا تدخل على امرأة غريبة فى غسل ، أنت فقط ، وان كانت واحدة من بنات خالتى تجرؤ على الدخول معك فامسحى لها ، فانا اخجل أن ترانى غريبة .
- حاضر .. من عيني .

- والكفن يكون من الحرير الأخضر .. الستان .. وتشترى زجاجة عطر غالية ، وتدلقينها كلها على جسدنى .

- حاضر يا زبيدة لكن لا تقولى على نفسك ، أنت ستعيشين حتى تعودى الى شقتك ، فانا لم اتصور نفسى أبدا أن ارى موتك ، لاننى

سأمت وحيدة وأنت التي ستحضرين غسلي ، لاني لا ارضى أن تحضره
زوجة أخى ، فأنا لا ارتاح اليها ، وليس لي غيرك .

— وتقولى لـ يسرى أن يفتح تربة أمى ليدفننى معها . . وأرسلى
تلغرافا لـ « كمال » على سبيل الواجب ، ولكن لا تأخرى جنازتى حتى
يحضر .

— حاضر . . بس ارتاحى شوية .
— أنا مرتاحة كدا . . اللقا يوم اللقا .

وتظل على حالها بشعرها المنكوش تدير بصرها فى انحاء الحجرة
كأنما تبحث عن شئ تاه منها ، وحين تجهد تمد طولها وتجعل وجهها جهة
الحائط لتقوم مرة أخرى فسحب المنبه من أرضية الدولاب وتبخلق فى
أرقامه ، وتقول : الساعة الواحدة . . لسه ساعتين وتنام ، وتظل الخالة
متكومة على نفسها فى جانب من الكنبه حتى رأتها تقوم منتفضة لتحادث
شخصا وهميا دخل عليها الحجرة : أهلا يا امه . . تعالى . . تعالى اقعدى
جنبى . . ازيك . . مالك مكشرة ! أنت زعلانة ؟ أبوى معاك ؟ . . تعال
يا آبا . . دى خالتى محدش غريب

وقالت الخالة لنفسها : أهلا . . هم وصلوا .
وتفر الدمعة الساخنة من عين الخالة ، وتذكر أنها النهاية ، هكذا
رأت أختها حين حصرتها المنية خيال الأب الراحل ، واحتضنت هذا
الخيال بين ذراعيها شوق ، وقبلت الهواء أمام وجهها ، وحادثته
وحادثها ، ولم يذهب حتى أخذها معه ، وهكذا رأت أباهما وهو يحادث
أصحابه الراحلين ، يدخلون عليه ممطين أحسناتهم المزخرفة السرج ،
ويرفع ساقه من تحت الغطاء ليتشبث بظهر أحدهم ، ويصرخ فيه :
انتظر حتى الملم شال العمامة فقد اطارها الهواء منى .

وسألتها الخالة وهى تكفكف الدمعة : من الذى تحادثينه
يا ربيدة ؟ .

واجابتها بجدية وكأنها تستنكف سؤاها : هذه أمى ألا ترينها ؟
وتعود الى الحديث مع خينال الأم : هذه خالتى يا أمى لماذا
لا تحادثينها ؟

وتعود فتتكلمش تحت الغطاء متجمعة على نفسها .
وقالت الخالة لبنات أختها : وصحت مرة أخرى لتمسك المنبه بين
يديها ، وتقربه من عينيها ، وقالت : الساعة الثالثة .
فصحت فيها مهللة : ها قد مرت الساعة الثالثة ولم تصدق نبوءتك .

ودعنتى لانام الى جوارها ، وقمت لافرد سائى المنعقدتين ولاتمد
الى جوارها .

وقالت : احضينى يا خالة .

فجمعتها بين ذراعى ، وقالت متنهدة : بالقوى يا خالة بالقوى .
فشددت عليها الذراع حتى كادت تنعصر . وقالت مرتاحة : الله ..
خليك كدا ، ومكثنا على هذا الوصح حتى أخذتنى الغفوة عنوة ، وانتبهت
على البرودة تسرى على أطراف أصابعى ، فصاحت لارى يدى المهمة
ساقطة على كفها النى جمدها البرد ونز منها العرق ، فصحت وأنا اهزها
من كتفها : زبيدة زبيدة ! . ومددت اصبعى لأسبل الجفنين ،
وحمدت الله على أنهما طاوعانى وانسدلا ، وعرفت أنها انسحبت منى
غفلة ، فى هذه الغفوة اللعينة .

وندهت على يسرى بأعلى صوت ، وجاء يللم ياقة جلبابه الذى
يرتديه على اللحم : مالك يا خالة .. مالك .

قلت له : ارفع معى أختك لنجعلها على القبلة .

وكنت الوم نفسى حتى لا ارتكب خطأ يعاقبنى عليه ربى ، فيكفى
أنها سرفت منى دون أن أرى صراعها الاخير ، فلا اقل من أن أجعل
رأسها على القبلة ، ورفع يسرى أخته من ساقها ، وانفرطت دموعه
على صدره ، ماتت يا خالة . ماتت .

قلت له : لا داعى لهذا الآن .. ابق معها حتى انهى على البنات .

وخرجت الى الصلاة وصوت بكائه يتردد فى نهضة متقطعة ويملاً
سكون الدار . وخرجت الى الشارع تخفينى شجيرة الصبح الساقطة
على هيكل الطاحونة والتي تملأ الساحة الفارغة حولها ، وشققت طريقى
الى حوش الحمير ، وأنا لا أرى ما أمامى حتى صدمت فى حائط حجرة
الميزان المنخفض ، وأصوات المآذن تأتى من بعيد تتف للصبح
الوليد ، وانتبهت أنى خرجت عارية الرأس ، لم التفت للشاش المفكوك
على الكنبه أمامى ، وطرقت نافذة حسان فأجابتنى زوجته الفارقة
فى النوم بصوت بعيد وخائف : من ؟ .

قلت لها : صخى حسان .. زبيدة ماتت .

وسمعتها وهى تحاول ايقاظه وهو مستغرق فى أحلامه ، لا يريد
الانتباه ويحدث رجلا مجهولين ويسب آباءهم لأنهم لا يكفون عن ازعاجه
حتى استيقظ أخيراً ، وكنت قد انتقلت الى النافذة الاخرى لاوقظ
زبيدة أم. محمد التى قامت تبص من النافذة محلولة الشعر : فيه ايه
يا خالة ؟

قلت لها : بنت خالتك تعيش أنت .

واختفى وجهها فى ظلام الحجرة .

ولما عادت مرة أخرى وجدتها وحيدة فى فراشها ، والغطاء انكشف قليلا عن وجهها حتى بانّت منابت شـعرها ، وجزء من الجبهة وحافة الغطاء تدور فوق الجفنين المنفلقين ، ويداهما برزتا من تحت الغطاء وحينما اقتربت منها لتعيد ضبطه عليها ، وجدت أصبعها خالية من الدبلة ، وسحبت يدها الأخرى ، فوجدت الخاتم قد نزع منها ، فقالت الخسالة لنفسها : هكذا يا يسرى لم تصبر .

وعاد يسرى ليقف على الباب بعد أن غير جلباب النوم وارتدى جلبابا نظيفا يستقبل به الناس ، ونظرت إليه بلوم ، وهو توارى بوجهه فى المنديل لمسح الدموع التى تسح من عينيه .



النهايات

بعد الدفن وقف رجال العائلة صفا ، ومر عليهم المشيعيون يسلمون عليهم ويقولون « عظم الله أجركم » ، فيرد الواحد منهم بصوت مخنوق بالحزن « شكر الله سعيكم » .

ورفع النعش فارغا ، بعد أن طوى بداخله اللحاف والملاءة ، ونزع الخوص الأخضر عن رأسه ، ونثره أحدهم فوق المصطبة التى دفنت تحتها زبيدة ومكث الرجال أمام العين المسدودة بالحجارة بعد أن وشوا الماء على التراب . وانتشروا - جميعا - بين المصاطب ليقفوا لحظة أمام المقبرة التى تضم الراحلين من الأقرباء بينما تركوا أهل الميتة وحدهم .

وقف حسين وحسان ويسرى على رأس المصطبة ، ووقف حسن الى جوار عمه الحاج على بين سور الحوش القصير ، أمام الفتحة المثلة ، وبنات الحاج محمد قطعن الجبانة بالعرض حيث مرون على مقبرة أمهن الواقعة بالطرف الغربى ليقران لها الفاتحة ، واتخذن طريقهن من هناك حيث عدن معا الى البلد .

ويسرى سار بين ولدى عمه متجهين الى الطريق المسفلت ليعبروا من هناك شريط القطار ، ويهبطوا منه الى دورهم ، وقبل أن يهبطوا ودع الاولاد يسرى على مزلقان المحطة ، على وعد باللقاء فى المضيعة بعد آذان العصر .

وفى الطريق قال حسين لأخيه : مسكين لقد اضاع فرصته بيده .

وأجابه حسان : ونحن أيضا علينا ألا نضيع فرصتنا . . كان ينبغي أن ارد عليه اليوم وقال « حسين » : ليس هذا بالوقت المناسب . . الأيام أمامنا طويلة .

والحاج على ترك حسن على أول المقبرة لأنه عثر هناك على جار له ، وسار معه متأبطا ذراعه ، وعلى حين غفلة كاد الحاج أن يزغد جاره ويقول له كلاما انتبه على آخر لحظة ، وآثر أن يقسوله لنفسه بعد أن تلفت أمامه ووراءه : يبدو أن الوقت قد حان لنوسع الدار ، لنعيد بناءها بعد عودة ابننا الغائب فانا أظن أن يسرى لن يلبث أن يتصرف في نصيب أخته ويرحل كلية عن البلد .

وحسن فضل العودة من جسر الترعة التي تدور حول البلد لأنه اقرب الطرق للوصول الى داره .

صار الآن وحيدا بين الزرع يمشى على جسر الترعة التي طفع ماؤها على بعض الطريق ، والشغل عقله بفكرة أن حسان لم يقترب منه ، ولم ينتهز الفرصة ليرد على الشرطين اللذين اقترحهما عليه ، وبات يظن أن باقى الاخوة رفضوا شروطه وفي هذه الحالة ، تظل القضية مطروحة على المحللة . ونظر يده كمن يرجم ابليس بحجر قائلا لنفسه : هو حر . لكن نصيبى فى أمى لن افرد فيه .

واعاد التفكير فى الامر ، وقال : ربما الوقت غير مناسب ، ولدينا ليلة طويلة فى المضيقة ، وحين لم يجبنى هذا اليوم سأعتبر ذلك ردا فى حد ذاته

وفى نفس اللحظة كان يسرى قد وصل الى داره ، فتح الباب ، واحتوته جدرانها العتيقة ، وفاجأته وحدته المباشغة ، لم يكن يهتم فى الأيام السابقة بوجوده وحيدا فى هذه الدار ، ولكنه هذه المرة يحس بمشاعر لم يكن يعرفها ، فتح باب الحجرة الوسطانية ، فوجد السرير لم يذل مفكوكا وأخشابه مركونة فى ناحية ، والبلاط لم يزل مبلولا بماء الغسل ، والكنبة مشبوحة على جنبها ، وفرشتها مكومة فوقها ، وعلى النملية طويت المرتبة والوسائد « من سيعيد كل هذه الاشياء الى وضعها ؟ »

وفزع من دخول الحجرة ، فعاد بظهره ، هل يخرج ليجلس على المقهى ؟

فتح الباب الكبير ، فانتبه لصمت الشارع ، الطاحونة مغلقة الأبواب ، وهدير وابورها سقط فى العدم ، هل يستدعى أحدا ليقضى

معه الوقت حتى يحين موعد المضيئة ؟ وماذا يفعل مع الليل الطويل ؟ بل
الليالى الطويلة المقبلة ؟

انه مرهق جدا وبجاجة شديدة للنوم ، واغلق الباب ، وعاد يظهر
ليدخل حجراته بآخر الدار : ونمدد بملابسه فوق السرير سائدا ظهر
الى الوسائد عاقدا ذراعيه من خلف « هل سيحضر كمال ؟ » اصررت
الخالة على ارسال البرقية ، ولا ادري لماذا فعلت ذلك ؟ سيأتى اكيد ،
فقد حان وقت المطالبة بحقه .. نجوم السماء اقرب له .

« ليتك يا حسين كنت فاتحتها فى الموضوع من زمن . كنا
وجدنا الفرصة للتسجيل ، ولم تكن حصيلتنا من الدنيا هذه الأوراق
التي لا فائدة منها . كتبت بعد فوات الأوان ، لم أجروا أبدا على الضغط
عليها لتصبحنى الى الشهر العقارى .. كانت المسكينة قد سقطت تماما ،
ولم تسعفها صحتها لتقضى هذا المشوار ، ومن الظلم اجبارها على ذلك ،
كنت أومل نفسى بأنها ستشفى يوما ما وتتمكن من الذهاب معى ، ولكن
الأجل كان أسرع . »

« ألم يكن من الواجب يا خالة البقاء فى هذه الدار ، ولو ليومين
تؤنس وحشتى ؟ عندك حق .. امتلأت الدار بالاشباح .. فكم شبح
سأواجهه فى أيامى المقبلة ؟ » .

وكانت الظلمة الشفيفة للحجرة ، والسكون العميق فى المكان ،
وحاجة جسمه المجهد للراحة قد جلب الغفوة التي جاءت اليه حانية
ولطيفة فكر فى القيام ليرص كرسي الدخان ليمنحه مزيدا من الخدر ،
ولكنه استجاب للغفوة التي سرت فى دمه الهادىء ، فسقط فى حضنها
مستسلما .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٩٦٤ / ٩٩

I . S . B . N 977 - 01 - 6467 - 4



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
- للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضم ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفض
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

0600509



0600509



١٢٥ قرشاً

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩